

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIETE EGYPTIENNE D'ETUDES HISTORIQUES

المجلد
التاريخية
المصرية

يشرف على تحريرها

محمد مصطفى زيادة

نائب رئيس الجمعية

أحمد محمد عيسى

سكرتير التحرير

أحمد بروى

رئيس الجمعية

إبراهيم نصفي

الأمين العام

١٩٦٣

المجلد الحادي عشر

تطلب من مقر الجمعية - ٢ شارع ناصر الدين ، المتفرع من شارع البستان
ومن المكتبات الكبرى

محتويات العدد

صفحة

كلمات التأمين :

- ١ - كلمة الأستاذ محمد رفعت
- ١٠ - ٢ - كلمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
- ٢١ - ٣ - كلمة الدكتور يحيى الخشاب
- ٢٦ - ٤ - كلمة الأستاذ اسحق موسى الحسيني
- ٢٩ - ٥ - كلمة الدكتور محمد محمود الصياد
- ٣٢ - ٦ - كلمة السيدة عزيزة مريدن
- ٣٥ - ٧ - حفل التأبين الذي أقامه مجمع اللغة العربية

البحوث :

- ٤٩ - ١ - ولاية قرّة بن شريك على مصر « في ضوء أوراق البردي »
- ٦٥ - ٢ - شمال أفريقيا والوندال
- ١٦٧ - ٣ - القرماطيون
- ١٧٤ - ٤ - تاريخ بناء القرويين
- ١٨١ - ٥ - السجاد الإسلامي ومشتقاته في أسبانيا
- ١٩٥ - ٦ - الأباطور فردريك الثاني والشرق العربي

صفحة

٢١٥ ٧ - سلطنة دارفور « تاريخها وبعض مظاهر حضارتها »
دكتور مصطفى محمد مسعد

٢٥٥ ٨ - شفيق غربال مؤرخاً
دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

٢٧٩ ٩ - جراكوس بابيف ومؤامرة الاكفا
الاستاذ عبد الكريم أحمد

نقد الكتب :

٢٩٩ ١ - سندباد مصرى أو جولات فى رحاب التاريخ
المغفور له الأستاذ محمد شفيق غربال

أنباء ومؤتمرات :

٣٠٥ ١ - المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية
تونس ١٨ - ٢٩ مايو سنة ١٩٦٣
للأستاذ حسن عبد الوهاب

ملحق بالإنجليزية : كلمة الأستاذ أرنولد توينبى
فى حفل تأبين المغفور له الأستاذ غربال بمجمع اللغة العربية



المغفور له الأستاذ محمد شفيق غربال

تصدر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية هذا العدد الخاص ،
إحياء لذكرى رئيسها السابق المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال . ويضم
هذا العدد كلمات الرثاء التي أقيمت في الحفلات التي أقيمت لتأبين
الفقيه الراحل في معهد الدراسات العربية العالية وفي الجمعية المصرية
للدراسات التاريخية وفي مجمع اللغة العربية .

كلمة الأستاذ محمد رفعت*

من أخرج المواقف التي قد يصادفها المرء في حياته أن يجيء دوره في عمل ما في أعقاب شخصية ممتازة شهد لها الجميع بالكفاية والتفوق وكريم الشيم . إن ذكرى صاحب هذه الشخصية تبقى حية ماثلة في أذهان الناس من حوله وتظل كذلك حتى يتاح لمن يخلفه أن يبرز شخصيته وينهض بواجبه ليرتفع به إلى المستوى القويم المنشود . ولا بد لذلك كله من جهد ووقت وجهد . لذلك كان حزني بالغاً لوفاة زميلي وصديقي شفيق وكان حرج موقفي أبلغ عندما وجهت إلى الدعوة لشغل بعض الفراغ الذي خلفه فقيدنا في معهد الدراسات العربية . وأقول بعض الفراغ لأن الفراغ كله الذي خلفه فقيدنا لييجل حقاً عن الإحاطة والحصر .

وقد عرفت شفيق طالباً وزميلاً نتلقى العلم في أثناء الحرب العالمية الأولى في جامعة واحدة هي جامعة ليفربول بإنجلترا — هو في عامه الدراسي الأول وأنا أكاد أجتاز المرحلة النهائية في الدراسة .

وزاملته وصادقته في مرحلة التدريس الأولى بالمدارس الثانوية . وفي تلك الفترة أسهمنا ومعنا زملاء لنا آخرون — منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر — في حركة التعريب والتمصير الأولى للمقررات التاريخية فكانت الكتب الدراسية التي وضعناها القبس الأول الذي اهتمدى بضوئه الطلاب والكتاب من بعدنا وكانت المعلم الأول الذي لقن شباب الجيل ورجال المستقبل دروسهم الأولى في التاريخ القومي والتاريخ العام . ومع أن ظروف العمل قد فرقت بيننا بعد ذلك فصعدت به إلى منصة الأستاذية بكلية الآداب بجامعة القاهرة وسلكت بي

(*) (ألقيت في الحفل الذي دعا إليه معهد الدراسات العربية العالمية و ديسمبر ١٩٦١

لتأبين الفقيد) .

إلى مدارج وزارة التربية والتعليم فإن أسباب الصداقة القديمة وزمالة العمل
للنهوض بالبحوث التاريخية قد ظلت موصولة بيننا إلى أن التقينا ثانية في ميدان
الخدمة العامة لتربية النشء وثقيفه .

وإني لأقولها قولة صريحة لا مبالغة فيها إن ما أسداه شفيق لخدمة التاريخ
من حيث التوسع في موضوعاته والتعمق في بحوثه لجهد جامعي علمي ممتاز .

ذلك أن أستاذيتيه للتاريخ بجامعة القاهرة قرابة ثلاث قرن أو أكثر قد هيأته
لمعالجة مختلف الموضوعات التاريخية على تنوع عصورها ومواطنها . فلم يقتصر
الفقيد على موضوعات تخصصه في التاريخ الحديث بل تعداها إلى معالجة موضوعات
شتى كانت تدخل في نطاق العصور القديمة أو المتوسطة . وما زال يجد ويبحث
في مصادر تلك العصور وفي آدابها واجتماعياتها حتى أصبح الفقيد يضارع بل
ويبزا أحيانا بعض المتخصصين في تلك العصور . ثم إنه قرن دراسته فيها بالممارسة
الفنية العملية فأظهر استعداداً بارعاً في فن الآثار . وكان من أثر براعته هذه ظهور
متحف الحضارة المصرية الذي قامت على إنشائه لجنة عليا ظلت تواصل العمل
طوال ستة أعوام كان فقيدنا في أثناءها أنشط الأعضاء وأكثرهم إنتاجاً . وكانت
هناك عدا المتحف أوجه عدة لنشاط الفقيد في الدوائر والمؤسسات التاريخية
الأجنبية وفي المؤتمرات الدولية وفي لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .
ثم في معهد الدراسات العربية الذي مازال يبكيه أستاذاً ومديراً وصديقاً لأساتذته
وظلابه . وأجل من هذا كله وأبقى هو تخريج عشرات بل وآلاف من الدارسين
والمدرسين الذين أخذهم جميعاً بالأساليب العلمية الحديثة في البحث ومعالجة
الموضوعات التاريخية . وليس ما قصد إليه الفقيد بالأساليب العلمية هو أنه كان
يعتقد أن التاريخ علم له قواعده وقوانينه مثله في ذلك مثل العلوم الطبيعية ؛ ذلك
لأن العلوم تبحث في الظواهر الطبيعية وأداتها المشاهدة والملاحظة والتوجيه
والحساب . أما التاريخ فيبحث في الموضوعات والبحوث الإنسانية وفي الحضارات
وعلاقات الناس بعضهم ببعض . والناس كما نعلم تختلف أحوالهم وآراؤهم وفقاً

لبيئاتهم وثقافتهم . ولذلك كانت تصرفاتهم وأحكامهم على الأشياء عرضة للتغير والتعديل والتبديل ؛ إنما جل ما دعا إليه الفقيه في دراسة التاريخ هو أن تكون دراسته وفق الأسلوب العلمي من حيث تحليل المسائل وتقصى مصادرها وعللها ونتائجها وتسلسل أجزائها تسلسلا منطقيًا لاسبيل فيه للمبالغة وزخرف القول ولا مكان البتة لأية دوافع أو أغراض ذاتية أو خارجية ؛ وإنما يعالج المسائل معالجة موضوعية مجردة .

هذا هو الأسلوب العلمي الذي حرص فقيدنا على نشره بين طلابه وهو نفس الأسلوب الذي انتهجه فيما أخرجه من كتب ونبذ ومقالات . وهذه هي الرسالة التي حملها شفيق تلاميذه نرجو أن يؤديها مخلصين . أما نحن زملاء الفقيه وأصدقاءه فحسارتنا بفقدته لا يدانيها غير افتقاد التاريخ لعلم من أعلامه في مصر بل وفي الشرق العربي .

رحم الله الفقيه وطيب ثراه وأحسن له الجزاء الأوفى بقدر ما أحسن لدراسة التاريخ وللعلم والتعليم عامة في هذه البلاد .

كلمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم*

في الأسبوع الأول من أكتوبر سنة ١٩٢٩ بدأ عام جامعي جديد في حياة كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) كما اعتاد أن يبدأ منذ أربعة أعوام سابقة، أي منذ تحولت الجامعة إلى جامعة حكومية واستقبلنا الدراسة في الكلية — وكنا في السنة النهائية لليسانس — في مبناها الحالي بعد أن تحولت من مبناها القديم في قصر الزعفران .

واستقبلت الكلية — فيمن استقبلت — أستاذ مصرياً شاباً — وكان الأساتذة المصريون لا يزالون قلة بها ، أستاذاً شاباً تلوح عليه مخايل الذكاء المفرط والنبوغ المبكر وسرعان ما جذب إليه نفوس تلاميذه وعقولهم فأخلصوا له الحب والولاء وأقبلوا عليه ينهلون من علمه الغزير ويتأثرون خلقه الكريم .

وكانت شهرة « شفيق غربال » ومكانته العلمية قد سبقته إلى الجامعة ، منذ كان أستاذاً للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا يحاضر طلابه في فروع مختلفة من التاريخ الإسلامي والتاريخ الحديث ، ومنذ نشر كتابه الجليل « بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي » The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Aly في سنة ١٩٢٨ . وهو الرسالة التي نال بها فقيداً العزيز درجة الماجستير في التاريخ الحديث من جامعة لندن في سنة ١٩٢٤ .

وكان الأستاذ غربال قد مال إلى دراسة التاريخ منذ صباه ، حدثني — رحمه الله — أنه قرأ فيما قرأ وهو لا يزال طالباً في المدرسة الثانوية — كتاب

(*) ألقى في الحفل الذي أقامته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مساء ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦١ لتأبين المغفور له المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال .

وفيات الأعيان لابن خلكان في كامل أجزائه — حتى إذا نال الفقيه العزيز الشهادة الثانوية اختار الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا « على كره من يهيم أمره لهذا » وكان أساس اختياره — كما قال — إنها كانت إذ ذاك المعهد الوحيد في مصر الذي يمكن أن يصله بالدراسات الإنسانية وفي مقدمتها دراسة التاريخ ، ومنذ ذلك الوقت جعل الأستاذ غربال هذه الدراسات محور حياته العقلية ، بل لقد تأثر بها الفقيه الكريم — أيما تأثر — في أسلوب حياته وعلاقته بالناس .
وأتيحت له فرصة الاستزادة في مجال تخصصه في إنجلترا فما أضعها رغم ظروف الحرب التي كانت قائمة في ذلك الوقت (١٩١٥) وما تحمل من أخطار المواصلات وقسوة الحياة في هذا البلد النائي .

ونال الفقيه العزيز درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف الأولى في التاريخ الحديث من جامعة ليفربول في سنة ١٩١٩ ثم عاد إلى وطنه ليعمل مدرساً للتاريخ بمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية ، حتى إذا تجددت فرصة العودة إلى إنجلترا لمزيد من التخصص ، عاد إلى إنجلترا والتحق هذه المرة بجامعة لندن حيث نال منها درجة الماجستير في التاريخ الحديث في سنة ١٩٢٤ برسالة التي أشرنا إليها ، وقد نشرت بعد ذلك ببضعة أعوام ، وكانت — حقاً — أول عمل علمي أصيل في تاريخ مصر الحديث لأستاذ مصري معتمد على وثائق أصلية بلغات مختلفة لم يسبق نشرها . وكان من حظ أستاذنا المصري الشاب أن كان أستاذه في جامعة لندن والمشرف على رسالته الأستاذ أرنولد توينبي ، ومنذ ذلك الوقت توثقت صلات صداقة طويلة وعميقة بين الأستاذين المؤرخين . وقد أشاد الأستاذ توينبي في المقدمة التي كتبها لرسالة تلميذه بالصفات التي يتحلى بها تلميذه والتي تجعل منه مؤرخاً مرموقاً ، وقال إنه في إشرافه على هذه الرسالة استفاد أكثر مما أفاد وقال توينبي في مناسبة أخرى أنه لا يذكر أنه علم تلميذه شيئاً ولكنه يذكر أنه تعلم منه أشياء (١) .

(١) عن كلمة الأستاذ توينبي في تأييد الفقيه الكريم بمجمع اللغة العربية .

وعلى أثر عودة الأستاذ الفقيه من بعثته عين لتدريس التاريخ بمدرسة المعلمين العليا ، فبقي بها إلى أن نقل إلى الجامعة في سنة ١٩٢٩ في وقت كان الأساتذة الأجانب يحتلون أكثر كراسي التدريس بالجامعة . وكانت الجامعة في ذلك الوقت أحد ميادين الصراع الثقافي — وهو صراع سياسي في حقيقته — بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الإنجليزي . وكان الأساتذة المصريون الشبان يعملون جاهدين ليجدوا لهم منفذاً بين كلا النفوذين الأجانبين وليشقوا طريقهم إلى كراسي الأستاذية .

وسرعان ما وصل الأستاذ شفيق غربال إلى كرسى أستاذية التاريخ الحديث فحلف فيه أستاذين أجانبين ذائعي الصيت في علمهما ، وأولهما الأستاذ سانياك الفرنسي ، والآخر الأستاذ جرانت الإنجليزي .

ووضع الأستاذ غربال « لمدرسة التاريخ الحديث » بالجامعة خطة مثلى تقوم على تمصير دراسة التاريخ ، لانعى بهذا فقط تدريس التاريخ باللغة العربية ، وإنما نعنى توجيه الاهتمام إلى دراسة التاريخ القومي الحديث ، وما كان يلقى قبل انتقال الأستاذ غربال إلى الجامعة أية عناية .

استحدث أستاذنا دروساً في تاريخ مصر الحديث السياسي والاقتصادى وفى تاريخ الشرق الأدنى الحديث وشجع المتفوقين من طلابه على متابعة الدراسة العليا لنيل درجة الماجستير والدكتوراه وفتح أمامهم آفاق البحث فى دور الكتب والوثائق وأسس بهم حقاً « مدرسة التاريخ الحديث فى مصر » .

وصادف ذلك العهد اهتمام الملك فؤاد بتاريخ أسرته وخاصة تاريخ جده محمد على وأبيه اسماعيل وكان فؤاد قليل الثقة فى المؤرخين المصريين وفى مقدرتهم على كتابة تاريخ مصر الحديث ، واستجابتهم للتوجيه الخاص الذى كان فؤاد يحرص عليه فى كتابة تاريخ أسرته .

ونزل شفيق غربال وتلاميذه إلى ميدان الكتابة في تاريخ مصر الحديث مذوداً بذكاء حاد وقدرة فائقة على التحليل والبحث والتحقيق وتجرد من الهوى والتعصب وإخلاص للحقيقة وحدها .

وإذا كانت « المدرسة » الرسمية مدرسة المؤرخين الأجانب من فرنسيين وإنجليز قد اتجهوا إلى كتابة تاريخ محمد علي وإسماعيل ، فقد وجه غربال تلاميذ مدرسته إلى البحث في تاريخ الأمة المصرية والمجتمع المصري ، كتاريخ التعليم والصناعة والطباعة والتجارة والفلاح المصري . . . الخ ووجههم إلى الاهتمام بجمع المادة التاريخية الأصلية من مصادرها فكانوا الرعيل الأول من طلاب البحث المصريين الذين ارتادوا دور الوثائق في مصر ، ونقبوا في محتوياتها ، وبذلك عاونوا أكبر معاونة في تنظيمها وتنسيقها وتيسيرها للباحثين من بعدهم — وبذلك وضع شفيق غربال وتلاميذه الأساس لبناء التاريخ المصري القومي في العصر الحديث .

وهكذا فتحت الجامعة أمام شفيق غربال آفاقاً واسعة للبحث والمحاضرة . درس شفيق غربال الأصول التاريخية التي كونت تطور مصر في القرن التاسع عشر فكتب بحته العميق « مصر على مفرق الطرق » وهو تحقيق لنص مخطوط من أيام حملة بونابرت على مصر يحوى إجابات حسين أفندي كبير أفندية الروزنامة على أسئلة وجهها إليه بعض علماء الفرنسيين عن أحوال مصر على عهد العثمانيين . وقد قدم الأستاذ غربال في هذا البحث نموذجاً لنشر النصوص التاريخية نشرأ علمياً محققاً وفتح به ميدان البحث في تاريخ مصر في العصر العثماني .

كما درس الفقيد الكريم ظاهرة التقاء الشرق بالغرب في الحملة الفرنسية على مصر ، وما صاحبها من تفكير في مستقبل مصر السيامي على أساس استقلالها ، ونشر هذه الدراسة ، وكانت أصلاً محاضرات عامة ألقاها الفقيد في الجمعية الجغرافية ، بعنوان « الجنرال يعقوب والفرانس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ » .

ومضى الأستاذ الراحل يتتبع المؤثرات التي تضافرت على تطوير المجتمع المصري في القرن التاسع عشر ونشر هذه الدراسة في كتابه «محمد علي» في سلسلة أعلام الإسلام . والكتاب ليس ترجمة لسيرة محمد علي ، لكنه بحث عميق في أصول المجتمع المصري كما كان يعيش في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ثم تقصى دقيق لما طرأ على هذا المجتمع من تغييرات واسعة خلال النصف الأول من القرن الأخير . ولكأنى بشفيق غربال قد حشد في هذا الكتاب — على صغر حجمه — قدرته الفائقة في التحليل والتركيب ، في جميع المتفرقات والدقائق ، واستخراج الصور العامة والأحكام .

وفي ثنايا هذا الجهد العلمي المتصل حرص شفيق غربال على المساهمة في المواسم الثقافية العامة التي كانت تنظمها الجامعة ، فألقى محاضرات عامة في تاريخ حركة الإصلاح في تركيا ، وفي الاتفاق الودي الأول بين فرنسا وانجلترا ، وهي محاضرات لم تطبع . واستمر شفيق غربال مصابراً على التدريس والبحث والمحاضرة والإشراف على رسائل طلابه ، لم تصرفه عن ذلك عمادة كلية الآداب حين تولاه في سنة ١٩٣٩ ، ولا المناصب الإدارية التي دعي إلى النهوض بأعبائها في وزارة المعارف ، ثم وزارة الشؤون الاجتماعية (بين سنتي ٤٠ — ٥٤) مستشاراً فنياً للتعليم فوكيلاً للوزارة .

وظلت الأستاذية هي السمة الأصلية فيه ، لم تكن فقط طابع حياته العقلية وإنما كانت طابع حياته الشخصية أيضاً . ومن الطريف أن نذكر أن أستاذنا الكبير كان يتناول المسائل التي تعرض عليه في مناصبه الإدارية هذه بروح الأستاذ بالحلم والناة والتواضع والحرص على الحق والأنفة من التعصب . فكان أن رأى فيه الموظفون نموذجاً للرئيس ، لم يكن لهم به عهد من قبل ، وحين دعي الأستاذ مرة أخرى للعودة إلى كرسيه بالجامعة (سنة ١٩٤٢) لم يتردد ولم يشعر إلا بأنه عاد إلى مكانه الطبيعي ، وكان كرسيه في الجامعة كما كان مكانه في قلوب أصدقائه وتلاميذه باقين لم يشغلها سواه . وظل شفيق غربال معنياً بالمسألة المصرية التي

بدأ بالكتابة فيها حياته العلمية ، وكانت هذه المسألة قد تحولت من مجرد صراع بين الدول الأوربية الكبرى على السيطرة على مصر إلى كفاح وطني قام به المصريون ضد الاحتلال البريطاني ، وما لبث الكفاح أن جنح — في أكثر مراحل — إلى السعى لحل القضية الوطنية بالوسائل السلمية ، فكانت المفاوضات المصرية البريطانية منذ بدأت سنة ١٩٢٠ حتى انتهت بتسليم إنجلترا بالجملاء التام في سنة ١٩٥٤ .

واتجه مؤرخنا الكبير إلى دراسة المسألة المصرية في مراحلها الأخيرة . بعد أن تتبعها في أصولها الأولى ثم في بعض مراحلها في القرن التاسع عشر . ومقدمته لكتابه « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية » الجزء الأول ١٨٨٤ — ١٩٣٦ تصف طريقته في التفكير والتأليف : رأى الأستاذ الجليل أن مصر قد توالت عليها سلسلة من الحوادث والوقائع والسياسات والخطط والبواعث والأغراض والأمانى والأحلام والشهوات ، وقد تكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا ، حتى بلغت مصر (قبيل الثورة) إلى نقطة تحول فاصلة ووصلت إلى مرحلة حاسمة في المصير وجدت من الخير أن تقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المنظم . وفي رأيه « أن هذا التفكير المنظم لا بد أن يقوم على أساس وهذا الأساس هو ماسميته الصورة المركبة من المتفرقات » .

وقدر المؤرخ الكبير خطورة العمل الذي هو مقدم عليه ، فهو يتناول طائفة من الأحداث التي توالت على البلاد ولا تزال مصر تعيش في مؤثراتها ، كما تناول طائفة من الرجال ، الذين شاركوا وكانوا لا يزالون يشاركون في الحياة العامة ، ولم يمنعه هذا من التصدي للحكم على هذه الأحداث وهؤلاء الرجال ، لاحكم رجل السياسة — فهو لم يكن قط رجل سياسة — وإنما حكم المؤرخ الباحث عن الحقيقة ، فجاء كتابه هذا — الذي منح جائزة الدولة — نموذجاً لكتابة التاريخ المعاصر في تقصيه المادة ، وقدرته الفائقة في تأليف الصورة المركبة ، الشجاعة في الحكم ، والاختلاص للحق وحده .

وكان اهتمام شفيق غربال بتاريخ مصر الحديث الباب الذي نفذ منه إلى تاريخ العرب الحديث ، وقد أتاح له عمله بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية أستاذاً للتاريخ منذ سنة ١٩٥٣ حتى انتقاله إلى جوار ربه فرصة التوفر على دراسة التاريخ العربي الحديث وتوجيه طائفة من طلابه إلى البحث والتأليف في جوانب هذا التاريخ . ولو أتيح يوماً لمحاضرات الأستاذ غربال في هذا المعهد أن تنشر ، إذن لوجد الناس بين أيديهم ثروة علمية كبيرة . ولكن أستاذنا — رحمه الله — كان لا يدون محاضراته تفصيلاً ، وكان يؤثر — شأن العالم المحقق — أن لا يتعجل نشر النتائج التي يصل إليها في بحوثه إلا بعد أن يخضعها لمختلف أساليب الفحص والنظر والمعاودة وهو — رحمه الله — لم يقبل نشر كتابه « منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم » إلا بعد أن ألح عليه بعض أصدقائه وتلاميذه . والكتاب ليس تاريخاً للأمة العربية ولكنه فلسفة لتاريخها ، فهو — على حد تعبير عنوانه — (منهاج مفصل) للعوامل التاريخية التي عملت في بناء الأمة العربية حتى وصلت بها إلى ما هي عليه هذه الأمة اليوم . ويقوم هذا المنهاج المفصل على اعتبار أن بناء الأمة العربية متأثر بعوامل رئيسية ثلاثة :

١ — الأوضاع الداخلية للعالم العربي .

٢ — المؤثرات العثمانية .

٣ — الغزو الأوربي .

وعالج المؤلف هذه العوامل منفردة أو متجمعة ، متوازية أو متصلة حتى تم — بالتقائها وتفاعلها — بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم .

وفي هذا الكتاب — على صغر حجمه — تجلى ما تجلى به مؤرخنا الجليل

من حسن تاريخي دقيق ، ووعى عميق للمؤثرات الحضارية المختلفة وتحليل المسائل إلى عناصرها ، وتأليف الصورة الشاملة من متفرقاتها .

وكان هذا الكتاب — آخر ما نشر فقيدنا العزيز ، وكأنه كان (الهدية) الأخيرة لهذه العبقرية الخالدة لأبناء الجيل . وعلى شدة اهتمام الأستاذ غربال بالترجمة كوسيلة لتزويد المكتبة العربية بروائع الفكر الأجنبي ، اهتماماً يتجلى في مراجعته للعشرات من الكتب وكتابة المقدمات لعدد منها ، إلا أنه — هو نفسه — لم يمارس الترجمة كثيراً ، فقد اعتذر عن ترجمة رسالته عن بداية المسألة المصرية إلى اللغة العربية ، وكذلك الفصل الذي كتبه بالإنجليزية عن الحركات الفكرية والسياسية في التاريخ الإسلامي بعنوان *Ideas and Movements in Islamic History* ونشر في كتاب « الإسلام . الصراط المستقيم . الإسلام كما يفهمه المسلمون (١) » وقد تتبع في هذا الفصل الرائع انتشار الإسلام والعوامل التي قام عليها المجتمع الإسلامي والمؤثرات الدينية والسياسية التي تعاقبت في العالم الإسلامي حتى العصر الحديث .

والكتاب الوحيد الذي قام أستاذنا العالم بنقله إلى اللغة العربية هو « المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر » للمؤرخ الأمريكي كارل بيكر ، فجاءت هذه الترجمة نموذجاً في دقتها ، وفي حرصها على المعنى واللفظ ، تقرأ المقدمة المستفيضة التي صدر بها الأستاذ غربال الكتاب ، ثم تقرأ الكتاب نفسه ، فلا تكاد تحس بأنك انتقلت من التأليف إلى الترجمة ، ولكنه أسلوب عربي مبين يجرى

(1) Islam, the Straight Path. Islam as interpreted by Muslims. — New York 1958.

وكتب فصول هذا الكتاب أساتذة من مصر وإيران وتركيا والهند والصين وأندونيسيا وباكستان — ونشرت لهذا الكتاب ترجمة عربية في بنغازي .

في يسر وسهولة يعبر عن المعاني الدقيقة والأفكار العميقة التي احتشد بها هذا الكتاب القيم .

واختيار الأستاذ شفيق غربال لهذا الكتاب، لينقله إلى اللغة العربية يتم عن إيمان عميق منه « بنعمة العقل وبالحرية وبالأخاء والمساواة » وهي المبادئ التي قامت عليها فلسفة القرن الثامن عشر . وهي « الفلسفة الأوربية التي اتصلنا بها حينما عاد الاتصال بيننا وبين أوروبا منذ أوائل القرن التاسع عشر وأعتقد أنها كان لها تأثير عميق في حياتنا الفكرية وفي تطورنا السياسي على حد سواء » .

وبعد فهل ننسى عمل الفقيه الكريم في هذه الجمعية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ورعايته لها منذ كانت فكرة تجول في أذهان بعض المشتغلين بالدراسات التاريخية وأملا يراودهم حتى أنشئت في سنة ١٩٤٥ . لقد بذل — عليه رحمة الله — لهذه الجمعية من عقله وقلبه جميعاً وكان لا يفتقر في رعاية مختلف وجوه نشاطها : في تزويد مكتبتها بالمراجع الهامة ، وعقد مواسمها وندواتها الثقافية ، والإشراف على البحوث التاريخية التي تنشر في مجلتها ، وتوجيه نشاط أعضائها وتشجيعهم على البحث، بل كان — رحمه الله — حريصاً على أن يشارك في مواسم المحاضرات العامة التي تنظمها الجمعية ، كلما مكنته ظروف أعبائه الكثيرة التي كان يقوم بها .

وأرجو أن تأذنوا لي بأن أعيد إلى أذهانكم ذكرى تلك المحاضرات القيمة التي ألقاها فقيدنا العظيم في هذه الجمعية بذكر موضوعاتها وهي :

١ — زيارة المغرب .

٢ — الأصول التاريخية لنوعى الديمقراطية المعاصرين .

٣ — الكسيس دي توكفيل .

٤ — التاريخ عند تولستوى .

٥ — المؤرخون ووحدة العالم .

٦ — توينبي المؤرخ والديانات .

فخسارتنا بفقد رئيسنا وراعينا يمز تعويضها ، وإذ كنا نجتمع اليوم لتأبين فقيدنا العزيز فلن نستطيع أن نقيه بعض حقه وفضله علينا .

وقد أشرت إلى الأعباء الكثيرة الضخمة التي قام بها الفقيد الكريم وقد يعوزنا الحصر الدقيق لمختلف الهيئات العلمية التي كان الفقيد عضواً فيها ، وفقيدنا لم يكن يقبل العضوية في هذه الهيئات كمنوع من الشرف أو التكريم ، بل كان في كل منها عضواً عاملاً حريصاً على تكريس جهده لتحقيق أغراضها ، وكأنه لا عمل له سواها ، فكان إلى جانب أستاذه في الجامعة ثم عمله في وزارتي المعارف والشئون الاجتماعية ثم أستاذه وعمادته لمعهد الدراسات العربية عضواً في جمع اللغة العربية وفي مجلس إدارة الجمعية الجغرافية ولجان المجلس الأعلى للآداب والعلوم الاجتماعية والموسوعة العربية المبسرة وغير ذلك من الهيئات واللجان التي لا نستطيع حصرها .

وقد ظل فقيدنا العزيز متوفراً على العمل حتى فاجأه مرضه الأخير ، ولسكأنى به بعد وفاة شريكه حياته وأم ولده (١٩٥٤) في نفس اليوم الذي بدأ فيه حياة التقاعد من خدمة الحكومة — لسكأنى به وقد أغرق نفسه في العمل إغراقاً ، فكان لا يكاد يرى إلا منصرفاً إلى كتاب أو ممسكاً بقلم أو مشاركاً في مجلس علم أو جالساً إلى أحد تلاميذه بوجهه وينصح له ، فقد ظل — رحمه الله — طوال حياته كالنبع الصافي لا يظن بما عنده على أحد حرصاً على الإفادة ، فاعتز به تلاميذه واعتز بهم ؛ سأله يوماً أحد المتحذلقين عن آخر مؤلفاته ، فأجاب عليه — رحمه الله — مشيراً إلى تلاميذه ، هؤلاء هم كتبي

كان شفيق غربال — رحمه الله — عالماً في علمه — وعالماً في خلقه —

كان عالماً بكل معاني هذه الكلمة في سعة أفقه ورحابة صدره ، وشغفه بالبحث ،
وحرصه على الحق ، كان يكره العنف في شتى صوره ، لا أذكر أنى — على طول
صلتي به — سمعت صوته يرتفع عما ألف طول حياته ، كان نزيه القصد ، يكره
التعصب في الفكر والعمل ، كان يسمح للنفس ، حلوا الروح ، كبير القلب ، حر الضمير ،
مترفعاً عن الدنيا ، صافي النفس والذهن والقلب ، شديد التحكم في مشاعره ،
صبوراً ، جليلاً ، وكان يعفو عن كثير .

هذا شفيق غربال العالم الذي فقدته العلم والإنسان الذي فقدته الإنسانية ،
هذا شفيق غربال الرائد الذي فقدناه ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

كلمة الدكتور يحيى الخشاب*

الأستاذ الراحل محمد شفيق غربال من القلائل في عالمنا الذين أسسوا لأنفسهم مدرسة خاصة في البحث العلمي تحمل طابعه وتسير على مناهجه . والأستاذ الراحل بدأ حياته معلماً وأنهى حياته معلماً أيضاً ، لم يترك التعليم في أية فترة من حياته . بدأ معلماً في المدارس الثانوية بعد تخرجه من مدرسة المعلمين العليا ثم أوفد في بعثة لانجلترا ليتخصص في مادة التاريخ وهناك أتيج له أن يلتقي بزوجه التي كانت تدرس معه في الجامعة واستطاع مع هذه السيدة الجليلة — رحمها الله — أن ينشئ أسرة هادئة وديعة تسير حياتها في سعادة ويرفرف عليها الهناء والود والرضا . وهناك التقى أيضاً بأستاذه وصديقه المؤرخ العظيم أرنولد توينبي فتوثقت الصلة بين التلميذ والأستاذ كما توثقت فيما بعد الصلة بين الزميل والزميل ثم بين الصديقين وأثمرت هذه الصلة العلمية الصافية أحسن الثمار للتوجيه العلمي الذي اختاره لنفسه ولتلاميذه الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال .

وعاد رحمه الله من البعثة ليشغل منصب الأستاذية في مدرسة المعلمين العليا وليكون أستاذاً لأجيال متعاقبة من المعلمين الذين يحفظون له كل الإجلال وكل التقدير والذين يبسون له من الولاء العلمي ما يجعل له أكبر الأثر في سلوكهم التعليمي في المدارس .

ثم لم يلبث أن اختير أستاذاً في كلية الآداب بجامعة القاهرة فكان من خير أساتذة الكلية وكان له — بجانب الأساتذة الأجانب الذين استعانوا بهم كلية الآداب في أول عهد استعانة كبيرة — كان له بجانب هؤلاء الأساتذة مكانة مرموقة فكان ندأ لهم في علمه وفي طريقة بحثه وفي احترامه لأستاذيته .

(*) أقيمت في حفل التباين الذي أقيم بمعهد الدراسات العربية العالية في ديسمبر سنة ١٩٦١

ألقى محاضرات في تاريخ العثمانيين فكانت محاضراته تجلب إليه الطلاب من جميع أقسام الكلية . سرى بين الطلاب أن أستاذاً حلوا الحديث غزير المادة متقناً لعرض موضوعه مشوقاً للاستماع إليه والإفادة منه يلقى محاضرات بعد الظهر في قسم التاريخ فامتلات بهؤلاء الطلاب حجرة درسه . وتوطدت بينه وبين الطلاب مودة خالصة أساسها الإعجاب الذي يبديه الطلاب بالمقدرة الفائقة التي يبديها الأستاذ . وكان له من رقة الخلق والوداعة وطيبة القلب وكبر النفس ما جعل الطلاب يتخذون منه أستاذاً وصديقاً .

ثم اختير عميداً للكلية فعمل على تمكين الأساتذة من التفرغ للبحث والعكوف على ما ينفع الطلاب والعلم وأرسى القواعد الجامعية الحققة في تودة واتزان وسعة أفق وإحاطة بمعنى الجامعة .

وانتقل المرحوم شفيق غربال من الجامعة وكيلاً للوزارة فلم يترك مدرسته في كلية الآداب بل واطب على إلقاء محاضراته ولم تنقطع صلته بالكلية رغم أنه كان يقوم بواجب علمي كبير في وزارة المعارف واستمر الأستاذ الراحل يجمع بين المعلمين حتى إذا ما طلب إليه أن يعود إلى الجامعة عاد إلى كليته معطياً إياها كل وقته ، فكان بالنسبة لتلاميذه الذين يدرسون عليه الأستاذ الذي اكتمل نضجه والمحاضر الذي لا يبارى . وكان بالنسبة لتلاميذه الذين أصبحوا زملاء له في الكلية أستاذاً ومرشداً ومعيناً ، أكسبته التجربة خبرة جعلته خير مستشار في كل ما يمس الكلية من شؤون .

امتاز المرحوم شفيق غربال بميزتين عرف بهما بين أصدقائه . الميزة الأولى الاحتفاظ بكرامة الأستاذية فلم يعلم عنه أحد من تلاميذه وأصدقائه أنه طأطأ الرأس يوماً لحاكم أو قال شيئاً لا يرضى ضميره العلمي أو سلك سلوكاً يتجافى مع ما يجب للعلم من كرامة فظل بينهم مثلاً أعلى يحبونه ويشيدون به ويفخرون به في كل مكان .

والميزة الثانية أنه تابع النوابع من تلاميذه فلم يتركهم لحظة من اللحظات ، جالسهم فبث فيهم من روحه ومكن لهم من البحث العلمي ومكن لهم من حب الاطلاع ومن حسن انتقاء ما يقرأ ومهد لهم السلوك الذي يؤدي بهم إلى تبوء أسمى المراكز سواء في ميدان التعليم الجامعي أو في ميدان التنظيم الفني لشئون التعليم ، فكان من وراء هؤلاء رائدهم ومرشدهم وشيخهم الذي يمدهم بكل عون من واسع درايته وعظيم حبه وصادق وده .

وختم الأستاذ الراحل محمد شفيق غربال حياته معلماً أيضاً . فقد اختير مديراً لمعهد الدراسات العربية العالية ، وهو المعهد العربي الذي تباهى به جامعة الدول العربية . وقد عنى الأستاذ بالمعهد عنايته بكلية الآداب من قبل . وقد أتيح له بفضل معرفته الصادقة بالعلماء العرب في جميع أنحاء الوطن العربي وبمن كانوا من تلاميذه في هذه الأنحاء ، أن يختار صفوة أولى العلم والفضل ليحاضروا في المعهد ولتخرج لهم أبحاث قيمة تعد من خير الإنتاج العلمي في الوطن العربي . والذي ينظر في مطبوعات المعهد يلمح لأول وهلة الفكر المنظم والخطة العلمية المدروسة الدقيقة والهدوء والأناة التي امتاز بها أستاذنا الراحل الكريم .

كان رحمه الله ينظر إلى المعهد على أنه جامعة ومجمع في الوقت نفسه . كان يرى أن يكون المحاضر محدثاً مع تلاميذه ، يتبادل معهم الفكر ويطلب إليهم البحث ويعودهم القراءة وكيف تكون واختيار الكتاب بعد تحديد الموضوع . وكان رحمه الله موهوباً في حسن اختيار مادة القراءة ومكتبته الخاصة تشهد بذوق نادر في جمع الكتب الثمينة التي تعد عماد مكتبة الأستاذ . وناحية أخرى حرص رحمه الله عليها في المعهد هي أن يجعل منه مجعاً يلتقى فيه العلماء . وكان رحمه الله يرسم ، قبيل وفاته ، حلقة علمية يدعى إليها من علماء العرب ومن المستشرقين صفوة يناقشون فيها أثر العرب في الحضارة العالمية . لقد سعى شفيق غربال إلى أن يجمع المعهد بين التعليم بالمعنى الجامعي وبين حلقات البحث يحضرها العلماء

المتخصصون ويلقى كل منهم بيحته ويناقشه سائر الأعضاء على مسمع من الطلاب ليقفوا على الأصول الحقة للبحث العلمى والنقاش .

وعمل رحمه الله على الوصل بين المعهد والمعاهد المماثلة فى الخارج . وكان له من شخصيته العلمىة ما أسبغ على المعهد الهيبة والاحترام والإجلال .

*

إن نظرة عابرة على المكتبة الضخمة التى أخرجها المعهد للناس بقلم أساتذة أجلاء ، تكشف عن مدى ما حقق محمد شفيق غربال للمعهد من مجد علمى رفيع : فى الدراسات الاقتصادية والاجتماعية ، فى الدراسات التاريخية والجغرافية ، فى الدراسات الأدبية واللغوية ، فى الدراسات القانونية .

حسب العرب أن يتجهوا فى مواضيع الدراسة العربية إلى المعهد ليجدوا كتباً فى اقتصاديات العراق والأردن وسوريا ولبنان ومصر والسودان ، ليجدوا كتباً عن البترول فى البلاد العربية ، وعن نقل البترول العربى وعن التنظيم الاحتكارى للسوق العالمية للبترول وعن اتفاقيات وعقود البترول فى البلاد العربية .

ليجدوا كتباً عن مراكز الثقافة فى المغرب ، وعن التعريف بالمغرب ، عن تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ، عن اليمن ماضيها وحاضرها ، عن تاريخ قضية فلسطين ، عن الخليج العربى والعلاقات الدولية ، عن الأوضاع السياسية فى جنوب الجزيرة العربية ، عن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، عن سورية من الاحتلال حتى الجلاء ، عن انتشار الإسلام والعروبة فيما بلى الصحراء الكبرى .

ليجدوا كتباً فى الأدب العربى الحديث ، الزهاوى والرصافى ومطران وحافظ ابراهيم ومى والشدياق وشوقى والملازنى واسماعيل صبرى وشكيب أرسلان ومحمد كرد على والشيخ عبد القادر المغربى ، وعزيز أباطة وعن التيارات الأدبية الحديثة فى العراق وفى لبنان وفى السودان ، وعن الحركة الأدبية فى تونس وعن

المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث وعن النقد الأدبي والأدب ومذاهبه .

هذه الكتب كلها لم تأت عفواً ولم تلق محاضرات على طلاب المعهد صدفة ، إنما وراء هذا عقل مدبر حكيم واع لما يحتاجه الوطن العربي من إعداد ودراسة لموضوعات حيوية هي اليوم في الصميم من حياتنا العامة . وهذا العقل المدبر هو الراحل الكريم الأستاذ محمد شفيق غربال .

بشاء الله أن يختم الأستاذ الجليل حياته بأن يشرف على إخراج أول دائرة معارف عربية صغيرة باسم الموسوعة الميسرة في جزء واحد التي تنشرها مؤسسة فرانكلين بالقاهرة وأن يكون رئيساً لمجلس الدائرة ومشرفاً على تحرير المواد التاريخية ، فأتاح إشرافه لهذا السفر القيم أن يخرج للناس عربياً خالصاً . وحين أدركت المنية الأستاذ العظيم كان الجانب الأكبر من هذه الدائرة قد عرض عليه فأبدى رأيه فيه . وستخرج هذه الدائرة العربية حاملة لإسم محمد شفيق غربال عنواناً على الجد المتواصل والفكر الناضج والتوجيه السديد والقدرة على توجيه التعاون العلمي في ميدان الثقافة العامة .

أما كتبه القيمة وأحاديثه عن مصر في الإذاعة ، باللغتين العربية والانجليزية ، وقد طبعت مرتين ، وأحاديثه في المجمع اللغوي عن آراء ابن خلدون وأحاديثه في التاريخ الحديث بالجمعية التاريخية فهذه كلها أعمال ستبقى ويبقى فيها إسم الأستاذ محمد شفيق غربال مذكوراً .

أيها السادة

إنه عزيز على أن أقف بينكم لأرثي أستاذي الجليل محمد شفيق غربال ، الرجل الذي عرفته بالفكر الطيب والقول الطيب والعمل الطيب . رحمه الله .

كلمة الأستاذ إسحق موسى الحسيني*

أيها الأستاذ العظيم !

إسمح لي أن أتحدث إليك ، وأنت البعيد القريب . فلست بمستطيع أن أتصور أن يكون مقعدك خالياً في هذه القاعة . إني لأراك جالساً بيننا تشهد ما نشهد ، وتسمع ما نسمع ، كما عهدناك في السنوات السبع الماضية .

وإني لأتخيل أنك تشير إلى بأصبعك أن اقتصد ولا تسرف . فالتاريخ الحق ينبغى أن يطابق الواقع ما أمكن ، وينبغى أن يرتفع فوق المجاملة والعصبية والصداقة .

وليكن ما تريد أيها المعلم العظيم . فإني حريص على رضاك ، على أنى حزين غاية الحزن لأنك اسللت من صفنا على عجل دون أن تؤذن بغياب أو فراق .

ولماذا فعلت ذلك أيها الصديق ؟

أردت أن تقول لنا : لا يثقل بعضكم على بعض . إحتفظوا آلامكم في صدوركم . لا تنغصوا من حولكم ولو كانوا قرباء . إذا عملتم فليكن الخير هدفكم ، وإذا تكلمتم فليكن الرفق رائدكم ، وإذا كتبتم فليكن الصدق شعاركم .

(*) ألقىت في حفل التأبين الذي أقامه معهد الدراسات العربية العالية ، في شهر ديسمبر

أم أردت أن تقول لنا : وماذا فعلت حتى أشغلكم بنفسى ؟ لقد كلفت بحمل أمانة فحملتها . وما كان بوسعى أن أتخلى عنها ولو شئت . وأداء الواجب جزء من الأمانة التي أوثقت عليها . الواجب — ويا لها من لفظة يسيرة ! — هو كل ما فعلته . واجبي نحو تلاميذى ، وواجبي نحو أصدقائى ، وواجبي نحو مهنتى ، وواجبي نحو وطنى ، وواجبي نحو إنسانيتى ؟

أم أردت أن تقول لنا : ولم المشقة ؟ لناخذ الحياة من أقرب جوانبها . لنبعدنا عن الكلفة ، ولنبرئها من الرياء والنفاق ، ولنجعلها خفيفة هيئة أنيسة وديعة . فذلك أجدر بها وبنا ؟

أم أردت أن تقول لنا : إن العمر رحلة قصيرة لا تتجاوز الثوانى فى تاريخ الزمن . وهؤلاء الذين يتوهمون أنهم خالدون ، فيكذبون ويكيدون ويفسدون ، قد خدعهم برق خلب . لقد قلت هذا كله بالأمس . قلته عملاً وسلوكاً . وهو القول الذى يحفر فى الصدور .

أيها المعلم الكامل !

لقد تكلمت قليلاً ، وكتبت قليلاً . وكل لفظة قلتها وكل كلمة كتبتها كانت كما ينبغى أن تكون اللفظة وكما ينبغى أن تكون الكلمة : شرف معنى وصدق حس وطهارة وجدان .

أيها الصديق العالى !

إنى أتخيلك تقطب حاجبيك وتشير إلى من مقعدك أن أحبس لسانك ولا تسرف . إننى إنسان كسائر الناس أخطأ وأصاب ، أساء وأحسن . وإنى لأقف أمام ربي وكتابى بيدي . وهو الذى يحاسبنى ويحكم لا أنت ولا غيرك . وما ينفعنى أمامه كلام تزجيه أنت وغيرك بغير حساب .

أيها الإنسان الفاضل !

إني لأمتثل أمرك . وإني لأراك في هذه القاعة مصنعياً لما يقال . ولو لم أشعر
بوجودك لقلت كلاماً كثيراً أنفس به عما أشعر من حزن عليك وفجعة بفقدك .

أيها المؤرخ المنصف !

سأحبس ألي في صدري وأترك للتاريخ أن يتحدث عنك والداً باراً ،
وصديقاً وفياً ، ومعلماً مخلصاً ، ومؤرخاً صادقاً ، وفوق ذلك كله : إنساناً شجاعاً
شريفاً أنيساً وديعاً .

وليتغمذك الله بواسع رحمته .

كلمة الدكتور محمد محمود الصياد*

الرجل الذي فقدناه . . .

لا حول ولا قوة إلا بالله !

لقد أصبح للورخ الكبير تاريخاً ؛ وها نحن نجتمع اليوم لنسمع حديثاً عن شفيق غربال ، وكنا بالأمس نحتشد لنسمع الحديث من شفيق غربال ؛ وشتان بين الاجتماعيين ؛ اجتماع يملأ القلب بالحسرة واللوعة . واجتماع يشيع في النفس الغبطة والارتياح ؛ وفي الأول اعتراف بفضل وإحياء لذكرى ستظل حية لن تموت ؛ وكان في الآخر تعلق بأمل ، وتقدير لعلم فياض ، وإعجاب بروح سامية هي المثل الأعلى للأستاذ الجامعي الكريم . وكم يعز عليكم وعلى أن نقول كان شفيق غربال ، وكنا حتى الأمس نصوغ الفعل للحاضر ولا نصوغه للماضي ، ولكن الحاضر استمرار للماضي ونبت من غرسه ؛ ولقد ذهب شفيق غربال للقاء ربه . ولكنه ترك في النفوس أثراً خالداً لن ينسى ولن يضيع .

بثت شجوك فينا ، إذ فقدت ، كما

بثت علمك فينا غير مفتقد

نكأت منا كلوما ، كان يكلمها

ريب الزمان فتأسوها بخير يد

لقد عرفت شفيق غربال منذ ربع قرن ولم أكن من طلبة القسم الذي يرأسه ، فقد كنت أدرس الجغرافية في كلية الآداب لا التاريخ ، وبدأ لي عن بعد أن به شيئاً من الكبر ، وتعلن الكلية عن رحلة يرأسها شفيق غربال ، وأتردد في الاشتراك فيها ثم أعقد العزم ، فإذا بأيام الرحلة القلائل التي أعيشها معه عن

(*) ألقى بحفل التأبين الذي أقامه معهد الدراسات العربية العالية في ديسمبر سنة ١٩٦١

قرب ، تكشف لي أن ماظننته كبيراً لم يكن إلا ترفماً عن الصغار ، وإذا بي أعود وقد أشربت نفسي بحب شفيق غربال ، وأتحدث بإحساسي إلى زملاء كبار فيكشفون لي عن حقيقة الرجل وعمما يجدون لديه من حذب ورعاية .

وأتلمذ على شفيق غربال في بعض دروس التاريخ فإذا بي أمام شيء جديد غير مألوف ؛ حرية في النقاش غير مفتعلة ، وتوجيه إلى الصواب دون أن يشعر بالجل مما وقعت فيه من خطأ ، ومنهاج للبحث العلمي واضح دقيق ؛ وملتف حوله نبادره بالأسئلة ونناقشه في الآراء فلا يتبرم بسؤال ولا يضيق بمناقشة .

لقد كان لشفيق غربال فلسفة في التاريخ ، إن لم يكن قد تركها مسجلة بالخبر على الورق فقد تركها مختلطة بالدم في قلوب تلاميذه ومريديه !

كان شفيق غربال ينظر إلى أمور حياته نظرة شاملة عميقة لاتعنى بالتفصيلات ، وهكذا كانت نظرتة إلى التاريخ ؛ لم يكن يعرفه أحياناً تتجمع لتكون بناء ، وإنما كان يراه ألواناً تبرز وتختلط لتخلق صورة تدفع إلى التفكير والتدقيق ... كان محباً للحقيقة ، حراً في تصويرها ؛ وكان رفيقاً في النقد إذا نقد ، مرحباً به إذا وجه إليه ؛ وكان متواضعاً لا يزدهيه غرور ، واضحاً تستمع إلى حديثه فلا نجد فيه لبساً ولا يحجبك عنه غموض ، سخياً بعله يجود به على من يقصده دون بخل أو تقتير .

وكان شفيق غربال رضى النفس سمح الخلق ، تناوله أحد تلاميذه في سورة غضب بما لا يليق ، وذكر اسم التلميذ أمامه بعد أسابيع فإذا بشفيق غربال يثنى على علمه ونشاطه ، وإذا به يعطيه حقه غير منقوص ! وهكذا تسمو نفس العالم وتتجرد حيناً يتصدى لإصدار الأحكام . وقد عاش غربال يكره التعصب والتحيز للآراء وللأشخاص ، وكان يرى أن التعصب والعلم أمران متنافران ، إذا استقر أحدهما في قلب شخص فقد خرج الآخر وان يعود .

وتزداد مع الأيام صلاتي بشفيق غربال فلا أجد منه سوى عطف الأب ومودة الصديق ، وهكذا كان مع جميع من حوله . وكم شهد هذا المعهد جلسات تخلق فيها الأصدقاء حول أستاذهم الكبير يتحدثون وللحديث شجون ، فما خرج واحد منهم إلا بلفية جديدة في فرع من فروع المعرفة ، وكانت آخر تلك الجلسات في الأمسية التي لم يعد بعدها إلى المعهد الذي كان عزيزاً عليه قريباً إلى نفسه ، وحزنت وحزن الذين كانوا معي عليه قبل أن ينتهي أجله ، فقد كانت الطلعة البهية الوقورة وكأنها الشمس عند الأصيل ، وكان النشاط الذي لا يبدأ قد أخذ يعتريه الفتور ، فأشفقنا عليه في أسف وبكيناه من غير دموع .

ولم تمض أيام حتى ودع شفيق غربال دنيانا ليدخل في هيكل الخالدين ، وترك التاريخ ليصبح في ذمة التاريخ ؛ فيارب أحسن إليه بقدر ما أحسن وأسكنه فسيح جناتك وأنزله منازل الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا .

كلمة السيدة عزيزة مريدن*

عزيز علينا — والله — أن نفقد أستاذنا الكبير. عزيز علينا أن يغادر هذا المبني الذي طالما كان يسعى إليه .

أهكذا بسكت الأستاذ العظيم ! ويحمد الذهن المتوقد ، ويسكن الفؤاد الذكي ، ويصبح أستاذنا (شفيق غربال) حديثاً في المجالس ، لا يقول فنسمع ، ولا يلقى علينا المحاضرات فنعى ونتفقه ؟ ! أهكذا يتركنا أستاذنا على غير ميعاد فنحرم من ثمرات علمه وفضله ، ونحجب عن جنى عاطفته وفكره ؟

عرفنا فقيدنا الراحل في معهدنا هذا أستاذاً ، وعرفناه خارج قاعات الدرس ، فلم نجد في كل حالة إلا على الوجه الذي كان يلقانا به ؛ عرفناه معلماً في كل ما يقول ، ومتقناً في كل ما يلقى ، ولكن صورته الأخيرة المفعمة بالمعاني التي لا يمكن التعبير عنها لا تبارح أذهاننا ولا تمحى من مخيلاتنا . كان ذلك قبل بضعة أيام من وفاته ، والله ما كان أنبل وأحب إلينا حين دخل قاعة الامتحان ، متحاملاً على نفسه ، متوكئاً على عصاه ، وملامح الإعياء بادية على وجهه الشاحب ونظرة الأبوة الوديمة الحانية تطيف بعينيه ، وبعد أن ألقى التحية علينا قال برقة متناهية : كيف أنتم يا أبنائي ؟ هل أحسستم الإجابة عما مضى من أسئلة المواد ؟ فما شعرنا في تلك اللحظة إلا أن ما بيننا وبينه كما يكون بين الأب وأعضاء أسرته ، ثم غاب عن أنظارنا . وما لبثنا أن علمنا بالنبأ المشؤوم .

(*) ألقى في حفل التأيين الذي أقيم في معهد الدراسات العربية العالية في ديسمبر

ولست هنا لأحيط بجوانب شخصية فقيدنا الغالي وما تركه في نفوسنا من أثر عميق ، ولكنها تحية وفاء ألقياها اليوم على روحه . رحم الله أستاذنا ، فلقد كانت خسارتنا فيه لا يسهل العوض منها ، ولا العزاء عنها . ولئن كانت الثروة المادية تكتسب بالحيلة أو بالوراثة ، فالثروة الفكرية لا تمتلك إلا بما تجود به قرائح المفكرين وما تفيض به نفوس الأساتذة والمربين المخلصين ، ولقد كان فقيدنا — خلد الله ذكره — مثال الأستاذ القدير ، والباحث المدقق والمربي الفاضل ، والموجه المرشد ، لذلك فأسانا به أسى خالد سيتدرد في نفوسنا كلما صبونا إلى إمام فلم نجد الهداة المرشدين ، ولا الرواد الناصحين .

لك الله يا فقيدنا الراحل ، لما كنت تبذله في سبيلنا من جهد ووقت فلقد عرفناك عن كثير ، ومددنا إليك بسبب ، فما كنت — يشهد الله — تضن علينا بمعونة ، ولا تبخل بنصيحة . ولا تقبض يدك عن معروف ولا تغلق بابك دون طالب أو باحث ، بل لقد كنت تأخذ بيدنا جميعاً . تهدينا إلى الطريقة المجدية ، وتمدنا بالوسائل النافعة ، ثم لا تلبث أن تعرض علينا آخر ما اطلعت عليه ، وتفتح عيننا على كل جديد ، فنقر بجودك وفضلك وسعة علمك .

سمو الإنسانية — أيها السادة — لا يتم إلا بالعلم والثقافة ، وقد يكون من الناس من هو عالم بذاته ، ولكن النادر منهم من يحسن التعليم ، فيكون واسطة لنقل ما تعلم على خير وجه ، أما أستاذنا الفقيه ، فقد كان معلماً بفطرته ، متميزاً في طريقته ، فكان أشد ما يروعنا منه ، قدرته الفائقة على تحليل الحوادث التاريخية ، تحليلها وربط أسبابها بمسبباتها ، وكان لا يقتصر في ذلك على الأسباب القريبة المباشرة . بل يتعداها إلى الأسباب البعيدة ، خاصة فيما يتعلق بالقومية العربية ، كان يفعل ذلك بدقة ووضوح دون أن نشعر باستطراد مغل ، أو استقراء ناقص ، أو سرد تاريخي ممل ، وهذه لعمري هي الأستاذية الحققة التي توضح ما غمض في الأذهان وتثبت ما لزم من المعارف .

وكان أروع ما يلفتنا إليه حركة ذهنه وبقظة فكره ، وكنا نلاحظ عليه استغراقه في الموضوع ، وانسجابه معه حتى يستولى على تفكيره ، فكان أشد ما يزعجه عند ذلك أن يسمع من أحد الطلاب حركة أو نأمة ، تقطع عليه سلسلة أفكاره ، وتضيع لذة بحثه ، فيتوقف لحظة ، ثم ما يلبث أن يعود ليعتصر قريحته ، ويدير الفكرة في رأسه ، فتصبح لنا منهلاً صافى المورد بعد أن يعطيها الصورة المناسبة ، ويكسوها اللفظ الملائم ، ويعرضها لنا بالأسلوب الواضح المبين .

كنا نرى عذوبة نفسه في عذوبة درسه ، وصفاء ذهنه في وضوح غرضه ، وجمال تفكيره في حسن ملاحظاته واستنتاجه ، ثم نعود إلى السكتب المؤلفة ، فنرى الفرق الواضح في الطريقة فنعجب لهذه القريحة الفذة . وكان — طيب الله ثراه — واسع الصدر ، ذا روح عالية ، تشرق في نفوسنا إشراقة الشمس ، فتبعث منا العزائم ، وتسمو بالهمم ، وما كنا نجلس إليه في ألفة أو كلفة ، إلا ويغمرنا منه شعاع يملك نفوسنا من غير سطوة ، فنحس بهيبته ووقاره بمزوجين بتواضع العزة ، ووداعة الأنفة ، ودمائة الخلق النبيل ، فلا نستطيع أن نرد هذه الخلال كلها إلا إلى شخصيته القوية الجذابة ، وما تهياً لها منبت أثيل ، وثقافة واسعة ، وسلامة الفطرة ، وجمال القدوة ، ولكن هذه الروح أصبحت اليوم في ذمة التاريخ ، فلم تتح لنا الظروف أن ننعم بها إلا قليلاً ، ثم فقدناها ، ونحن أحوج ما نكون إليها، وهذا مما يزيدنا حزناً على فراقه ولوعة لفقده . فما أخلقنا — نحن الطلاب — أن نتخذ من فقيدنا العظيم أسوة لنا ، وأن ندعو الله أن يتغمده برحمته ، ويقسح له في نعيم جنته ؛ ويجزيه عما بذله في سبيلنا خير الجزاء .

حفلى تأبين المرحوم الأستاذ محمد شفلق غربال

فى مجمع اللغة العربية

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاثنين ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨١ هـ الموافق ٤ من ديسمبر (كانون أول) سنة ١٩٦١ م ، عقدت جلسة علنية لتأبين المغفور له المرحوم الأستاذ محمد شفلق غربال إذ توفاه الله صباح الخميس ٢٠ من أكتوبر سنة ١٩٦١ .

وفى الموعد المحدد لى الدعوة جمهور كبير من أصدقاء الفقيد وعارفى فضله . وكان فى مقدمتهم الأستاذ السيد يوسف وزير التربية والتعليم والدكتور حسين خلاف وزير اتحاد الدول العربية والأستاذ على حافظ نائب وزير التربية والتعليم ، وبعض من رجال السلك السيامى ، وعمداء وأساتذة الجامعات وكبار رجال التربية والتعليم ولقيف من أسرة الفقيد ، وغيرهم من رجال العلم والأدب والصحافة . وشهد جلسة التأبين العالم البريطانى المؤرخ الأستاذ أرنولد توينبى والسيدة حرمة .

ورأس الجلسة الأستاذ الدكتور طه حسين نائب رئيس المجمع وحضر من أعضاء المجمع الدكتور ابراهيم مذكور الأمين العام والدكتور ابراهيم أنيس والأستاذ ابراهيم عبد الحميد اللبان والدكتور أحمد بدوى والدكتور أحمد عمار والأستاذ أمين الخولى والأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ زكى المهندس والأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور عبد الحليم منتصر والدكتور عبد الحميد بدوى والأستاذ عبد الحميد حسن والأستاذ عبد الفتاح الصعيدي والأستاذ عزيز أباطة والدكتور على توفيق شوشة والأستاذ على عبد الرازق والدكتور مراد كامل

والأستاذ محمد توفيق دياب والأستاذ محمد خلف الله أحمد وفضيلة الشيخ محمد علي النجار والأستاذ محمد فريد أبو حديد والدكتور محمد مهدي علام والأستاذ محمود تيمور والأستاذ مصطفى نظيف والأستاذ اسحق موسى الحسيني .

وافتححت الجلسة بتلاوة بعض آيات الذكر الحكيم من فضيلة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ثم ألقى السيد / الدكتور طه حسين نائب رئيس الجمع ورئيس الجلسة كلمة عن الفقيده .

ودعا بعدها الأستاذ محمد فريد أبو حديد إلى إلقاء كلمته في تأبين الفقيده ، وبعد أن فرغ منها ، قام الدكتور محمد مهدي علام بإلقاء موجز لها باللغة الانجليزية . ثم استأذن الأستاذ أرنولد توينبي في إلقاء كلمة في تأبين تلميذه الفقيده ، وبعد أن انتهى منها ترجها إلى العربية الدكتور محمد مهدي علام ثم أعلن الرئيس انتهاء الجلسة .

كلمة الدكتور طه حسين

أيها السادة :

تفضل الأستاذ الجليل والمؤرخ الكبير الأستاذ « أرنولد توينبي » بمشاركتنا في هذه الجلسة لتأبين تلميذه وزميلنا وفقيدنا الكريم المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال .

وما أشك في أنني أعبّر عما في نفوسكم جميعاً حين أهدي إلى الأستاذ « توينبي » أصدق شكرنا على هذه المشاركة الكريمة ، وحين أرجو أن يشكر الله سعيه وأن يعظم أجره وأجركم ، وأن يلهمنا وإياه صبراً جميلاً وعزاء كريماً .

كلمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد

منذ أسابيع قليلة فقد جمع اللغة العربية عضواً جليلاً من أعضائه وهو الزميل الكريم والإنسان النبيل المغفور له الأستاذ محمد شفيق غربال وإذا كان

هذا الزميل العزيز قد خلى مكانه بيننا على غير انتظار ، وخلف في نفوسنا أعرق الأسي ، لحرماننا من وجوده بيننا ينبوعاً دافقاً من العلم والفضل والإنسانية فإن فقدته خلف فراغاً عظيماً في قلوب كثيرة أخرى من أصدقائه وتلاميذه ومقديري فضله كما خلف فراغاً كبيراً في ميدان العلم والبحث في الأمة العربية كلها .

ونحن إذ نجتمع اليوم للتعبير عما نشعر به من الأسي العميق نخلو مكانه بيننا لا نملك إلا أن نتمثل شخصه وما كان يمتاز به من السماحة والبشر وصفاء القلب ، فأرجو أن تسمحوا لي بأن أعرض قليلاً بعض سيرته كإنسان إذ أني عرفته منذ أكثر من خمسين عاماً حين كنا في شبابتنا الأول بمدرسة رأس التين الثانوية بالأسكندرية ثم اتصلت صداقتي له حين تزامننا في مدرسة المعلمين العليا ثم حين جاهدنا معاً في ميدان التعليم — تفرق بنا الطرق أحياناً وتجتمع بنا أحياناً أخرى حتى تزامننا آخر الأمر في هذا الجمع الجليل . لقد كان فقيداً منذ شبابه الأول مثالا للوداعة ونبيل الخلق فوق ما كان يمتاز به دائماً من الذكاء والجد وحلاوة الروح . فلا ينسى أصفياؤه ما كانوا يطربون له من لحانه الفكاهة الإنسانية المهدبة حين تصدر عنه في همس هاديء بعيد من التكلف . كان دائماً عاطفاً محبباً ، يألف ويؤلف ، مستبشراً بالحياة مقبلاً عليها ، يسعدده أن يرى السعادة مشرقة على ما حوله ، بل أن يراها مشرقة على الناس جميعاً .

وقد احتفظ بهذا الصفاء النفسي طوال حياته حتى نهايتها . قلت أنسي آخر يوم رأيناه فيه هنا بيننا ، وأثر الأعياء ظاهر على ملامحه وحركته ولكننا كدنا لا نفطن إلى ما لاح لنا على ظاهره إذ كانت سماحته وبشره وهدوؤه تغلب على ما بدا عليه من الأعياء . ولم تكن هذه السماحة وليدة الطبع وحده ، بل كانت كذلك خطة نبعت من طبيعه واتخذها فلسفة حياته : قال عن نفسه في فقرة من كتاب (علمتني الحياة) :

« أنتي منذ وعيت ومنذ أخذت أنظر في نفسي وفيما حولي ومنذ حاوات

الوقوف على أسرار الأصول والمصائر وجاهدت لأقيم أفعالي على أساس من المعقولة وأوجهها إلى غايات مفهومة ، أيقنت أن الحياة تستحق أن أحيها وأن نظرتي هذه إليها خليفة بأن تكون دستور سلوكي في فترة العمر وأن تنظم على أساسها العلاقة بيني وبين الناس .

وما قاله في فقرة أخرى :

« لم أتعلم الدرس من حياتي وحدها ولا من حياة جيلي وحده بل كان معلمي (الإنسانية) كما احتوتها دنيا التاريخ . فجعلتها دنياي ، أعمارها عمرى وأجيالها جيلي وناسها أجمعين معاصري » والإنسان الأمثل في نظره هو الفرد الذي يتجاوب مع من حوله أو كما وصفه هو « الإنسان الناشئ في عشيرة تكفله ببرها وحنانها » .

فأساس فلسفته في الحياة هو التعاطف والسماحة ورحابة آفاق الفكر والاستبشار بالحياة .

فلم يكن عجباً لمثل هذه النفسية السمحة أن تختار ميدان دراستها النفس البشرية على مر الأجيال وتماقب العصور ، وهو يقول في هذا المعنى أنه حين اختار الدراسة بمدرسة المعلمين كان أساس اختياره أنها كانت المعهد الوحيد الذي يصله بالدراسات الإنسانية . وقد كان تاريخ حياته متسقاً مع هذا الدستور الذي اختاره لها فمضى في دراسته باحثاً منقبا في أعماق الحياة الإنسانية وقضى حياته الخصبه كلها باحثاً منقبا في أعماق الحياة الإنسانية وبلغ ما بلغ من المراتب في الوظائف وهو باحث منقب في أعماق الحياة الإنسانية . فلم ترهبه الأخطار الشديدة التي أحاطت بالعالم في عام ١٩١٥ حين تخرج في مدرسة المعلمين العليا ولم يتردد في الذهاب إلى إنجلترا ليواصل دراسته للتاريخ الذي جعله متمماً لحياته ، ثم عاد مرة أخرى بعد أن حصل على الدرجة العلمية (الماجستير) فرحل إلى إنجلترا ليستكمل دراسته التاريخية . وكان من محاسن الاتفاق أن جمعت الظروف

بينه وبين أستاذه المؤرخ الكبير (أرنولد توينبي) فكان التوافق في الطبع والمشرب بين الطالب وأستاذه سبباً في توثيق العلاقة بينهما على مدى الحياة، فكان من أواخر أمانيه أن يستضيف صديقه الأستاذ حين يزور مصر ولكن الأجل عاجله وهو يستعد لتحقيق تلك الأمنية .

وكان مما ضربه فقيدنا لقومه من المثل الكريمة إخلاصه للعالم واعتبار نفسه دارساً وباحثاً على اختلاف الوظائف التي تنقل فيها... عاد إلى مصر بعد انتهاء مدة دراسته بانجلترا فاتصل بالمعهد الذي اختاره في شبابه الأول وتخرج فيه وهو مدرسة المعلمين العليا ثم اختير بعد ذلك ليكون أستاذاً مساعداً للتاريخ في كلية الآداب بجامعة القاهرة ثم أستاذاً للتاريخ بها ثم وكيلاً للكلية فعميداً ثم عرجت به الظروف إلى وزارة المعارف فكان وكيلاً لها غير أن الوظيفة لم تعرج به من ميدانه المفضل فاستمر دارساً للتاريخ باحثاً فيه حتى عاد مرة أخرى إلى وظيفة الأستاذية في الجامعة فرحب بهودته إلى مكانه الطبيعي حتى عادت الظروف فانتقلت به إلى وظيفة بعد أخرى — مستشاراً لوزارة المعارف فوكيلاً لها ثم وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية. ثم مرة أخرى وكيلاً لوزارة المعارف وهو في كل هذه الوظائف مستمر في اتجاهه وفي منهجه دارساً للتاريخ باحثاً في أعماق الحياة الإنسانية ، ولما بلغ سن العاش كما تقضى قوانين الخدمة الحكومية أسندت إليه إدارة معهد الدراسات العربية العالية فعاد إلى عمل الأستاذ مرة أخيرة وعاجلته المنية وهو أشد ما يكون إقبالا على دراسته وبخه في أعماق الحياة الإنسانية .

فهو صاحب فضل عظيم في توجيه أجيال متعاقبة من تلاميذه الذين أخلصوا له الحب والاحترام وامتد فضله عن طريقهم إلى أجيال متكاثرة من أبناء هذه الأمة ، وإذا كان من الناس من تحصى تركاتهم بما خلقوه من الأموال فإن بعض تركته مائل في هذه الثروة الإنسانية التي خلقها وراها في صور تلاميذه الأجلاء .

أما فضله على البحث والعلم فإن الكلمات وحدها لا تستطيع أن تعرف به تعريفاً صحيحاً . فليس يكفي في بيان هذا الفضل أن أذكر أسماء كتبه ومدوناته ، فهو من بين العلماء الأجلاء الذين استحقوا الخلود بغير أن يخلفوا وراءهم أعداداً ضخمة من المؤلفات . فكتاباه الأول الذي نال به درجة الماجستير كان عند ظهوره حدثاً علمياً استرعى أنظار الأساتذة والدارسين على السواء وكان مثالا طريفاً للبحث التاريخي الرصين القائم على تمحيص الحقائق والدقة في استخلاص النتائج ، أعنى به كتاب (بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي) .

وكتابه الثاني (المفاوضات البريطانية من الاحتلال إلى معاهدة سنة ١٩٣٦) مثال لطريقة العالم في التأليف وإن كان لم يظهر منه بعد إلا الجزء الأول . وقد وصف فقيدنا طريقته في مقدمة هذا الكتاب حين قال :

« أقسم طريقتي في البحث إلى مراحل يكمل بعضها بعضاً فأراجع ما ينشر من الوثائق ثم أقوم بمقارنة تفصيلية بين وثائق الحكومة المصرية ووثائق الحكومة البريطانية فأسلم بصحة الوثائق المتطابقة حين تتطابق فإذا كان بينها اختلاف قمت بعملية بحث واستقصاء واسعة النطاق لأصل إلى أصدق الوثائق » .

غير أن حدود كتبه تضيق كثيراً عن حدود نشاطه وإنتاجه فقد كانت المحاضرات التي يلقيها على طلابه ، والفصول التي كان يكتبها في مقدمات كتب تلاميذه وأصدقائه ، ومقالاته التي كان يكتبها في المجلات أو يذيعها في برامج الإذاعة — كانت هذه نماذج للبحوث التاريخية الإنسانية ولو جمعت في صورة مدونات لكانت تراثاً ضخماً من المؤلفات . والأمل معقود بأصدقائه وتلاميذه الأوفياء أن يعنوا بإبداء مثل هذه التحية لصديقيهم الراحل الكريم .

وقد تأملت طويلاً في هذه الظاهرة التي يشترك فيها فقيدنا مع طائفة من العلماء الأجلاء الذين لم يحرصوا على جمع إنتاجهم في كتب لينشروها بين الناس .

فهؤلاء العلماء لا تعوزهم الثقة في أنفسهم ولا تعوزهم مقادير الإنتاج الذي يكفي لعشرات من الكتب المدونة ، ولا يفتقرون إلى ثقة الناس فيهم والرغبة في قراءة ما يكتبونه ، فما هو السر الذي يجعلهم يترددون في أن يخرجوا مالمديهم في مؤلفات منشورة ليعم الانتفاع بها بين جماهير القراء والدارسين ؟ ولم يهدني تأمل الطويل إلا سر واحد أظنه حال بينهم وبين نشر إنتاجهم ولعل لا أكون بعيداً عن الحقيقة في تصوري فالعالم المحقق حين ينظر إلى نتائج بحوثه على أنها نظريات قابلة للامتحان المتواصل والفحص المستمر على ضوء ما قد يستجد من الحقائق يكون أميل إلى أن يغرّس بذور بحثه في عقول إنسانية ويحفزها إلى مواصلة امتحانها وفحصها إخلاصاً منها للحقيقة وحدها . ومن الأدلة على مثل هذا الاتجاه أن فقيدنا ظل عاكفاً على البحث في مادة الجزء الثاني من كتابه عن المفاوضات البريطانية منذ نحو عشرين عاماً حتى وافاه الأجل وهو ما يزال ينظر في مادته كأنه عالم يفحص مادته تحت منظاره الفاحص .

وقد كانت طريقته في البحث إحدى المآثر التي لا يمكنني أن أوفيها حقها من العرض في مثل هذا المقام . فقد جعل غايته دائماً أن يصل إلى الحقيقة ، فهو يستعرض مادته في نزاهة الباحثة عن الحقيقة ، يرتاد معالم الطريق التي يظنها مؤدية إليها في هدوء الرائد وسعة أفق الخبير ، ثم يتابع سيره خطوة بعد خطوة وهو دائم اليقظة إلى طريقه وإلى ماحوله ، ولا يدع شيئاً يظنه مساعداً له في البحث بغير أن يفحصه ويستوعب دلالاته . وهو من أجل ذلك يسير سيراً وثيداً ويجمع في سيره كل ما يساعده على بلوغ غايته ، حتى إذا اطمان إلى أنه قد ارتاد الطريق أو اقترب من ارتيادها عاد فمكف على الحقائق التي جمعها لينظر في الحقيقة العامة التي تنطوي تحتها . وقد خلف الفقيد الكريم فيما خلفه لنا نموذجاً من هذه الطريقة التي كان يخطط بها لبحوثه ، وكان من حسن الحظ أن معهد الدراسات العربية العليا قام بنشرها في السنة التي عاجله الأجل فيها . والعنوان الذي اختاره

صاحب الطريقة لها هو (منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم) وهو عنوان يبين الحدود العامة لمجال البحث .

وقد يبين الفقيه في هذا المنهاج أسلوبه المعتاد في تتبع بحثه : فالعوامل التاريخية في بناء الأمة العربية الحديثة تستلزم في طريقته أن يحدد العالم العربي أولاً وأن يحيط الباحث بماهيته وظروفه في وقتنا هذا . وقد جعل صاحب الطريقة هذا البحث القسم الأول من منهاجه .

ومتى تم له تحديد هذا العالم العربي وعرفت ماهيته وظروفه كانت الخطوة التالية تحديد عناصر القوى التي كان لها الأثر المباشر في حال العالم العربي الحاضر ، وقد كانت هذه القوى هي الدولة العثمانية من جانب والدول الأوروبية من جانب آخر . فكان القسم الثاني من المنهاج استعراض للتاريخ العثماني والتاريخ الأوربي حيث تتصل حوادث ذلك التاريخ بالأمة العربية . وأما القسم الثالث من المنهاج فهو تحليل للظروف التي أدت إلى ضم الأقطار العربية إلى الدولة العثمانية وما أدى إليه هذا الضم ثم تحليل الظروف التي أدت إلى الغزو الأوربي لهذه الأقطار العربية .

والنتيجة الأخيرة للبحث هي بيان ما أدت إليه كل الحقائق مجتمعة من التدافع والتصادم بين الأمة العربية وبين عناصر القوى التي أثرت فيها وإنجلاء هذا التصادم عن نهضة العرب الحديثة منذ أواخر القرن الثامن عشر . فهذا المنهاج المفصل يبين لنا مدى الاحاطة والشمول الذي تتميز به طريقة العالم الجليل في بحثه .

ومما يجدر بي أن أشير إليه في هذه المناسبة أنه كان يشارك أستاذه الفاضل المؤرخ (أرنولد توينبي) في اللبدا الذي سار عليه في تأليف تاريخه الكبير للحضارات العالمية وهو أنه لا يمكن لباحث تاريخي أن يدرك كنه الحقائق المتصلة بتاريخ أمة من الأمم إذا هو قصر بحثه على تاريخ هذه الأمة واكتفى بتتبع الحوادث التي وقعت فيها وحدها ، فإن حوادث العالم مترابطة فلا تقع حادثة

في قطر من الأقطار. إلا امتدت أحوالها إلى الأقطار الأخرى بدرجات متفاوتة من القوة تبعاً لمدى قربها من مصدر الموجات.

على أن هذه الطريقة النزيهة المحكّمة في البحث لم تحل بين العالم الجليل وبين إبداء رأيه إزاء المواقف الخطيرة الحاسمة في تاريخ الأمة العربية. واكتفى في هذا الصدد بإيراد مثال أو اثنين من تلك المواقف: الأول موقف بعض زعماء العرب حين عقّبوا مؤتمراً في باريس في مدة الحرب العالمية الأولى للتشاور في مصير العرب بعد تلك الحرب. قال عالمنا الجليل في ذلك الموقف « وفي رأبي أن التوفيق جانب أولئك العرب مع علمهم بموقف فرنسا من الأمة العربية في الأقطار المغربية ومع علمهم بمطامعها في سوريا ومع علمهم بأن من زملائهم في المؤتمر من هم ضالعون مع فرنسا في مشروعاتها في سوريا. وفي رأبي كذلك أن التوفيق جانب حكومة الاتحاد والترقي العثمانية في موقف الخداع الذي اتخذته من المؤتمر والمؤتمريين. فأساة الاتحاد بين القادة العرب كانت في تجنب الفئتين تصفية أمر التوفيق بين المطالب القومية ومطالب الوحدة العثمانية ».

ويعلق على هذا الموقف تعليقا عاما بكلمة مختصرة قائلا: « أن الطريق الأسهل ليس دائماً الطريق الموصل وليس دائماً الطريق المستقيم ».

وأنا لا نستطيع بعد أن مضى على هذا الموقف ما يقرب من نصف قرن إلا أن نذكر مقدار ما في هذا الرأي من الصواب. وقد تعرض في موقف آخر لتحليل بعض المزاعم المتصلة بالجفاء الذي طرأ على علاقة تركيا الحديثة بالعرب. فان البعض يزعم أن بدء ذلك الجفاء يرجع إلى أن العرب طعنوا الترك من الخلف في مدة الحرب العالمية الأولى، وعالمنا الجليل يفند هذا الزعم بمنطق الحوادث نفسها، فان العرب حاربوا في صفوف الجيش العثماني، ولم يضطرب أمر الأقطار السورية والعراقية على الرغم مما عانى أهلها من شدة الأحكام وسوء أحوال

التكوين وتخصيص الأحسن من كل شيء للأغراض العسكرية ، وأخذ الزعماء أخذاً عنيفاً — وعلى الرغم من وعود الحلفاء وإغرائهم لم يتحرك ضد الدولة العثمانية إلا الشريف حسين ، فلم يقبل الإمام يحيى أن ينتهز الفرصة لينضم إلى أعداء السلطنة على الرغم مما لقي منها ، كما أن آل الرشيد في نجد أخلصوا للسلطنة وكان عبد العزيز آل سعود على نوع من الحياد . وقد سرت الحكومة البريطانية سروراً كبيراً بحركة الشريف حسين لأنها كانت تستطيع أن تستخدم تلك الحركة في إثارة عرب الأقطار السورية والعراقية والتهوين من أمر الجهاد الذي أعلنته الحكومة العثمانية الاتحادية .

على هذا الأسلوب النزيه العادل يبدى فقيدنا رأيه بغير تحيز ولا تجاوز لمنطق الحوادث .

وأنه لمن العدل وإحقاق الحق أن نقول أنه انتقل بالبحث التاريخي إلى أسلوب البحث المقرر في العلوم الموضوعية وهو اتجاه ما يزال إلى اليوم جديداً في بلادنا العربية إذا لم يكن جديداً في بلاد العالم كلها .

ولا يفوتني في هذا الموقف أن أشيد بناحية أخرى من شخصيته وهي قوة إرادته وتحكمه في مشاعره على ما نعرف عنه من قوة العواطف وعمقها . فأنا لم نر عليه أو لم نكن نرى عليه شيئاً من التغيير في سماحته وبشره وأنه كان إلى آخر حياته مقبلاً على أعماله كأنه أشد ما يكون رضاء عنها مع أننا عرفنا أنه كان يعيش وحيداً في بيته الذي أظله في جوة السعيد مع زوج وفيه وابن بار . وقد امتحنه الله بفقد ربه بيته كما شاء أن يوفد ابنه في بعثة لإتمام دراسته في إنجلترا .

فبقي عدة سنوات يعيش منفرداً ويأبى أن ينتقل من داره العزيزة يستعيد ذكريات حياته ويعيش فيها كما تعود أن يعيش مع صور المصور الماضية ويجعلها

دنياه ويجعل أناسها أجمعين من معاصريه . ولم يفتقد في هذه الحياة التي تبدو موحشة — شيئاً مما عرف عنه طوال حياته من الهدوء والسلام والإنسانية .

هذه لمحة يسيرة من ذكرى الزميل الكريم الذي فقدناه وفقدهته الأمة العربية ، أترحم بها عليه نائباً عن زملائي أعضاء هذا المجمع وأسأل الله تعالى له جزيل الثواب على ما قدمه من خدمات للعلم ولأجيال متعاقبة من تلاميذه ولجمهور أبناء هذه الأمة من المثقفين بعلمه كما أسأله تعالى جميل العزاء لأسرته الكريمة وأصدقائه الأوفياء .

ملخص كلمة الأستاذ «أرنلد توينبي» (١)

سادتي :

يقول الأستاذ توينبي : أنه فئدين للجمع اللغة العربية بدعوته للحضور للاشتراك في تأبين المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال ، وهو يتذكر عندما كان — في سنة ١٩٢٠ — أستاذاً ناشئاً ، أنه كان عليه أن يشرف على بعض البحوث في الدراسات العليا ، وأنه حضر له حينئذ طالبان من مصر أحدهما المرحوم محمد قاسم والآخر المرحوم محمد شفيق غربال .

وقد عرف منذ لقائهما الأول أنهما يتميزان بميزات هامة للدارسي الدراسات العليا . وهو يقول : إن الطلاب الموهوبين لا يتعلمون من أستاذهم ، فهو لا يتذكر أنه علم شفيق غربال شيئاً ، بل أنه يتذكر أنه تعلم من شفيق غربال شيئاً كثيراً . ذلك أنه في الدراسات العليا يشترك كل من الأستاذ والطالب في تعليم كل منهما الآخر .

ويقول لقد كانت العلاقة بينه وبين هذين الأستاذين الفقيدين علاقة ودية مخلصمة دامت مدة حياتهما على الرغم من أنهم لم يتقابلوا إلا في النادر ولكن الاتصال كان دائماً بينهم .

ولقد كان الأستاذ « توينبي » منذ اللقاء الأول للمرحوم شفيق غربال يتنبأ له بمستقبله في أنه سيكون أستاذاً وباحثاً ، وأهم من هذا أنه كان يتنبأ له بمسلكه

(١) كتب هذا التلخيص الدكتور . مهدي علام أمانه الكرامة الانجليزية فيوجد في نهاية العدد .

الأخلاقى الذى تميز به أنه كان موضوعى التفكير مستقلاً فى رأى ذا حزم وعزم
فما يتصل بالعمل الذى يتناوله .

ولقد كان من الصعب أن يجمع المرء القدرة على العلم والإدارة ، ولكنه
وجد أن هذه القدرة قد تحققت فى المرحوم « شفيق غربال » ، إذ تولى مناصب
الإدارة فنجح فيها ، كما تولى منصب العالم فبرز فيها .

وأخيراً يقول : أنه فى هذه الزيارة السعيدة ، التى هى أول زيارة له لمصر ،
يشعر بحزن وبأسى عميقين ، إذ يشارك فى تأبين تلميذه وصديقه المرحوم « شفيق
غربال » ، وقبل وفاة المرحوم « شفيق غربال » بثلاثة أيام ، وصل الأستاذ
توينبى خطاب منه بدعوة فيه عندما يزور مصر أن ينزل ضيفاً كريماً عليه ، ولم
تحقق الأقدار ذلك . وهو يترحم عليه ويشكر الجميع على دعوته .

البحوث

ولاية قرّة بن شريك على مصر

في ضوء أوراق البردي

في مستهل القرن الحالى وقع حادث عرضى في مصر ، ترك أعظم الآثار في تطور الدراسات الخاصة بالتاريخ الإسلامى ، كما فتح أفقا فسيحة مشرقة أمام الباحثين في تلك الدراسات والعاملين في حقولها . ففي سنة ١٩٠١ م كان بعض العمال يحفرون أساس منزل في قرية كوم اشقاو الحالية ، وتقع بين أبي تيج وطهطا ، وفجأة ظهرت أمامهم فجوة في الأرض مليئة بأكداس من لفائف البردي ، ومغطاة بقطعة من الحصير .

وسرعان ما انتشر خبر هذا الكنز من أوراق البردي بين أبناء قرية كوم اشقاو ، ووصل إلى مسامع كبار أهلها ، ومن بينهم أخى العمدة ، الذى كان على شىء من الثقافة والدراية أيضاً بقيمة هذا النوع من ورق البردي . إذ سبق لغير من الفلاحين في الجهات المجاورة للقرية أن عثروا في أكوام السبخ ، التي قطعوها بفؤوسهم ونقلها إلى حقولهم ، على شذرات من أوراق البردي ، دون أن يحفلوا بأهميتها^(١) . ولكن تجار الماديات في الصعيد أظهروا اهتماماً بتلك الأوراق ،

(١) عثر بعض الفلاحين سنة ١٨٢٤ على جرة صغيرة محتومة بها ورقتان من أوراق البردي العربية في مكان بالقرب من أهرام سقارة ، وقام بنشرها المستشرق سلفستر دى ساسي في مجلة Journal des Savants الصادرة بباريس سنة ١٨٢٥ م . وبعد ذلك تنبه الناس إلى أمر أوراق البردي . وبعد مضي خمسين سنة تم بالفيوم اكتشاف كمية كبيرة من أوراق البردي . ثم تلا ذلك أيضاً اكتشاف أوراق ردى وجدها المنقبون في أكوام السبخ بين تلال أهناس وأخيم والأشمونين والهنسا .

(أنظر أدولف جروهمان ، المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية (القاهرة ١٩٣٠)

وعمدوا إلى الحصول عليها ، مما جعل الفلاحين ينتظرون إلى ما يقع في أيديهم من أوراق البردي بعين الجد والحرص . ولذا ما كاد ينتشر خبر كشف أوراق البردي في كوم اشقاو ، حتى أسرع أخو العبدة إلى مكان هذا الكنز ، وأخذ منه نصيب الأسد ، على حين بادر أهل القرية جميعاً ، كباراً وصغاراً إلى اقتسام البقية الباقية من تلك الأوراق فيما بينهم^(١) .

وعند ما سمع تجار العاديات والآثار في طما والأقصر وأخميم وأسيوط بما حدث في كوم اشقاو ، جاءوا إلى تلك القرية للاطلاع على محتويات هذا الكنز ، وشراء ما يروق لهم منه . وعرض أولئك التجار ثمناً بخساً في أول الأمر ، لم يلبث أن ارتفع حتى بلغت قيمة ما دفع في اللقافة الواحدة سبعة جنيهات . ولكن أحد التجار فشل في الحصول على نصيب من تلك الأوراق ، واشتد به الألم ، حتى أنه بادر إلى إخبار مقتش الآثار في البلينا بما حدث في كوم اشقاو . ونقل مقتش الآثار هذا النبأ بدوره إلى مأمور طما ، الذي أعد حملة تفتيشية ، انطلقت إلى كوم اشقاو لتحقيق في الموضوع . غير أن هذا الحادث أدى إلى نتائج غير متوقعة ، إذ أمن نفر من الفلاحين في إخفاء ما لديهم من أوراق البردي ، على حين عمد فريق آخر إلى التخلص مما في حوزتهم من البردي بإشعال النار فيه ، ليبتجنبوا مسئولية التحقيق والتردد على دار الشرطة . وأخيراً أكتفى رجال الشرطة بوضع حراسة على مكان اكتشاف أوراق البردي^(٢) .

وبعد بضعة أسابيع من اكتشاف كنز كوم اشقاو ظهرت لدى أحد تجار الآثار والعاديات في القاهرة مجموعة كبيرة مما احتواء هذا الكنز من أوراق البردي ثم لم تلبث أن تسربت بدورها إلى أوروبا حيث استقر القس الأكبر منها في مكتبة المتحف البريطاني ، وتقاوم البقية الباقية متحف برلين وموسكو وهيدلبرج ،

(١) Grohmann. A., From the World of Arabic Papyri (Cairo 1952), 216.

(٢) Grohmann, op cit, 217.

كما نالت دار الكتب المصرية شطراً من تلك الأوراق^(١) . وفي العام التالي لهذا الكشف الهام بدأ العلماء في أوروبا ينشرون ما وقع في أيديهم من هذا الكنز العلمي الثمين . ومن أشهر هؤلاء العلماء الأستاذ بيكر الذي نشر بعض أوراق البردي في المجلات الألمانية ، والأستاذ بل الذي نشر المجموعة الموجودة في المتحف البريطاني ، والأستاذ جروهمان الذي عكف على نشر أوراق البردي في دارالكتب المصرية . ولم تكن مهمة أولئك العلماء سهلة ميسورة ، وإنما كانت ضعبة وشاقة ذلك أن كثيراً من تلك الأوراق قد امتدت إليها يد البلى والتلف ، مما أضاع جوهر محتوياتها ، على حين أن القسم الداخلي من لفائف البردي متحجراً ، وتطلب فحصه عناية عظيمة ، ودقة فائقة^(٢) .

وأدى نشر أوراق البردي الخاصة بكموم اشقاو إلى كشف معلومات هامة تتعلق بتاريخ مصر في القرن الأول الهجري — السابع الميلادي . إذ كانت كل هذه الأوراق ترجع إلى عهد والي الأموي على مصر ، قرّة بن شريك ، الذي عينه الخليفة الوليد بن عبد الملك على تلك البلاد سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م . وانقسمت تلك الأوراق قسمين ، الأول اشتمل على الخطابات أو المراسلات الرسمية التي دارت بين قرّة بن شريك وحاكم كوم اشقاو إذ ذاك ، وكان يدعى « بسيل » من جهة وبين أهالي القرى التابعة لكموم اشقاو من جهة أخرى . أما القسم الثاني فهو عبارة عن قوائم للخراج وسجلات تحوي أسماء نفر من أهل القرى وبيان

I bid , 217, 218,

(١)

(٢) لم تكن أوراق البردي التي تم اكتشافها سليمة خالية من العيوب ولذلك يمكن نشرها سهلاً ميسوراً . فالأجزاء النفيسة وجدت — كما قال الأستاذ جروهمان — « متلاصقة متماسكة إلى حد يقرب من تحجرها أو مطموسة بالتراب ، أو ملقاة في ناحية أو هذا غير ما يصل إلينا مرقاً كله أو بعينه من فعل رطوبة الأرض أو من فعل النيران ... والأدهى من ذلك حين يدفع الطمع التجار الذين اعتادوا شراء البردي أو أولئك الذين يجدون بعض أوراق بردية ، فيعمدون إلى فصل شذرات مختلفة إما تعمداً أو بدون علم وقصد سييء » .

أنظر جروهمان ، المرجع السالف ، ص ٤ و ٥ .

بأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية . ثم اتضح من دراسة هذه الأوراق أيضاً أن بعضها كان مدوناً باللغتين اليونانية والقبطية ، والبعض الآخر مدون باللغة العربية .

ومن دراسة أوراق البردي السالفة الذكر ظهرت عدة نتائج هامة ، أولها أن صناعة ورق البردي في مصر ظلت رائجة ومتقدمة في القرن الأول الهجري ، أي بعد دخول البلاد في نطاق العروبة والإسلام . فاستمرت المصانع المصرية تؤدي رسالتها في هذا الميدان الهام ، على نحو ما قامت به منذ أيام الدولة القديمة ، وزودت شتى جيرانها ، ولا سيما بلدان البحر المتوسط بهذا العنصر الهام من عناصر الكتابة و بناء الحضارة الإنسانية كذلك^(١) .

أما النتيجة الثانية فهي أن أوراق البردي التي اكتشفت في كوم اشقار صححت كثيراً من المعلومات التي وردت في كتابات المؤرخين المسلمين عن الإدارة العربية وعملها في مصر وغيرها من البلاد على عهد الدولة الأموية . ومن ذلك أن المراجع التاريخية صورت «قرة بن شريك» والى مصر على أنه مثال للقسوة والجور وسوء الإدارة . فترك المؤرخ ابن الأثير مثلاً : إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد ابن عبد الملك فقال : « الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقرة بن شريك بمصر ! ،

(١) اشتهرت مصر بنبات البردي ، منذ أقدم العصور ، حيث كان يلعب في الحياة الاقتصادية في مصر القديمة نفس الدور الذي يلعبه القطن في مصر الحديثة . وانتشر هذا النبات في مستنقعات الدلتا ، حيث غطى مساحات واسعة منها ، منذ عهد المملكة المصرية الوسطى ، ولم يختلف لا في القرن العاشر الميلادي ، حيث كلف الناس عن زراعته . وكانت طريقة صناعة ورق البردي في العهد العربي هي نفس الطريقة التي اتبعها المصريون القدماء ، وذلك باستخراج لب البردي « فيشقونها نصفين من أولها إلى آخرها ، ويقطعونها قطعاً قطعاً ، توضح كل قطعة منها إلى لصق صاحبها على لوح من خشب ، أملس ، ويأخذون ثمر البشنيين ويلزجونه بالماء ، ويضعون تلك اللزوجة على كل قطعة ، ويتركونها حتى تجف جداً ، ويضربونها ضرباً لطيفاً قطعة خشب تشبه الأرزبة صغيرة حتى يستوى من الخشن ، فتصير في قوام الكاغد » .

أنظر حرومان ، نفس المرجع : ص ١١ ، حاشية (٢) .

وعثمان بالمدينة ، وخالده بمكة ! ، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً ، فأرح
الناس (١) . وقال المؤرخ أبو المحاسن : « كان قرّة بن شريك من أمراء
بنى أمية ، وولاه الوليد مصر ، وكان سيء التدبير ، خبيثاً ، ظالماً ، غشوماً »
ثم أمعن هذا المؤرخ في إصااق التهم بالوالى قرّة بن شريك ، فنسب إليه الفسوق ،
وخاصة عندما كان العمال يشتغلون بتوسيع مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ،
فقال : « وكان الصناع إذا انصرفوا من بناء الجامع دعا [قرّة] بالخمر والزمرور
والطبول ، فيشرب الخمر فى المسجد طول الليل ، ويقول لنا الليل ، ولهم
النهار » (٢) .

غير أن أوراق البردى التى كشفت فى كوم اشقاو تهدم هذه الاتهامات
السالفة الذكر ، وتوضح أن قرّة بن شريك لم يكن ظالماً ، بل عادلاً ، وليس
سيء التدبير ، وإنما هو مثال للحاكم القدير ، الحريص على سير الإدارة سيراً
حسناً وسليماً . فتبين أوراق البردى عطف قرّة على أفراد الشعب صغيراً كان
أم كبيراً ، وإشرافه الدقيق على سلوك كبار الموظفين ، ومعاينة المسيء منهم
بأشد ألوان العقاب .

ويبدو أن اشتداد قرّة فى إدارته ، وهو الأمر الذى أثار حوله الاتهامات التى
رددتها المراجع التاريخية ، يرجع إلى تقلده أعنة الأمور فى مصر ، بعد أن اشتد
فيها الفساد على عهد سلفه ، والوالى عبد الله بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد نفسه .
فاشتهر والى عبد الله بسوء الإدارة ، وشاعت حوله الاتهامات ، وأنه يرتشى ،
وينهب الأموال العامة فى مصر ، حيث يجمع الخراج أكثر من مرة ، ويغالط
أصحاب الحقوق عند دفعهم للضرائب . وزاد الحالة سوءاً انخفاض النيل على عهد
هذا والى سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦ م ، مما ترتب عليه غلاء الأسعار ، وتلاعب التجار

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ (ليدن ١٨٥١) ص ٢٤٢ .

بأقوات الناس (١). ولما كانت الخلافة توضع مصر في المكانة الأولى من اهتمامها ، فقد استدعى الخليفة الوليد أخاه عبد الله إلى دمشق سنة ٥٨٨ / ٧٠٧ م وأبقاه عنده مدة من الزمن ، يدرس معه أحوال البلاد ، ثم رده إلى ولايته بعد أن رسم له أمثل السبل لإصلاح ما فسد من الأمور .

ولكن الوالى عبد الله بن عبد الملك عاد إلى سيرته الأولى حين دخل مصر ثانية ، حتى ضج الناس ، وكثر فرار أهل القرى من أراضيهم ، والتخلى عن مزارعهم وحقولهم فراراً من الضرائب وازدياد الأعباء المالية التي وقعت على كاهلهم . ولذا لم يكن أمام الخليفة الوليد غير عزل أخيه عبد الله عن مصر (٢) ، وإسناد ولايتها إلى شخص قدير على رأب الصدع ، والمحافظة على سلامة هذه البلاد ، التي تعتبر عصب الدولة الأموية والعمود الفقري لنشاطها . واختار الخليفة قرّة بن شريك الذي دخل مصر (٣) سنة ٥٩٠ / ٧٠٩ م واستهل فيها نشاطه العظيم ، الذي سجلته أوراق البردى .

(١) الكندى ، ولاية مصر وقضائتها (طبعة روثن كست - ١٩٠٨) ، ص ٥٨ ، ٥٩ .
وقال في ذلك : وفي ولايته ، غلت الأسعار بمصر ، فتشاءم به المصريون ، وهى أول شدة رأوها ، وزعموا أنه ارتشى ، وكثروا عليه وسموه مكيساً .

(٢) أبو المحاسن ، نفس المرجع ، ص ٢٣٣ .

(٣) وصف الكندى وصول قرّة بن شريك إلى مصر قائلاً :

« فأقبل قرّة بن شريك على أربع من دواب البريد . . . فنزل بباب المسجد ، ونزل صاحبيه ، فدخل فصلى عند القبلة ، وتحول ، فجلس صاحبيه عن يمينه ويساره ، فأتاهم حرس المسجد وكان له شرط يذبون عنه ، فقالوا : إن هذا مجلس الوالى ، ولكم في المسجد سمة . قال : وأين الوالى ؟ ، قالوا : فى متنزه . قال فادع خليفته . فانطلق شرطى منهم إلى عيسد الأعلى [خليفة الوالى] فأعلمه . فقال أصحابه : أرسل إليه يأتيك صاغراً . قال : ما بعث إلى إلا وله على سلطان ، امرجوا ، فركب حتى أتاه ، فسلم ، قال : أنت خليفة الوالى ؟ ، قال : نعم . قال : انطلق فاطبع الدواوين وبيت المال . . .
وكتب إلى عبد الملك يعلمه (أى بوجود قرّة) ؛ فأتاه الخبر وقد أهديت له جارية ، فبكى ، ولبس خفه قبل سراويله دهشاً » .

أنظر الكندى ، ولاية مصر وقضائتها ص ٦٢ ، ٦٣ .

وهنا تبدأ المراسلات التي دارت بين قرّة بن شريك وبين بسيل صاحب كوم اشقار وغيره من العمال ، تشرح اهتمام الوالى بأن يسير رجال إدارته سيراً عادلاً وأميناً ، فجاء في إحدى البرديات رسالة بعث بها قرّة إلى عامل له ، يحضه فيها على الأمانة ، فقال : « إني قد بعثتك حين بعثتك على عملك ، وأنا أرجو أن تكون عندك أمانة . . . وتنفيذاً للعمل ، فكن عند أحسن ظنى بك ، فأنى والله ، لأن تكون محسناً مجللاً أميناً موقراً ، وأحب إلى وأعجب عندى من أن تكون على غير ذلك . لا تعين نفسك ، ولا تسيئن عملك ، واستعن بالله ، فإنه من ينفذ الإصلاح ويرى الأمانة ، يعنه الله ويصلح له عمله . ثم أقدم على بكل كتاب ترى أنى سائل عنه من عمل أرضك ، والسلام على من اتبع الهدى » (١) .

وتفيض أوراق البردى بعد ذلك فى بيان حرص قرّة على أن تأخذ العدالة مجراها ، وأنه فتح بابها لكل صاحب مظلمة ، وأنه كتب إلى عماله بالألا يحولوا بينه وبين أى شخص يريد أن يشتكى إليه أمراً من الأمور ، مهما كان صغيراً . ومن ذلك ما تشير إليه البردية التالية ، والتي بعث بها قرّة إلى بسيل ليعيد حقاً ضائعاً لصاحبه ، وجاء فيها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوه ، فأنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد : فإن مرقس بن جريج أخبرنى أنه كان يسأل نبطياً من أهل كورتك ثلاثة وعشرين ديناراً وثلاث دينار ، فيزعم أن النبطى مات ، وأنه أخذ ماله نبطى من أهل قرينته وغلبه على حقه ، فإذا جاءك كتابى هذا فإن أقم البينة على ما أخبرنى ، فانظر من أخذ ماله ، فعليه دينه ، ولا يظلمن عبدك ، إلا أن يكون

(١) Bell, Translation of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam) II, 282;

سيدة كاشف (دكتوراة) ، مصر فى فجر الإسلام (١٩٤٧) .

شأنه غير ذلك ، فتكتب إلى به ، ولا تكتب إلا بحق ، والسلام على من اتبع الهدى^(١) .

وكذلك عمد قرّة إلى معالجة مسائل التموين التي اضطرب شأنها نتيجة ما حدث في عهد سلفه من انخفاض للنيل وتلاعب التجار بأرزاق الناس . فتشير أوراق البردى إلى عنايته بإعداد شحنات الغلال في وقت مبكر ، وإلغاء الضرائب التي يدفعها تجار الغلال أيضاً حتى يشجعهم على أداء مهماتهم في رضى وقناعة . فجاء في إحدى البرديات التي بعث بها قرّة إلى بسيل يطلب منه سرعة إرسال التجار بالغلال إلى القسطنطينية ، قائلاً له : « فإني قد وضعت عنهم مكسه ، فليبايعوه بالقسطنطينية ، وعجل ذلك ، فإني قد خفت غلاء الطعام بالقسطنطينية . وإني إذا وصفت للتجار مكسهم أصابوا ربحاً . وإنما الحصاد إن شاء الله في أربعين ليلة أو قريب من ذلك . فعجل ما كنت باعثاً به من ذلك ، واكتب إلى كيف فعلت في ذلك ، وما بأرضك من التجار الذين يبيعون الطعام ، والسلام على من اتبع الهدى^(٢) .

وإلى جانب تدبير المئون في البلاد . أظهر قرّة منتهى الحزم في إقرار الأوضاع في القرى^(٣) ، وإعادة أهلها الذين هجروها على عهد سلفه . فأنشأ قرّة هيئة خاصة

Grohmann, op cit, III, 30, 31

(١)

Ibid, , 8, 9

(٢)

(٣) ويوضح ذلك نص البردية التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم
من قرّة بن شريك الى بسيل صاحب أشقوة ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن هشام بن عمر كتب إلى يذكر جالية (أي هاريين) له بأرضك ، وقد تقدمت إلى العمال ، وكتبت إليهم ألا يؤد جاليا ، فإذا جاءك كتابي هذا فادفع إليه ما كان له بأرضك من جالية ، ولا أعرفن ما رددت رسله أو كتب إلى يشتكيك ، والسلام على من اتبع الهدى .

أنظر : Grohmann, op cit, 23, 24

لوقف حركة الهجرة من القرى^(١) ، ولتعيد كل شخص إلى موضعه ، كما دأب على إرسال مندوبين من قبله إلى مختلف الجهات للفتيش عن الهاربين ، ويطلب من عماله على المدن والقرى تقديم كل مساعدة ممكنة لهم ، ويحثهم على مراقبة أولئك المندوبين ، حتى لا يقبل فرد منهم أية رشوة ، ثم يهدد بإيقاع أشد ألوان العذاب لسكل من تثبت عليه تلك التهمة الشنيعة^(٢) .

وإذا انتقلنا من تصوير أوراق البردي لشخصية قرّة بن شريك وسياسته الخازمة في مصر ، نرى أن تلك الأوراق تصور لنا خطوة هامة ، تمت على عهد هذا الوالى ، وهى استقرار الإدارة العربية في مصر في القرن الأول الهجرى ، وما صاحب ذلك من تعريب للدواوين وتنظيم لشئونها . فيتضح من أوراق البردي أن العرب اكتفوا في مصر بشغل المناصب الرئيسية ، حيث جمع الوالى في يده سلطات واسعة وأن البلاد قسمت إلى أقسام تعرف باسم « الكور » ، وهى تشبه الأقسام التى عرفها البيزنطيون في مصر باسم « البجارشى » (Pagarchie) ، وأطلق على حاكم كل قسم في الإدارة العربية اسم « صاحب الكورة » ، وهى تسمية مرادفة للكلمة البيزنطية بجاركوس^(٣) . وكانت كوم اشقاو مقراً لحاكم الكورة التى نسبت إليها ، والتى دونتها أوراق البردي باسم « اشقوه » . فكان قرّة يرأس باسيل « صاحب اشقوه » ، وهى تسمية عربية حلت محل اسم المقاطعة المعروفة باسم « افروديتى » فى ظل الإدارة البيزنطية لمصر . وترك العرب حكام « الكور » من رجال الإدارة القديمة ، مع وضعهم تحت الرقابة الشديدة ، على حين شجعوا رجال الإدارة من الأقباط على تعلم اللغة العربية ، وأتاحوا لهم كافة أسباب الطمأنينة وفرص التقدم .

(١) سيده كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) Bell, op cit II, 270, 274, 245;

سيده كاشف ، نفس المرجع ص ٢٢٨ .

(٣) سيده كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٨ ، ٢٩ — شعيرة (دكتور) ، اختصاصات صاحب الكورة فى القرن الأول الهجرى حسب مجموعة أفرودتو البردية (مجلة كلية الآداب - جامعة اسكندرية - مايو ١٩٤٣) باللغة الفرنسية .

وارتبط بهذا التنظيم الإداري جانب هام ، كشفت عنه أوراق البردي وهو تعريب الدواوين . والمقصود بذلك ديوان الخراج ، وهو الخصاص بالمالية العامة . إذ كانت اللغة المتبعة في هذا الديوان قبل الفتح العربي هي اليونانية والقبطية ، وظل الحال على ذلك حتى عهد الوالي عبد الله بن عبد الملك ، حيث أمره الخليفة بنقل هذا الديوان إلى العربية^(١) . وتوضح لنا أوراق البردي الخطوات التي سار عليها رجال الإدارة في تنفيذ هذا العمل الهام . إذ أمر قرعة بن شريك بأن تكون لغة الديوان المركزي في القسطنطينية هي العربية ، وكذلك المراسلات التي تخرج من هذا الديوان إلى أصحاب الكور وعمالها . وجرت العادة في هذه المرحلة المبكرة من تعريب الدواوين على أن توضع مع المكاتبات العربية ترجمة لها باليونانية أو القبطية ، حتى تسهل المهمة على العمال الذين لم يجيدوا العربية بعد .

وتزود أوراق البردي الباحثين في تطور اللغة العربية في مصر بمادة قيمة ، من حيث طريقة الكتابة ، وكذلك دخول ألفاظ غريبة إلى ميدان تلك اللغة . فاشتملت أوراق البردي العربية على كلمات أجنبية مثل « جسطل » ، وهي محرفة عن اليونانية ، ومعناها الموظف المشرف على مالية الكورة ، وكذلك كلمة « موازيت » ومعناها رؤساء أو مشايخ القرى^(٢) . إذ تؤكد هذه الظاهرة اتساع اللغة العربية لقبول مفردات جديدة ، كما توضح صلاحيتها للتطور ومواجهة مطالب الحياة على مر الزمن .

(١) الكندي ، ولاة مصر وقضااتها ، ص ٥٨ .

(٢) جاء في إحدى مراسلات قرعة إلى صاحب اشقوة :

« فإذا جاءك كتابي هذا ، فلا أعرفن ما استوفيت من الجزية بعد الذي ترسل ، بما قد جمعت من الجزية ديناراً ولا نصفاً ولا ثلثاً ، إلا ما كان على وزن بيت المال ، ونفذت في ذلك إلى جسطل كورتك وإلى موازيت القرى » .

أنظر 17 op cit ; Grohmann ;

سيده كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٩ .

وتشرح أوراق البردى نظام جباية الخراج في مصر ، وعدالة الإدارة العربية في تقدير المطلوب من البلاد . ذلك أن العرب وان احتفظوا ببعض عمال الإدارة البيزنطية في مصر ، إلا أنهم تجنبوا المظالم والمساويء التي اتبعها أولئك العمال في تقدير الضرائب وجمعها . فأكدت أوراق البردى الحقائق التي أشارت إليها المراجع العربية في اعتماد الإدارة الجديدة على أهالي القرى والبلاد في تنظيم الأموال العامة التي يقدمونها للدولة ، مع مراعاة المصالح الفردية والعامة أيضاً (١) .

فبنى قره بن شريك يرسل تعليمات إلى صاحب كورة اشقوه ، يطلب منه أن يجمع رؤساء كل قرية وكبار رجالها ، ليختاروا من بينهم نفرأ من المشهود لهم بالذكاء والأمانة ، ليتولوا تقدير الضرائب عن قريتهم . وكان يعد سجل خاص عما يتم عليه اتفاق هذا النفر من علية القوم ، ثم ترسل صورة منه إلى الديوان المركزي بالقسطنطينية لمراجعتها ، ووضع التقدير النهائي على أساسها . وكان قره ينذر كل فرد من المشتركين في هذه العملية بأشد العقاب إذا أهمل أو تسبب في إلحاق أذى بالناس عند تقدير الضرائب . وتطلب هذا الأمر ذكر محل إقامة كل من اشترك في تقدير الضرائب ، في نفس السجل الذي يتم إعداده ، حتى يمكن الرجوع إليه إذا ما اقتضى الأمر ذلك (٢) .

وأظهرت أوراق البردى أن الخراج في مصر كان يدفع عيناً ونقداً ، وأن الجزية كانت تدفع نقداً ، مع مراعاة ثروة كل شخص ، حتى لا يضار أحد ، أو يدفع شيئاً أكثر من طاقته . وكانت هذه الجزية تدفع بالدنانير وكسور الدينار

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر (تحقيق عبد المنعم عامر) ، ص ٢٠٦ .
« وكان عمرو بن العاص لما استوسق له الأمر [بمصر] أقر قبضها على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ومدوتها ورؤساء أهلها ، فيتناظرون في العماره والخراب ، حتى إذا أقروا من القمم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى ، وسعة المزارع » .

(٢) Bell, op cit, 282 — سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٦٠ .

فدأب قرّة على إرسال الأوامر إلى صاحب اشقوة يطلب منه إرسال كشوف بالنواحي التابعة له لمعرفة عدد الرجال بها ، الواجب عليهم الجزية ، مع بيان ثروتهم ومصادر دخلهم (١) .

وأوضحت أوراق البردي أيضاً تنظيم قرّة بن شريك لديوان الجند ، واهتمامه بأرزاق الجند كذلك . والمعروف أن هذا الوالي يعتبر المنظم (٢) الثالث لهذا الديوان بعد عمرو بن العاص ، وعبد العزيز بن مروان . وكان عطاء الجند يتطلب جمع « ضريبة الطعام » ، والتي اشتملت على القمح والزيت والعسل ، وأنواعاً أخرى من الأطعمة . وحرص قرّة على جمع هذه الضريبة حتى يطمئن الجند لأرزاقهم ، ويستطيعون بالتالي القيام بواجباتهم على خير وجه . وتوضح البردية التالية الحقيقة السالفة الذكر ، إذ جاء فيها .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة . فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك قد علمت الذي كتبت إليك به من جمع المال ، والذي قد حضر من عطاء الجند وغيالهم وغزو الناس ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فخذ في جمع المال ، فإن أهل الأرض قد حموا منذ أشهر ، ثم عجل إلى بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول فإنه لو قد قدم إلى المال قد أمرت للجند بعطائهم إن شاء الله فلا تكونن آخر العمال بعثاً بما قبله ، ولا ألومك في ذلك ، والسلام على من اتبع الهدى (٣) » .

Grohmann, op cit, 48, 49

(١)

سياسة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) الكندي ، نفس المرجع ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

Grohmann, op cit, 12,13

(٣)

واقترضى تنظيم ديوان الجند مراجعة السجلات المدون فيها الأسماء بالنواحي المحلية ، حتى تستطيع الإدارة المركزية بالفسطاط منح الحقوق لأصحابها ، دون أن تضار المالية العامة . ويدل على ذلك البردية التالية ، إذ جاء فيها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من قره بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة .

فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن أناساً من الجند ذكروا لي كتبه من قريتهم كانت تجرى عليهم منذ أربعين سنة ، ولم نجد شيئاً من الكتب ، فلا أدري ما صدق ذلك من كذبه ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فلا تقدمن قرية من كورتك إلا سألت أهلها عما في قريتهم من تلك الكتبة ، وإن هي ، فإذا عامت ما في كل قرية منها ، فأرفع إلى كتاب ما وجد من ذلك في كل قرية وتكتبين لكل رجل كتاباً بما سأله مني (١) .

وكشفت أوراق البردى عن جانب هام في الإدارة العربية أيضاً ، وهو وجود « ديوان البريد » في مصر ، منذ القرن الأول الهجري ، وأنه كان يؤدي نفس الأغراض التي نهض بها هذا الديوان في أزهي عصوره . والمعروف أن « ديوان البريد » لم يكن ينقل المراسلات العامة للناس على نحو ما هو متبع اليوم ، وإنما كان هيئة حكومية ، تشرف على المراسلات الرسمية ، كما ينهض رجالها بمراقبة العمال في شتى النواحي ، أشبه بقلم المخبرات في الوقت الحاضر . واعتمد قره على رجال هذا الديوان في تنظيم أمور ولايته ، وإبعاد الأذى الذي يحاول أى عامل أن ينزله بالناس ، وذلك على نحو ما جاء في البردية التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من قره بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة ، فإني أحمد الله الذي لا إله

إلا هو ، أما بعد ، فإن القاسم بن سيار صاحب البريد ذكر لي أنك أخذت قرأ في أرضك بالذي عليهم من الجزية (١) ، فإذا جاءك كتابي هذا فلا تعترضن أحداً منهم بشيء حتى أحدث إليك فيهم إن شاء الله ، والسلام على من اتبع الهدى (٢) .

وبذلك منع قررة وقوع الغرامة على رعاياه ، وأثبت أنه وال يقظ ، بفضل عامل البريد ، الذي صار يمثل عين الحكومة وأذنها في شتى النواحي .

على أن أروع جانب كشفت عنه أوراق البردى الخاصة بعهد قررة بن شريك . هو الدور العظيم الذي أسهمت به مصر ، منذ القرن الأول الهجري في بناء البحرية العربية والنشاط الحربي الذي قامت به هذه البلاد أيضاً في الدفاع عن الدولة العربية الفتية . فكانت الأوامر التي بعث بها قررة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة تطلب منه إرسال البحارة والمقاتلين للعمل في وحدات الأسطول المصري الذاهب إلى قاعدة أفريقية ، وكذلك إلى قاعدة اللاذقية في المشرق . وذلك فضلاً عن مطالب الأسطول المصري الرابض في الميأه الإقليمية لهذه الولاية . والمعروف أن السفن الحربية المصرية خرجت سنوياً للدفاع عن الشام وشمال أفريقيا ، وأسهمت مع أساطيل تلك الولايات أيضاً لصد خطر الروم وتقليم أظافرهم . وتوضح أوراق البردى انتظام هذه الحملات ونشاطها ، والدور الجليل الذي قام به رجالها .

وتوضح تلك الأوراق البردية بذلك استعدادات الدولة العربية على عهد الوليد للقيام بحرب شاملة ضد الدولة البيزنطية ، وتمهيد الطريق أمام الأسطول العربي ، الذي كان على وشك الانطلاق نحو العاصمة البيزنطية . والمعروف أن

(١) أي فرضت عليهم غرامة .

الوليد توفى دون إتمام هذه المشاريع ، وترك لخليفته سليمان بن عبد الملك أسطولاً عظيماً يسوده التعاون بين وحداته الكبرى في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وأن هذا الأسطول المتحد اشترك في حصار القسطنطينية الكبيرة .

وكانت دور الصناعة في مصر تتلقى من الكور ما يساعدها على بناء السفن ومعدات القتال البحري ، على نحو ما تفيض به أوراق البردي وما تضمنته من مراسلات قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب كوم اشقاو . إذ تفيض الأوامر بطلب الأخشاب والسامير والحبال ، ومهرة الصناع إلى غير ذلك مما تحتاج إليه دور الصناعة في بابليون (جزيرة الروضة فيما بعد) والأسكندرية ، والقلم . وتسهب البرديات في ذكر أجور العمال الفنيين وغير الفنيين ، والمقادير المطلوبة من كل صنف ، مما يشهد بدقة الإدارة العربية على عهد قرّة بن شريك .

وأخيراً نرى أوراق البردي توضح الدور العظيم الذي قام به الصناع المصريون في تعمير الدولة العربية إلى جانب الدفاع عن حياضها . إذ اشتملت المراسلات التي بعث بها قرّة بن شريك إلى صاحب اشقوة على طلب عمال يشتغلون في بناء جامع دمشق وجامع بيت المقدس ، مع دفع أجورهم مقدماً . وجاء في إحدى البرديات أيضاً أمر من قرّة إلى صاحب اشقوة بأن يبعث عدداً من الرجال الفنيين للعمل في قصر الخليفة بدمشق (١) . والمعروف أن هذا الخليفة كان مغرمًا بالبناء ، واستدعى من أجل ذلك مهرة العمال من كل مكان ، حتى من الدولة البيزنطية نفسها . ومن ثم فإن أوراق البردي تشهد بمهارة المصريين في فن العمارة في هذا العصر المبكر من تاريخ الدولة العربية ، وأن ولاية قرّة بن شريك صارت بفضل تلك الوثائق البردية التي اكتشفت في كوم اشقاو ، مثلاً أعلى لما قامت به

Bell, Translation of the Greek Papyri (Der Blam) II,274, III, 133, (١)
؛ سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
IV, 93,95;

مصر من جليل الخدمات في ميدان الحضارة العربية الإسلامية ، وإعلاء شأنها .
وفي نفس الوقت أكملت أوراق البردي بعض الصور الباهتة المعالم التي حاولت
المراجع العربية رسمها عن الحياة في مصر ، بشكل أروع وأبهى ، « إذ يقينا
لا يوجد مؤرخ مهما كان كثير التعمق في التفاصيل ، ولا قصصى أوجامع للحكايات
أو كاتب يمكنه كشف القناع عن وصف دقائق الحياة في تلك العصور الخوالية
بمثل ما تحدثنا به هذه الأوراق التي أخرجت من أرض مصر . إذا من هنا نقيين
الأهمية ، لأنها المعين الصحيح والمصدر الصادق لتاريخ الحضارة الإسلامية
في العصور الزاهية في العالم الماضي » (١) .

ابراهيم أحمد العروى

(١) جروهمان ، المحاضرة الأولى عن الأوراق البردي ، ص ٩ .

شمالى أفريقية و الوندال

٤٣٩ — ٥٣٤ م

١ — التحديد الجغرافى لشمالى أفريقية وبلاد المغرب — السكان الأصليون : البربر وأصولهم — فلسطين هى دار البربر الأصلية — المؤرخون المسلمون وأقسام البربر — الاستعمار الفينيقي لشمالى أفريقية — الاستعمار الرومانى — التقسيم الإدارى لشمالى أفريقية الرومانى — أهمية ولاية أفريقية Africa — أثر الحضارة الفينيقية — موقف الرومان من البربر الوطنيين والممالك البربرية الوطنية — الأفارقة — انتشار الحضارة الرومانية — بعض قادة الفكر فى أفريقية الرومانية — سوء الأحوال الاقتصادية — الانقسام الدينى : (الدوناتيون Donatists) .

٢ — الوندال الجرمان وأصولهم وأقسامهم — تحركاتهم خلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين — اعتراف الرومان بهم « Foederati » — دخولهم غالة (٤٠٦) — دخولهم أسبانيا (٤٠٩) — اضطراب أحوال الامبراطورية الرومانية فى الغرب — مدى مسئولية بونيفاس Bonifacius فى دعوة الوندال لغزو أفريقية (٤٢٨) — شخصية ملك الوندال جزريك Gaisricus : « بسمارك القرن الخامس الميلادى » .

٣ — عبور الوندال إلى أفريقية (٤٢٩) وقضاؤهم على السيطرة الرومانية — كفاح بونيفاس الأخير ضد الوندال — الاعتراف بالوندال فى أفريقية فى معاهدة ٤٣٥ م — الاستيلاء على قرطاجنة (٤٣٩) واتخاذها عاصمة للمملكة الوندال . سيطرة الوندال البحرية ، رسالة أيودكسيا Eudoxia وتخریب الوندال لمدينة روما (٤٥٥) .

٤ — حكومة الوندال في شمالي أفريقيا — نظم الحكم والإدارة ،
التوزيع الأقطاعي Sortes Vandalarum واسترقاق الرعايا . سياسة الوندال
الدينية .

٥ — كفاح الرومان ضد دولة الوندال — تحالف الشرق والغرب ضد
الوندال — نهاية الأمبراطورية الرومانية في الغرب (٤٧٦) — وفاة جزريك
(٤٧٧) واضطراب أحوال مملكة الوندال من بعده — يوستانيوس والقضاء
على دولة الوندال ٥٣٣ / ٥٣٤ م — أسباب سقوط الوندال — تراهم —
الوندال والتاريخ — أحوال شمالي أفريقيا منذ زوال الوندال حتى بداية
الفتح العربي الإسلامي .

١

لم يكن هناك اسم معين يطلق ، في التاريخ القديم ، على المساحة الشاسعة
الواقعة في شمالي أفريقيا الغربي ، وهي الممتدة من غربي مصر شرقاً إلى المحيط
الأطلسي غرباً ، ومن البحر الأبيض شمالاً إلى الصحراء الكبرى من ناحية
الجنوب ، غير أن كتاب الغرب أطلقوا على هذه المنطقة اسم « بلاد البربر »
Barbary أو La Berbérie أو The Coast of Barbary^(١) ،
على حين أطلق الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على هذه المنطقة اسم
« بلاد المغرب » أو « جزيرة الغرب » أو « مغرب »^(٢) ، ويعنون بذلك

(١) Thomson, J. O., History of Ancient Geography, (Camgr, 1948), 1. 259;
Gsell, S., Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, (Paris, 1921), T.I., PP.1,2.

(٢) البلاذري : فتح البلدان ص ٢٧٠ ، تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٥٤ ، المسعودي :
مروج الذهب ج ١ ص ٥٥ ، ابن الوردي (نشره وترجمه إلى اللاتينية S. Hylander)
لندن (١٨٢٣) ص ٥٥ ؛ Gsell. op. cit. 66. 1- 23.

جميع شمالي أفريقيا غربى مصر ، بل أن كلمة « المغرب » ، عند العرب كانت تضم الأندلس كذلك ، فى أول الأمر ، إلا أنه بعد أن استقر المسلمون بالقيروان (٦٧٠ م) ، أطلقوا اسم « أفريقية » على المنطقة التى تضم غربى طرابلس وتونس (١) ، وصارت كلمة المغرب لا تدل على غير شمالي أفريقية الغربى فى نهاية الأمر (٢) ؛ على أن المغرب فى عرف أهله هو الممتد من غربى برقة ، أى أن برقة خارجة عنه ، إلى المحيط الأطلسى ، بمعنى أنه يشمل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش (٣) . والذى نعنيه فى هذا البحث « بشمالي أفريقية » هو المنطقة الممتدة من طرابلس شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً ، وهى التى طوتها السيادة الوندالية ، وقامت فيها مملكة الوندال ، وإن لم تكن سيادة الوندال فعالة على بعض أجزاء هذه المنطقة ، ولا سيما المغرب الأقصى . وهذه المنطقة هى بعض أملاك الرومان فى شمالي أفريقية (٤) . إذ كان الرومان قد بسطوا سيادتهم على جميع الساحل الأفريقى الشمالى المطل على البحر الأبيض ؛ بمعنى آخر إن المنطقة التى نعنيها ، تشمل ما هو ، حالياً ، بعض المملكة الليبية المتحدة وجمهورية تونس والجزائر والأطراف الشرقية للمملكة المغربية ؛ وهذه المنطقة هى بعض بلاد البربر ، كما ذكر القدماء ، وهى أيضاً « أفريقية الصغرى » Africa Minor ، كما عرفها ريتز

(١) من المعروف أن العينقيين قديماً كانوا أطلقوا اسم أفري Aphri على أهل البلاد الذين أقاموا حول مدينتهم طاقه Utica - أى المدينة القديمة - وحول عاصمتهم قرطاجنة - أى المدينة الجديدة ، وقد أخذ اليونان عنهم هذه التسمية ، وأطلق الرومان كلمة « أفريقية » على ولاية أفريقية القنصلية وتشمل قرطاجنة وما حوطها حتى نوميديا (أنظر الدكتور حسين مؤنس : فتح المغرب للمغرب - مصر ١٩٤٧ - ص ١ - ٢ .

(٢) لوبيون (ج .) : حضارة العرب - ترجمة زعيتير - ص ٢٤٣ .

(٣) الناصرى (أبو العباس) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - (تحقيق ونشر ولدى المؤلف جعفر الناصرى ومحمد الناصرى - الدار البيضاء ١٩٥٤) - ص ٦٣ - ٦٤ ابن خلدون : تاريخه - ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٤) أنظر الخريطة رقم - ١ -

K. Ritter ؛ والمغرب عامة من الناحية الجيولوجية والجغرافية ، يكون وحدة . وكان أغزر إمطاراً وأكثر خصوبة مما هو عليه الآن ، ولا سيما فيما هو تونس الحالية (١) ، ويشبه سواحل جنوبي أوروبا ، وهو حلقة اتصال بين قارتي أفريقية وأوروبا ، وكثرت النقلة منه وإليه ، كما كثرت التأثير المتبادل (٢) . وهناك أوصاف تفصيلية كثيرة وافية ، ذكرها المؤرخون القدماء ، لهذه المنطقة ، أمثال : هيكتيوس وهيرودوت وسترابو وبليني وبطليموس وبول أوروبز وغيرهم (٣) ، وهذا بالإضافة إلى ما كتبه جغرافيو العرب ومؤرخوهم (٤) .

* * *

وسكان هذه البقعة الأصليون هم « البربر » الذين يختلفون عن السكان المقيمين في جنوبي الصحراء ، جنوبيهم ، وكانوا قديماً ينتشرون على طول ساحل أفريقية الشمالى ، من غربى مصر حتى المحيط الأطلسى ، حتى أطلق على هذه البقعة الفسيحة اسم « بلاد البربر Barbary » (٥) وقد أقاموا فى تلك المنطقة منذ الزمن السحيق ، وعرفهم المصريون القدماء تحت أسماء مختلفة منها : الليبو Lebu والمشواشين Mashuasha وتماحو Tamahu وتحنو Tehenu وكها Kahaka

(١) Deanesly, M., A History of Early Med. Europe, (Lond., 1956), P. 75.

(٢) Alimen, The Prehistory of Africa, PP. 1, 69.

(٣) Rogel, R., Le Maroc chez les auteurs anciens (Paris, 1924), PP. 9 - 40; أنظر كذلك :

أبو الفداء : كتاب تقويم البلدان ص ١ ، ٤ ؛ ابن الوردي ص ٤ ؛ ابن أياس : نشق الأزهار فى عجائب الأقطار ص ٢٢ ؛ البشارى : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢١٥ - ٢٣١ ؛ الأدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ص ٢ .

(٤) Yver, G. "Africa" (Encycl. of Islam)

(٥) Encyclopedia Brittanica, "Art. Berbers"

وظهرت هذه الأسماء في النقوش الفرعونية التي ترجع إلى حوالى عام ١٧٠٠ ،
١٣٠٠ ق . م (١) .

وأصل الاسم واشتقاقه مشكوك فيه . أرجعهم البعض إلى الكلمة الإغريقية
الدالة على معنى البربرة الوحشية وأشار إليهم الإغريق بهذا المصطلح أولاً ، وتبعهم
الرومان في ذلك (Barbarus) ؛ كذلك أشار إليهم الأغريق بكلمة تدل على
معنى البداوة (Nomads) ، وهكذا اتبعهم الرومان (٢) . ويقال إن العرب هم
الذين أطلقوا عليهم كلمة « البربر » ؛ وفسر المؤرخون العرب هذه اللفظة تفسيراً
لغويًا ، فقالوا : سموا بالبربر لأن رطاباتهم غير مفهومة لغيرهم ، والبربرة في لغة
العرب اختلاط أصوات غير مفهومة .

* * *

وأشار المؤرخون والجغرافيون من كتاب الغرب ، إلى البربر ، بأسماء مختلفة ،
منها : النساموينون Nasamones والبسيليون Psylli ، وهؤلاء أقاموا في برقة
وطرابلس ، والجرامانثيون Garamantes ويعيشون في البادية ، والمليسيكيون
Makyles & Maxices ، وأقام هؤلاء في ساحل تونس ، أما الموزولاميون
Musulami والنوميديون Numidiae فأقاموا في شرقي المغرب ، وأما الجتيوليون
Geatuli فكان مقرهم في المرتفعات وعلى حافات الصحراء ، وأخيراً المغاربة
Mauri الذين ينتشرون في المغرب الأوسط والأقصى (٣) .

وهناك تسميات أخرى ، أطلقها الرومان والبيزنطيون ، على البربر ، من

Ibid.

(١)

Soames, J. The Coast of Barbary, Lod., 1938), P.. 18 ; Encycl. Br. Art. "Berbers".

(٢)

Basset, R. Berbers (Encycl. of Islam), Vol. I.

(٣)

حيث تقسيمهم إلى شعوب ، بحسب الأقاليم التي أقاموا فيها (١) . والملاحظ أن الرومان ، بصفة خاصة ، أطلقوا على البربر عامة : اسم الجيتوليين والنوميديين والموريين (المغاربة) ، وعنوا بذلك جميع البربر ؛ وهذه الأسماء مشتقة أصلاً من الكلمة الأفرريقية التي تدل على معنى البداوة (٢) .

ولعل هناك صلة بين كلمة « مور » Mauri (المغاربة) ، وبين الكلمة العبرية « ماهور Mahur » بمعنى غربي Western ؛ وهذه أطلقها الرومان في العصر الكلاسيكي ، وعمموها على جميع القبائل المقيمة بشمالى غربى أفريقيا ، وسموا المقاطعات الشمالية الغربية فى أفريقيا باسم مرطانيا Mauritania أى بلاد المغاربة (٣) . وظهر هذا الاسم لأول مرة خلال الحرب اليوجرثية (١١٠ — ١٠٦ ق.م ، نسبة إلى يوجرثا Jugurtha البربرى ملك موريتانيا ، وهى الحرب التى وقعت بين البربر والرومان فى تلك الفترة (٤) .

والخلاصة ، أن جميع سكان شمالى أفريقيا الغربى الأصليين ، من البربر ، مهما اختلفت الأسماء التى أطلقت عليهم ويمكن القول بصفة عامة بأنه من لم يكن زنجياً فى هذه المنطقة ، فهو بربرى ، وذلك قبل الفتح العربى الإسلامى (٥) . والصفات الجنسية التى اشتهر بها البربر ، كما صورهم المصريون القدماء ، أنهم ينتمون إلى الجنس الأبيض بل الأشقر ، ولا تزال الشقرة بادية فى بعض ذراريهم إلى الآن ، وعموماً البربر جنس أبيض ، رغم وجود اختلافات محلية بين سكان القرى المختلفة ، نتيجة لعوامل المناخ والاختلاط بغيرهم ؛ ولذا كان ما قصده اليونان من كلمة مورى Mauri ، هى ، « الرجال السود » .

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٥ - ٦ .

(٢) راجع ما سبق .

(٣) Cary, A History of Rome, P. 303

(٤) Roget, op. cit., P. 22 ; Cary, op. cit. PP. 303-306.

(٥) لوپون : حضارة العرب ص ٢٤٤ .

وقد وصفهم ابن خلدون وصفاً شاملاً فقال :

« وهذا الجيل من الآدميين ، هم سكان المغرب القديم ، ملأوا البسائط والجبال ... يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ، ومن الشعر والوبر ، ويظن أهل العز منهم والغلبة ، لا تتجاع المرعى فيما قرب من الرحلة ، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس ، ومكاسبهم الشاء والبقر ، والخليل في الغالب للركوب والنتاج ، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم ، شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأطمان ، في نتاج الأبل وظلال الرماح وقطع السابلة ، ولباسهم وأكثر أثاثهم الصوف ، يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ، ورؤسهم في الغالب حاسرة ، وربما يتعاهدونها بالخلق ، ولغتهم من الرطانة الأعجمية ، متميزة بنوعها ، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم ... »^(١) .

والسائد الراجح ، أن فلسطين هي دار البربر الأصلية التي نزحوا منها ، واتجهوا إلى الغرب ، وكان يحكمهم في الزمن السحيق الملك جالوت — الوارد خبره في القرآن الكريم^(٢) . فلما قتله داود عليه السلام ، هاجر البربر إلى الغرب ، وتفرقوا في نواحيه ؛ ووقعت هجرتان كبيرتان للبربر من آسيا إلى شمالي أفريقيا ، أولاهما : كما يقول صاحب عقد الجمان ، وقعت عندما انهزم فريق من بني حام أمام بني سام ، فهاجر المهزمون إلى بلاد المغرب ، حيث تناسلوا

(١) ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ١٩ .

(٢) وردت قصة جالوت وقومه والحرب بينه وبين داود عليه السلام في سورة البقرة من آية : ٢٤٦ إلى نهاية آية : ٢٥١ . وهناك شرح واف لتفسير هذه الآيات في كتب التفسير ومنها :

الإمام محمد عبده : تفسير القرآن الكريم (مصر ١٣٥٠ هـ) ج ٢ ص ٤٧٦ - ٤٩٢ ؛ تفسير النسفي المعروف بإسم « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » ج ١ ص ٩٤ - ٩٥ ؛ تفسير البيضاوي ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٣ ؛ تفسير الجلالين ج ١ ص ٣٠ - ٣١ الخ

« واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى تخوم السودان » ثم جاء فريق آخر من بنى حام من فلسطين زمن داود عليه السلام . وهم ، كما يقول الطبري والكلبي وابن حزم وابن عبد البر صاحب كتاب التمهيد ، وابن خلدون ، أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم ، نزحوا إلى بلاد المغرب ، فنزلت زنانة ومغيلة وخريسة وفرسنة الجبال ، على حين نزلت لواتة أرض برقة ، ونزلت هوارة مدينة إياس ، وهكذا احتلت كل قبيلة منطقة خاصة بها^(١) . ومنهم من « تمجس ومنهم من تهود ، ومنهم من تنصر ، وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان » ، وظلوا على ذلك حتى جاء الإسلام^(٢) .

والبربر ، كما قسمهم جغرافيو العرب ومؤرخوهم ، فرعان هما : البرانسي والبتري ، ويذكر ابن خلدون أن البرانس نسبة إلى جدهم برنس ، والبتري نسبة إلى جدهم مادغيس الذي كان يلقب بالأبتري^(٣) ؛ والراجح أن البرانس نسبة إلى نوع من الزى كانوا يلبسونه وهو البرنس ، والبتري لأنهم كانوا لا يلبسون ذلك اللباس ، والبرانس سكان المدن المتحضرون ، والبتري سكان البادية^(٤) .

والبرانس عشر قبائل : أوربه — صنهاجة — كتامة — مصموده — عجية — أوريفه — أرداجه — لمطه — هكسوره — جزولة . واكل قبيلة من هذه القبائل فروع متعددة ، وأكبر هذه القبائل صنهاجة ، حتى قيل أنهم مقدار الثلث من البربر ، ومن صنهاجة بنو زيري والمثلثون وكتامة .

وأقسام البتر : خريسه — نفوسه — أداسه — لواته ؛ ومن جزيره مكناسه وزناته ، ومن زناته جراوه وهم قوم الكاهنة « داهيا » صاحبة جبل أوراس التي أوقعت بجيش حسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان ،

(١) ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ٩١ ، الأدريسى : نزهة المشتاق ص ٥٧ .

(٢) الاستقصا ج ١ ص ٥٣ ؛ ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٩٣ - ٩٦ .

(٣) الاستقصا ج ١ ص ٥٧ .

(٤) عبد الحميد العبادي : موجز تاريخ الأندلس .

ومن زناته كذلك بنو خرز المغراويون ، ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ،
وبنو بقرن وبنو زيان وبنو مرين . ولكل قبيلة عمائر وبطون وأنخاذ
لا حصر لها (١) .

ابتدأ نفوذ الرومان يمتد إلى ساحل أفريقية الشمالى منذ العهد الجمهورى ،
وذلك على أثر الحروب الطاحنة التى دارت بينهم وبين الفينقيين ، وانتهت بإزالة
ملك الفينقيين من شمالى أفريقية بعد أن مكث نحو سبعائة عام (٢) .

وتركزت أملاك الرومان فى شمالى أفريقية ، زمن الأمبراطور أغسطس
(ت ١٤ م) ، فى مملكتى نوميديا Numedia وموريتانيا Mauritania ،
فلما أعاد الأمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) تنظيم الأمبراطورية الرومانية ،
قسم هذه الأملاك إلى سبعة أقسام إدارية لتسهيل إدارتها وحماية الأمن فيها ، ونى
من الشرق إلى الغرب : طرابلس Tripolitana ، بيزا كينا Byzacena ،
وأفريقية القنصلية أوزوجتانا Africa Proconsularis or Zeugitana ،
ونوميديا ، وستيفنسيس Sitifensis ، وقيصرية Caesarienses ، وطنجه
Mauritania Tingitana (٣) .

(١) الاستقصا ص ٥٧ - ٥٨ ؛ ابن خرداذبة ص ٩٠ ؛ الأدريسى ص ٥٧ ؛
ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٨٩ - ١١٤ .

(٢) موطن الفينقيين الأصلى هو سواحل الشام وفلسطين ، وهم عرب ، ضربوا بسهم كبير
فى التجارة والملاحة البحرية ، ويرجع وصولهم إلى سواحل أفريقية الشمالية الغربية إلى حوالى
عام ١٢٠٠ قبل الميلاد ؛ أقاموا المراكز التجارية على طول السواحل التى وصل نفوذهم إليها ،
وبنوا قرطاجنة خلال القرن التاسع قبل الميلاد ، وكانت لهم إمبراطورية بحرية كبرى ، كما كان
أسطولهم يسيطر على البحر الأبيض (أنظر :

Gsell, S., Histoire ancienne de l'Afrique du Nord (Paris, 1921) Ts. I, II.
أنظر :

Soames, op. cit., PP. 28-29 ; Ch. André, J., op. cit., PP. 63-127 ; Mommsen,
T., The Hist. of Rome Vol. III, P. 321 ; Bury, J., A Hist. of the Roman Empire
from the Foundation to the death of Aurelius (27 B.C.-180 A.D.) PP. 89-90, 239 ;
Salmon, E.T., A Hist. of the Roman Empire, P. 106 ; Roget, op. cit., PP. 17-40 ;
ابن خلدون ص ٢ ص ٤٠٢ ؛

Hodgkin, T., Italy & her Invaders, Vol. II, PP. 232-3

(٣)

يتضح من هذا التقسيم ، أن كلمة أفريقية أو ولاية « أفريقية الأصلية » Africa Vetus ، كانت تعنى عند الرومان أحد هذه الأقسام السبعة ، وتشمل جغرافياً ما هو تونس الحالية تقريباً^(١) ؛ ومع ذلك استعمل هذا المصطلح أحياناً استعمالاً عاماً ، وأطلق ليدل على كل شمالي أفريقية^(٢) وذلك لأهمية هذا القسم ، إذ كان مركز الحكم لجميع شمالي أفريقية الروماني ، بل كان نقطة البدء في بسط السيطرة الرومانية ، فمنه امتد الرومان وتوسعوا شرقاً وغرباً^(٣) .

ويدل المصطلح « أفريقية الرومانية » على جميع المنطقة الساحلية الممتدة من غربي برقة شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً ، باستثناء ولاية طنجة المطلة على المحيط ، فهذه كانت تتبع أسبانيا والغال من الناحية الإدارية ، ولم تكن ضمن أفريقية الرومانية^(٤) ، ويرجع السبب في ذلك ، لعوامل جغرافية ، تلخص في صعوبة المواصلات الداخلية بينها وبين جيرانها في الشرق من أملاك الرومان ، فهناك منطقة صحراوية يبلغ طولها أكثر من مائتي ميل ، تفصلها عن أقرب جار لها من الشرق ، حتى أنه لم تكن هناك مواصلات برية تصل بين طنجة Tingis في المغرب ، وبين قيصرية Caesarea ، في شرقي موريتانيا^(٥) ؛ ومن ثم رؤى أن ترتبط ولاية طنجة أو تلحق بالولايات الرومانية المتحضرة وشمالها عبر المضيق^(٦) ومن ناحية أخرى ، لهذا العامل الجغرافي أثره في تفسير خطورة المغاربة الذين كانوا كثيرى الاغارة على الرعايا الرومان في بايتيكا Bactica

Thomson, op. cit., P. 256.

Fage, J.D., An Atlas of African Hist., PP. 6-7

Soames, PP. 30-38.

Deanesy, M., op. cit., P. 75.

Bury, J., op. cit., P. 89.

Hodgkin, T. op. cit., P. 233.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

(الأندلس فيما بعد) ، أكثر من خطورتهم على رومان أفريقية . ونظراً لاستهداف بايتيكا لهذا الخطر العابر من أفريقية ، وصفها شاعر لاتيني معاصر للإمبراطور نيرون (٥٤ — ٦٨ م) بأنها : *Trucibus obnexia Mauris* (١) .

ومن المحتمل أن ولاية طنجة ظلت بنجوة من غزو الوندال وتخريبهم ، ولو أن الوندال حصنوا مدينة سوتا (٢) ؛ بمعنى آخر ، بقيت ولاية طنجة جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، خلال السيادة الوندالية على شمالي أفريقية (٣) .

وكانت ولاية موريتانيا (مرطانية) تشغل نحو ثلاثة أرباع مساحة الجزائر الحالية (٤) ، ورغم وجود مزارع القمح الكبيرة بها ، في السهول الواقعة بين الجبال وشاطئ البحر الأبيض ، إلا أنها خلت من المدن الكبيرة الهامة ، باستثناء المدينة التجارية الكبرى « قيصرية » . صارت موريتانيا فيما بعد جزءاً من مملكة الوندال (٥) .

أما ولاية طرابلس *Tripolitana* ، الواقعة في أقصى الجانب الشرقي من أفريقية الرومانية ، فيرجع تسميتها بهذا الاسم (طرابلس) إلى الثلاث مدن الرئيسية وهي : لبتس الكبرى *Leptis Magna* — وهي لبدة الحالية — وأوثيا *Oea* — وهي مدينة طرابلس الحالية — وسبراتا *Sabrata* — صبره المعاصرة — وكلمة طرابلس معناها الثلاث مدن ؛ ويسمياها العرب « أطرابلس » (٦) . ومركز هذه الولاية مدينة طرابلس ، واشتهرت في القرن الثالث الميلادي لأنها

Bury, J. op. cit., P. 89.

(١)

(٢) أنظر ما يلي والخريطة رقم ٣ .

Hodgkin, op. cit., P. 233.

(٣)

Lot, Les Invasions, G. 45 ; Hodgkin, P. 234.

(٤)

(٥) أنظر ما يلي والخريطة رقم ٣ .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٦٦ .

كانت من المراكز المسيحية الهامة ، وقد منحها دقلديانوس لقب «ولاية» وليس لولاية طرابلس أهمية في نظر المؤرخ الروماني سوى أنها كانت مسقط رأس أحد أباطرتها ، وهو الإمبراطور س. ساويرس Septimus Severus (١٩٣ — ٢١١ م) ، فهو من مواليد مدينة لبدة ، ومن أصل بربري وروماني^(١) .

والمعروف أن الرومان كثروا وازدهروا في ولاية أفريقية الأصلية : Africa Vetus ، وكذلك في جارتها بيزا كينا ، فضلاً عن نوميديا التي عرفت كذلك باسم «أفريقية الجديدة» منذ زمن قيصر (ت ٤٤ ق.م) ، فهذه المنطقة الوسطى من شمالي أفريقية الروماني ، تكون قلب الأملاك الرومانية وأهمها وذلك قامت معظم المدن الرومانية العامرة فيها^(٢) ، وتتميز بالخصب والثراء عما سواها ، ولا سيما ولاية أفريقية ، وهي الولاية التي تعد أغنى بقعة في شمالي أفريقية وبالتالي أكثرها ازدهاراً^(٣) . فضلاً عن شهرتها في إنتاج القمح ، فهي مشهورة كذلك بزراعة الفواكه ، يقول الشاعر هوراس Horas (٦٥ — ٢٧ ق.م) . في إحدى أناشيده متغنياً بخصبها^(٤) : “Imperio Fertilis Africae” . ورغم أن نبيذ أفريقية دون نبيذ أسبانيا وإيطاليا ، إلا أنها غنية في محصول القمح ، وأسهمت مع مصر وصقلية في إمداد روما (ومن بعدها القسطنطينية) بالقمح ، بل إنها تعتبر الولاية الهامة الثانية بعد مصر في القارة السوداء ، من حيث كونها مخزن القمح للرومان^(٥) ؛ وتتميز بالنشاط

(١) ولد الإمبراطور ساويرس عام ١٤٦ ، وفي عهده بلغت أفريقية الرومانية ذروة حضارتها وتطورها .

أنظر : Soames, Roman Africa (Lond., 1902), PP. 196-208 ; الزوارى ص ٣٤ .

(٢) Fage, op. cit., PP. 6-7.

(٣) Pirenne, H., A Hist. of Europe from the Invasion to the 16th century, P. 34 ; Thomson, op. cit., P. 250.

(٤) الشاعر كوينتوس صورافيوس فلاكوس من شعراء عصر اغسطس .

Quintus Horatius Flaccus وأنظر : Bury, op. cit., p. 92

(٥) Salmon, op. cit., P. 106.

والحركة ، وفيها إلى الآن ، بقايا دور التمثيل والحمامات وأقواس النصر ، وقد جعلت هذه الولاية « سناتوروية » مسلحة ، أى يترك أمر الرقابة عليها إلى السناتور الرومانى (١) .

أقام الرومان حضارتهم فى شمالى أفريقيا على أسس فينيقية ، أى على أسس سامية ، إذ كانت صبغة هذه المنطقة القديمة فينيقية إغريقية ، مع غلبة العنصر الفينيقى ، وذلك على عكس جزيرة صقلية التى كانت ذات صبغة إغريقية فينيقية مع بروز العنصر الإغريقى فيها ، لذلك أرست روما حضارتها وتقاليدها على قواعد فينيقية ، فأبقت على الدساتير الفينيقية فى المدن ، كما أبقت على نظام المقاطعات cantons فى غالة (فرنسا الحديثة ؛ وهناك تشابه وتقارب بين هذه النظم سواء فى أفريقية أم فى غالة ، وبين ما هو كائن فى إيطاليا ، بحيث كان النقل ميسوراً وسريعاً (٢) .

ولذلك نجد أن مدينة قرطاجنة ، وهى التى قضت عليها السياسة القصيرة

(٥) يلقب حاكم الولاية السناتوروية بلقب « برو قنصل Pro-Consul أى ونائب القنصل » ويبقى عادة فى منصبه مدة سنة واحدة ، ولكن أصبح من الممكن بعد عهد أغسطس (ت ٤ م) أن يظل الحاكم لمدة ست سنوات . غير أن أفريقية وآسيا ، من بين الولايات السناتوروية ، كان الحاكم فيها يلقب « بالقنصل السابق » « ex-consul » ، ويظل الواحد منهم فى منصبه سنتين أو أكثر من سنتين فى بعض الأحيان . ومن الشروط الواجب توافرها فى من يلى حكم هذه الولاية ، ألا يعين إلا بعد مضى عشر سنوات على القنصل بعد انتهائه من وظيفة القنصلية ، أما حكام الولايات السناتوروية الأخرى ، فيلقب الواحد منهم بكلمة « البريتور السابق » « ex-Practor » ولا يعين فى منصبه بهذه الولايات إلا بعد مضى خمس سنوات على تركه الوظيفة البريتورية . والولايات السناتوروية عند وفاة أغسطس هى : أفريقية Africa ، Cyrene ، أكايا Achaea ، ومقدونيا (أكايا ومقدونيا ولايات إمبراطورية فى الفترة ما بين ١٥ إلى ٤٤ م) ، بايتيكا Bactica (الأندلس) ناربوننس Narbonensis ، وذلك فى الفترة ما بين ٢٢ ق م ؛ غالة البعيدة Gallia Narbonensis ، وآسيا Asia : بثينيا Bithynia التى أصبحت ولاية إمبراطورية زمن تراجان المتوفى عام ١١٧ م ؛ وقبرص وكريت ، وصقلية :

Chapot, V., Le Monde Roman, PP. 436-467 ; Salmon, op. cit., PP. 76-77)

Bury, op. cit., P. 91.

(٢)

النظر للسناتور الجمهوري^(١) ، قد أعيدت لها أهميتها وازدهارها في عهد الإمبراطورية منذ قيصر ، حتى صارت عاصمة أفريقية الرومانية ، كما كانت من قبل عاصمة أفريقية الفينيقية ، بل غدت أعظم وأثرى المدن في غرب أوروبا . ومن أجل عظمتها ورخائها وراثتها ، عرفت بإسم « قرطاجنة السعيدة Felix Kartago » ، ويقال إن هذه العبارة كانت تنقش على العملة الإمبراطورية ، وإلى جنوبها ميناؤها الشهيرة كوثنون Cothon الذي فتح للتجارة العالمية ، وبها الحمامات والسوق والمسرح ، وكل مظاهر المدينة الرومانية .

وفي قرطاجنة خمسة معابد فينيقية قديمة ، وهي لآلهة أسيوية ، وقد حوت هذه المعابد للآلهة الرومانية ، زمن الإمبراطورية ، وهي الإله أيسكولابيوس Aesculapius إله الطب ، وزحل Saturn إله الزراعة وأبو المشتري ، والآلهة يونو Juno زوجة جوبيتر وملكة السماء وراعية الزواج في الأساطير الرومانية ، وهرقل ، وعطارد Mercury رسول الآلهة وإله التجارة والكسب والفصاحة والبلاغة ؛ ونظراً لجمال معبد الآلهة الأخير ، عرفت قرطاجنة في القرن السادس الميلادي ، « بإسم مدينة عطارد » ، كما عرف لسانها الممتد داخل البحر بإسم « رأس عطارد^(٢) » . وربما دمر بعض المعابد الفينيقية القديمة خلال حماس المسيحية في القرن الرابع الميلادي^(٣) .

ومن المدن الشهيرة في ولاية أفريقية ، أوتيكا Utica ، وهي منافسة قديمة لمدينة قرطاجنة ، ظلت تحسدها وتمجد عليها ولا سيما عندما أعيدت إليها شهرتها ومكانتها التاريخية ؛ كذلك اشتهرت مدينة كيرتا Crita في نوميديا وتقع على نهر

Gsell, S., T. III, PP. 336-407. (١)

Gsell, op. cit., I. II, PP. 1-37, 93-112 ; Deanesly, op. cit., P. 75 ; (٢)
Bury, op. cit., P. 91.

Davis, N., Carthage & her Remains (Lond., 1861), PP. 1-2, 35 ; (٣)
Hodgkin, op. cit. 239-240.

امبساجا ، وهي المعروفة حالياً باسم « قسطنطينية »^(١) وفي موريتانيا ، تجدد من المدن الشهيرة كلوبيا Clupea وهيبيودياركيتوس Hippo Diarrkytos^(٢) .

ولما كانت موريتانيا متخلفة في الأخذ بأهداب الحضارة الرومانية، فقد بذلت جهوداً كبيرة ، من لدن أغسطس ، من أجل بناء المدن الرومانية على الساحل ، لتكون مراكز لنشر الحضارة الرومانية .

وبجانب المدن الفينيقية العريقة ، والمدن التي بنيت على النسق الروماني ، هناك مدن وطنية بربرية ، تخضع مباشرة لسلطة الحاكم الروماني العام ، وأحياناً يعين لها حكام رومانيون محليون^(٣) ، على أن هناك عدداً كبيراً من القبائل البربرية الوطنية . تخضع لرؤسائها (reguli) الوطنيين ، ولكن تحت إشراف الحكام الرومان ، وقد عد منها بلييني Pliny نحو ست وعشرين قبيلة ، على حين ذكر بطليموس نحو تسع وثلاثين منها^(٤) . والواقع أن القبائل البربرية كانت منقسمة متناحرة ، لكنها تتحد أحياناً ضد العدو الأجنبي ، فيما يشبه كونفدرالية مفككة Loose Confederation ، ولذلك لم ينجحوا في إقامة دولة ثابتة قوية ، رغم أن البربر يشتهرون في التاريخ بأثمهم جنس محارب ، وأنهم لم يخضعوا لأي فاتح خضوعاً تاماً ، فكان الولد منهم إذا بلغ السادسة عشرة من عمره ، سمح له بحمل السلاح ويظل كذلك حتى سن الستين .

وحدث خلال فجر الفتوح الرومانية في شمالي إفريقيا ، وخلال الصراع بين روما وقرطاجنه ، أن تكونت مملكة نوميديا البربرية بمساعدة الرومان ، وشملت قبائل البربر المنتشرين من نهر مولويا Muluya غرباً إلى خلجان سريتس Syrtis

(١) أنظر الخريطة .

Bury, op. cit., P. 91.

(٢)

Bury, op. cit., P. 91.

(٣)

Thomson, op. cit., P. 256.

(٤)

شرقاً ، غير أن هذه المملكة اختفت عام ٤٦ ق . م . كذلك قامت مملكة موريتانيا البربرية زمن أغسطس (١٧ ق . م) كانت خاضعة لنفوذ الرومان ، ثم لم تلبث أن زالت وأصبحت موريتانيا ولاية رومانية في ٧ عام ٤٢ م (١) .

غير أن الحدود الجنوبية لأفريقية الرومانية ، ظلت مضطربة غير ثابتة ، نظراً لقيام ممالك وطنية أخرى بربرية ، وكانت هذه الممالك كثيرة الثورات والخروج على الاستعمار الروماني ، منذ فجر الأمبراطورية الرومانية .

من هذه الممالك : مملكة الجرامنتين ، وتقع جنوبي خليج طرابلس (سيريتس) فيما هو فزان (٢) . وربما كان هؤلاء الوطنيون هم الذين أشير إليهم في بعض الكتب العربية باسم « القرماطيين » الذين انتشروا في الصحراء حتى جنوبي فزان ، وكانوا يتعاملون بالملح (٣) . وهذه التسمية راجعة إلى مدينة « جرما » عاصمة فزان القديمة ، ويقول الأدريسى « ومدينة جرمة بأرض فزان ، وبينها وبين أودغشت نحو ٢٥ مرحلة » (٤) . ولم تزل آثار هذه المدينة باقية إلى اليوم ، وربما كانت النسبة كذلك إلى « جرمانة » وهي قبيلة بربرية من بني ماصلت من بطون لواته ، ثم دخلها شيء من التحريف (٥) . وهناك مملكة الجيتولين ، وتقع جنوبي غربي ولاية أفريقية ، ويعرف هذا القبيل من البربر بقوة المراس ، حتى أنهم لم يقهروا ، وقد صور الشاعر فرجيل P. Virgilius Maro (٧٠ - ١٩ ق . م) خطرهم بقوله :

“Hinc Gaetulae urbes, genus insuperable bello. Et Numediae infreni cingunt et inhospita Syrtis” (٦) .

Encycl. of Islam. Art. 'Berbers'.

(١)

Davidson, B., Old Africa Rediscovered, PP. 41, 73.

(٢)

(٣) البشارى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) :

كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٤٢ .

(٤) الأدريسى : نزهة المشتاق ص ٣٢ — ٣٥ .

(٥) الزاواوى : ص ٣٣ — ٣٤ ، ٧٥ .

Bury, P. 90.

(٦)

وكذلك قامت مملكة الترانستا جنسس *Transtagensis* ومملكة اللوزولاميين *Musulami* ، وتقع كلتاها جنوبي شرق ولاية أفريقية ، وامل هذا النفر الأخير هم الذين أشار إليهم اليعقوبي باسم « المصاليين » وهم فرع من البربر والأفارقة ، استقروا في طرابلس واشتهرت مملكتهم بكثرة الإغارة على أملاك الرومان ، وكانت دائمة الحركة والنقلة بحثاً عن المرعى والغنم ، ولذا كانت أكثر من غيرها إقلاقاً للرومان ، حتى سلك الرومان نحوها مسالك مختلفة ، من ذلك أنهم جندوا عدداً كبيراً من أبنائها في الفرق الاحتياطية للامدادات (١) .

كان على الرومان أن يعملوا على حماية أملاكهم دائماً من خطر هذه الممالك الوطنية المتاخمة لهم ، وهذا ما حملهم على تسليح ولاية أفريقية السناتورية تسليحاً كافياً ، وركزوا فيها معظم الحاميات الرومانية (٢) . وكانت مهمة الدفاع شاقة عسيرة ، نظراً لوعورة المواصلات البرية بين الأملاك الرومانية في شمالي أفريقية ، وتكاد الحرب بين الرومان والبربر تكون سجلاً ، منذ فجر سيطرتهم على الساحل .

من هذه الحروب ، ماشنه القائد الروماني بالبوس *L. Corn. Balbus* عام ١٩ ق . م ضد الجرامنتيين في طرابلس ، وكللت حملته بالنجاح (٣) . وتلك الحملة التي قادها سلبكيوس كويرنيوس *P. Sulpicius Quirinius* ضد قبائل المارمرية *Marmaride* في برقة قبل عام ١٢ ق . م (٤) . كذلك شن القائد لنتولس *C.C. Lentulus* حرباً ضد قبائل الجيتوليين عام ٥٥ م ؛ ومنذ عام ٦٦ م ، شرعت إدارة أفريقية الرومانية ببعض الأمن والهدوء ، حتى اكتفى الرومان بوضع

Salmon, P. 106 ; Encyl. of Islam, A. 'Berbers'

(١)

Lot, Les Invasions, PP. 45-46 ; Salmon, P. 112.

(٢)

Bury, P. 90.

(٣)

Salmon, P. 106.

(٤)

فرقة حزبية واحدة في ولاية أفريقية ، وعرفت هذه الفرقة باسم ؛ أوغسطا الثالثة ؛ ورغم هذا لم تنقطع الغزوات البربرية (١) .

ولم يكف زعماء البربر الوطنيون عن مهاجمة الرومان ، حتى لاحت الفرصة ، فتكررت ثوراتهم وهجراتهم زمن الأباطرة دوميتيان Domitian (٨١ - ٩٦ م) وهادريان (١٧ - ٣٩) وكومودوس (٦١ - ١٩٢ م) . ولما ضعف سلطان روما قرب نهاية القرن الثالث الميلادي ، ازدادت ثورات البربر كثرة وعنفاً ، واشهر إثنان من زعمائهم بكثرة تحديهما للاستعمار الروماني وهما : فرماس Firmas ، وذلك في الفترة الواقعة بين ٣٧٢ م ، ٣٧٤ م ، والثاني جلدون Gildon (٣٩٨ م) ، وكان عدااء البربر للرومان من العوامل التي ساعدت الوندال على انتزاع شمالي أفريقية من السيطرة الرومانية في القرن الخامس الميلادي (٢) .

وكان بجانب البربر والمستوطنين الرومان ، في شمالي أفريقية ، نفر كبير عرف باسم « الأفارقة » وهؤلاء خليط من الأجانب اللاتين المستوطنين الذين طال مكثهم بالبلاد ، حتى أصبحوا أفريقيين ، وبقايا الشعب القرطاجني القديم ومزارعي البيزنطيين وصناعهم ، بالإضافة إلى نفر من البربر ممن استقر ودخل في طاعة الرومان والبيزنطيين (٣) .

وخلال سيطرة الرومان على شمالي أفريقية ، أخذت الحضارة الرومانية واللغة اللاتينية تنتشر تدريجياً إذا كانت لغة البربر الوطنية لاتزال قائمة في المناطق المتطرفة ، والتي لم تصل إليها السيادة الرومانية ، كما أن اللغة الفينيقية هي التي كانت منتشرة

(١) Salmon, PP. 106, 130 ; Ch.-André, PP. 138-142, 193-212.

(٢) Basset, op. cit..

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩١ - ٩٢ ؛ مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٤ - ٥ ، وله كذلك : ثورات البربر في أفريقية والأندلس (بحث نشر بمجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - المجلد العاشر - الجزء الأول - مايو ١٩٤٨) ص ١٤٣ - ٢٠٦ .

على طول الساحل ، فإن الرومان وقفوا من هذه اللغات الوطنية موقفهم التقليدي نحو اللغات المحلية ، كما فعلوا بالنسبة للغة الأيبيرية في أسبانيا ، واللغة السكتية في الغال ، أى تركوا هذه اللغات وشأنها ، ولكنهم اعتمدوا على اللغة الفينيقية كلغة للتفاهم والاتصال في أفريقية الرومانية ، نظراً لانتشار هذه اللغة على طول الساحل من طرابلس شرقاً إلى طنجة غرباً ، وظلت اللغة الفينيقية هي المستعملة حتى ظهور المسيحية ، بل امتدت إلى القرن الأول الميلادى حتى زمن الإمبراطور بتيريوس (١٤ — ٣٧ م) ، وليس هناك ما يشير إلى بقاء استخدام اللغة الفينيقية رسمياً بعد عهد بتيريوس (١) .

ولما رفضت روما الاعتراف باللغة الفينيقية كلغة رسمية للتخاطب بين الحكومة والرايا ، على عكس موقفها من اللغة الإغريقية التي اعترفت بها لغة رسمية في الولايات الشرقية من الإمبراطورية ، وقررت أن أفريقية وصقلية تابعتان للغرب اللاتينى اضطر الوطنيون في شمالي أفريقية إلى تعلم اللغة اللاتينية واستخدامها في أعمالهم الرسمية مع الحكومة ، على حين ظلوا يستخدمون الفينيقية في معاملاتهم الداخلية المحلية ، وهكذا أخذت اللغة اللاتينية تحمل تدريجياً محل اللغة الفينيقية ، أولاً في الحياة الرسمية ، ثم في الحياة الاجتماعية ؛ وفي نهاية القرن الرابع الميلادى صار الوضع النسبى لهاتين اللغتين ، يشبه وضع اللغة الإنجليزية بجانب اللغة الولشية Welsh ولكن تحتم على رجال الدين في أفريقية أن يجيدوا اللغة الفينيقية ، على الأقل في المناطق الريفية التي قد يمينون للعمل فيها (٢) .

وليس من شك في أنه خلال القرن الخامس الميلادى كانت اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية تضرب جذورها بعمق في التربة الأفريقية . ومن المعروف في تاريخ الكنيسة ، أنه خلال العصور الأولى للمسيحية ، برز زعماء روحانيون من أهل الولاية الأفريقية ، وصاروا أئمة في اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية فضلاً

Hodgkin, op. cit., P. 238.

Ibid.

(١)

(٢)

عن الثقافة الدينية ، بل هناك مشرعون أفريقيون أمثال سالفوس يوليانوس .
Salvius Julianus — جسد الإمبراطور ديدوس سالفوس يوليانوس
D.S. Julianus الذي جاء فيما بعد (ولد حوالي ١٣٣ م وتوفي ١٩٣ م) — ؛
وقد اختار الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٩ م) ، هذا المشرع الأفريقي ،
لجمع القانون وتبويبه ، فأبجز عمله في عام ١٢٩ (١) م . ومن أعلام زعماء الكنيسة
الأفريقيين من اللاتين : ترتوليان (١٥٠ — ١٢٢ م) Quintus Septenus
Tertulianus أعظم كتاب الكنيسة القدماء ، لكنه في المنزلة الثانية بعد
القديس أوغسطين ، وكبيران Caecilius Cyprian القرطاجني ، وهو الذي
تولى أسقفية قرطاجنة في الفترة ما بين ٢٤٨ و ٢٥٨ م واشتغل أستاذاً للبلاغة
من قبل (٢) وهناك أستاذ البلاغة الآخر أرنوبيوس النوميدي Arnobius ،
اشتهر عام ٣٠٠ م . كذلك لأكتانتوس Lactantius Firmianus ،
(٢٦٠ — ٣٤٠) وهو من كتاب الكنيسة القدماء ، وأطلق عليه المعاصرون
لقب « شيشرون المسيحي » وتنتهي قائمة هؤلاء العظماء الإفريقيين ، بالشخصيتين
البارزتين هما : مارتينوس كابلا M. Capella والقديس أورليوس أوغسطين
St. Aurelius Augustinus ؛ وربما كان الأخير أعظم شخصية مسيحية
أنجبتها أفريقية في فجر العصور الوسطى (٣) .

ألف مارتينوس رسالة في علم اللغات ، في الفترة ما بين استيلاء الأريك
القوطي على روما (٤١٠) وبين فتح جزيرك الوندالي أفريقية (٤٢٩) ،
ويحتمل أن هذه الرسالة هي التي حددت عدد الفنون الحرة بسبعة وهي : النحو
والمنطق والبلاغة والهندسة والحساب والفلك والموسيقى (٤) .

Salmon, P. 310.

(١)

Bury, P. 91 ; Deanesly, P. 75.

(٢)

Rand, E.K., Founders of the Middle Ages, (New York, 1957), PP. 251-266 ; Hodgkin, PP. 338-339.

(٣)

Deanesly, P. 86 ; Deanesly, PP. 86-87.

(٤)

أما أوغسطين الهيباوى (٣٥٤ — ٤٣٠ م) ، فقد درس في أفريقة النحو والأدب اللاتينى وكذلك البلاغة ، واشتغل أستاذا للبلاغة في ميلان ، حيث تأثر بالأسقف العظيم أمبروز Ambrose ، صاحب الموقف الشهير مع الأباطور تيودسيوس الكبير ، كما تأثر بالأفلاطونية الحديثة Neoplatonism ، وسمع لأول وهلة ، وهو في ميلان ، بحياة النساك التي يحياها الرهبان المصريون ، ولاسيما الراهب أنطون ، واضع أسس الرهبانية الانعزالية ؛ ومن ثم ، عزم على العودة إلى أفريقية ليقم نوعا من الحياة الرهبانية الاجتماعية ، ونفذ مشروعه عام ٣٨٨ م ، وعين قسيسا في كتدرائية هيبورجيوس ، وولى أسقفيتها عام ٣٩٦ م على أثر وفاة أسقفها السابق فالريوس Valerius ، وظل على ذلك حتى توفي خلال حصار الوندال لمدينته عام ٤٣٠ م . وكان أوغسطين يعرف الفينيقية ، وهو الذى أصر على أن يلم القسس بهذه اللغة ، وكان مثالا للحياة النقية الطاهرة تشبها بالحواريين ، وأمد الكنائس الأخرى برجال الدين الذين درّبهم وعلمهم ، فعاش هؤلاء في كنائسهم الجديدة على طريقته . ووضع قواعد regula في أصول الديرية ، كما وضع قواعد لأصول حياة الراهبات 'regula Sororum' ، وكانت أخته رئيسة لجماعة مشابهة من النساء الناسكات ، ولما جاء الوندال قضوا على هذا النظام في أفريقية ، فانتقل إلى أوربا مع تعديل يقتضيه جو أوربا ، كزيادة وجبتى الطعام اليومية اللتين كانتا تكفيان الراهب في اليوم ، ولكنهما لم تعود تكفيان في جو أوربا .

ثم إن الكثير من الحركات الديرية مثل البريمونسترانية Praemon-stratensian والداوية Tempeliers والدومينيكانية ، قد أخذت أصولها من قاعدة أوغسطين ، ولهذا أثره في مدينة العصور الوسطى ، لأن الأديرة كانت تضم مدارس للتعليم ، وأدت ما نسميه اليوم بالخدمات الاجتماعية من تريض ورعاية الطفولة والعواجز ، ونحو ذلك . ولذلك إدا عهد القديس بندكت أبا الديرية الغربية ، فإن القديس أوغسطين يمد أبا للحياة الدينية المستقيمة لرجال الدين .

وأما كتابه عن « مدينة الله » De Civitate Dei ، فهو يساعد على تصوير جو التفكير الأوربي خلال العصور الوسطى ، ويتكون من ٢٢ جزءاً ، كتب في الفترة ما بين ٤١٣ و ٤٢٦ م ، وطبع كل جزء على حدة ، ورد فيه أوغسطين على ما شاع في أوربا يومئذ بأن سقوط روما على يد الأريك (٤١٠) دليل على غضب الله ، وأن ذلك منذر بانتهاء العالم ، وفي نظر الوثنيين كان ذلك إشارة لانتقام الآلهة الوثنية القديمة بسبب اعتناق الأباطرة للديانة المسيحية ، وكان الإمبراطور يوليان الصابيء قد مات قبل أن يبدأ أوغسطين في تأليف رسالته بأربعين سنة ، وظل أهل الريف يعتقدون في قيمة الطقوس الوثنية القديمة .

أراد أوغسطين أن يوضح في رسالته أمرين : أولهما أن الآلهة الوثنية لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولا دخل لها في الخير أو الشر أو العدالة ، وأن الإمبراطورية الوثنية لا تفلح إذا افتقرت إلى العدالة ، والثاني أن روما مدينة أرضية : 'Civitas terrena' ، وهي زائلة ؛ ولكن مدينة الله C. Dei فهي خالدة باقية (١) .

وهكذا أنجبت أفريقية أعلاما في معظم الميادين ، نظراً لأن التربة الأفريقية صالحة للبذر والبناء ، بحيث أن الرومان لم يفعلوا أكثر من أنهم فرضوا إسمهم ولغتهم على ما هو قائم فعلاً ، كما يقول العالم الجرمانى مومن Mommsen (٢) . والواقع أن الحضارة الرومانية في أفريقية ، قد بنيت على تراث الحضارة الفينيقية القديمة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وإلى الأفريقيين كذلك ، يرجع الفضل في إخراج الجزء الأكبر من الترجمة اللاتينية الأولى للإنجيل ، وهي المعروفة باسم إيتالا Italia ؛ ولقد ظل قادة الفكر

(١) Courcelle, P., Histoire Litteraire des Grandes Invasions Germaniques, (Paris, 1948), PP. 49-55 ; Soannes, op. cit., PP. 46-64 ; Ch.-Andre, op. cit, PP. 219-230 ; Rand, E.K., op. cit.° PP. 251-271.

مشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى (القسم الأول ترجمة زيادة والعريفي) ص ٢٤ (٢)
Hodgkin, op. cit., PP. 235-236.

في القسطنطينية يعتقدون ، حتى بعد غزو الوندال بقرن من الزمان ، أن أهل الولايات الرومانية في أفريقية ، يتكلمون اللغة اللاتينية بطلاقة أكثر من سكان روما نفسها ؛ وظلت البلاغة اللاتينية تدرس على نطاق واسع في ولايات أفريقية ، مما يدل على مدى تقدم الحضارة الرومانية فيها ، ومع ذلك لم يبرز شاعر يشار إليه بالبنان في ميدان الإنتاج اللاتيني الأفريقي ، في رأي المؤرخ مسمن (١) .

*

على أن أحوال أفريقية الرومانية الاقتصادية قد ساءت خلال القرن الرابع الميلادي ، نتيجة لكثرة المصادرات التي توالى منذ القرن الأول الميلادي ، ولا سيما زمن فيرون (٥٤ — ٦٨ م) ، وزمن هونوريوس (٣٩٥ — ٤٢٣ م) ، وكثرة تكوين الضياع الأمبراطورية Latifundia ؛ واقترن قيام هذه الضياع بعملية تحويل الفلاحين إلى أرقاء زراعيين للعمل فيها ، تحت إشراف موظفين في غاية القسوة والعسف ؛ كذلك أضحت نظام الضرائب قاسياً لا يحتمل (٢) .

ومن الناحية الدينية ، اشتهرت البيئة الأفريقية بكثرة الآراء اللاهوتية ، والتعصب المذهبي ، وساد في أفريقية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، مذهب « الدوناتية » Donatism ؛ ظهر هذا المذهب في مطلع القرن الرابع للميلادي واستمر لمدة تربو على قرن من الزمان ، رغم ما تعرض له أصحابه من ألوان الاضطهاد والمطاردة ، وانتشر في نوميديا وموريتانيا ، أكثر من غيرها من أملاك الرومان .

قام مذهب الدوناتية ، أصلاً ، نتيجة لجدل محلي حول تعيين أحد الأساقفة في منصبه ، وعماً إذا كان جديراً بمنصبه أم لا ؛ ثم تطور الجدل فتناول بعض

Ibid, P. 239.
Salmon, op. cit., P. 309 ; Ch.-André, PP. 148-166, 193 ; Hodgkin, PP. (١)
236-237. (٢)

المسائل المتعلقة بطبيعة الكنيسة ووظائفها الأصلية . اختلف الرأي اصداد رسم الأسقف كايكيليان Caecilian في أسقفية قرطاجنة عام ٣١١ م ، فقد رسمه فيليكس Felix أسقف ايتونجا Aptunga دون انتخاب عام . احتج أساقفة نوميديا على طريقة التعيين فضلاً عن عدم لياقة كايكيليان لمنصبه ، ويضاف إلى ذلك أن كايكيليان متهم بالخيانة تزعم حركة المعارضة سكيندوس Secundus رئيس أساقفة نوميديا ، وقام على رأس ٧٠ أسقفًا وتوجه إلى قرطاجنة وعزل كايكيليان وحرمه من الكنيسة وعين بدلاً منه ، فانقسمت الكنيسة في شمالي أفريقيا إلى حزبين متناحرين ، وطلب كل حزب تدخل الأباطور قسطنطين الأكبر ، وتجاهلوا المبدأ القائل بعدم تدخل الأباطور في شئون الكنيسة : 'Quid Imperatori cum Ecclesia' ، فأمر قسطنطين بعقد مجمع ديني ، أقر صحة تعيين كايكيليان ، وأدان المعارضين ولا سيما زعيمهم الذي اشتهر في ذلك الوقت وهو مايورينوس Majorinus ، الذي دفعته حماسته وتمصبه إلى إعادة تعميد المسيحيين وإعادة رسم الأساقفة الذين ناصروا خصومهم أولاً . ثم جاء في زعامة المعارضين شخصية قوية ، هي شخصية دوناتوس العظيم : Donatus Magnus ، ويحتمل أن اسمه هو الذي أطلق على هذه الجماعة ؛ أصدر الأباطور قسطنطين قراراً بحرمان الدوناتيين من الكنيسة إذا لم يعدلوا عن آرائهم ، واستهدفوا بعد ذلك إلى الاضطهاد (١) .

والملاحظ أن مذهب الدوناتية ، ليس هرطقة أو بدعة ، ولم يؤد إلى قيام تعاليم جديدة ، أو نزاع حول العقيدة ، ولكنه حركة لمقاومة التطور العلماني الذي كانت تسير فيه الكنيسة ، مما يؤدي إلى تحويلها من مجتمع لأشخاص مقدسين إلى مجتمع لطائفة مضطربة مختلفة إلا أنهم كانوا ينكرون صحة التعميد إذا تم على يد قسيس ارتكب خطيئته من قبل (٢) وكان الدوناتيون أكثرية في مدينة

(١) Encyclopedia of Religion & Ethics Art. "Donatists".
(٢) Villari, P. The Barbarian Invasion of Italy (Lond., 1902), PP. 93-95.
فشر (نفسه) ص ٩ حاشية (١) .

هيبو حتى أنهم قطعوا الخبز عن الكاثوليك ، ولم يضعفهم سوى مقاومة الدولة لهم ومناقشات القديس أوغسطين المفحمة . وزاد في إضعافهم ما فعلوه في عام ٣٩٠ م عندما عقدوا مجمعا دينيا قرروا فيه إعدام العالم النحوي الشهير تيكونيوس Tychonius لأنه اعترف بوجود قديسين بين الكاثوليك ، أدى هذا الحادث إلى وقوع انقسام بين صفوفهم . وفي عام ٤١١ م عقد القديس أوغسطين مجلسا للمناظرة بين الكاثوليك والدوناتيين ، حضره ٢٨٦ أسقفا من الكاثوليك ، ٢٧٩ أسقفا من الدوناتيين ، لكن المحاولة لم تحسم الخلاف .

صدرت تشريعات إمبراطورية لاضطهاد الدوناتيين عام ٤١٥ م زمن الإمبراطور هوزيوس ، حرمت عليهم عقد الاجتماعات ، وتضمنت مجموعة قوانين تيودسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) تشريعات ضدهم فحددت المادة ٥٤ الغرامات التي يدفعها للتهمة بالدوناتية ، وتدرجت هذه الغرامات من مبلغ يعادل ٨٠٠٠ جنيه استرليني إلى ٢٥ جنيتها وذلك بحسب مركز التهمة الاجتماعي ؛ كذلك حرم عليهم بيع وشراء وتوريث العقارات ، ودخول الأماكن العامة ، ومصادرة كنائسهم وأعضاؤها الكاثوليك (١) .

وهكذا كانت الكراهية على أشدها بين صفوف المسيحيين الرومان في أفريقية الرومانية عند دخول الوندال ، مما سهل مشروع الوندال الأفريقي .

الوندال فريق من الجرمان الشرقيين الذين أقاموا بصفة عامة خلال القرن الثاني الميلادي ، شرق نهر الألب ، Albis ، وانتشروا في المنطقة الفسيحة بين نهري الألب والقسستولا وبين البحر البلطى والبحر الأسود .

(١) Encycl. of Rel. & Ethics, Art. "Donatists"; Hodgkin, PP. 267-8;

بيتز : الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة مؤنس وزميله) ص ١٠٦
C. Med H^o (Sh.), I, PP. 14-30; Ch.-André, PP. 213-18;

والمعروف منذ القرن الرابع الميلادي أن الجرمان عامة انقسموا إلى ثلاثة أقسام كبرى هي: الشرقيون والغربيون والإسكندناويون؛ وعلى حين بقي الإسكندناويون في بلادهم الشمالية، حيث تفرعت عنهم الأمم الحالية في السويد والنرويج والدانمارك، ارتحل أشقاؤهم من الشرقيين والغربيين، وزحفوا على أوروبا، حيث تكونت منهم الدول الأوربية الحديثة (١).

واشتهر الشرقيون بصفة خاصة، بكثرة استعدادهم عن غيرهم للنقلة وتغيير مساكنهم بحثاً عن أراضى أغنى وأخصب، وهم الذين حطموا الإمبراطورية الرومانية الغربية، قرب نهاية القرن الخامس الميلادي (٢).

ويدعى الوندال، كغيرهم من الشعوب القديمة، أنهم ينتسبون إلى أصول مقدسة، وجددهم الإلهى هو الإله هرمينو Hermino ابن الإله مانوس ; Manus ابن الإله تويستو Twisto (٣). وكتب مؤرخو اللاتين اسم الوندال بأشكال مختلفة منها : Vandili — Vandilü — Vanduli — Vandali أما مؤرخوا الأغريق فقد أشاروا إليهم بلفظتي : Bandiloi, Bandeloi (٤). ويقال أن كلمة الوندال، مشتقة أصلاً من الفعل الألماني Wendeln بمعنى: يتجول

Barg, M. (C. Med. H.), Vol. I, PP. 183-185.

(١)

Hubert, H., Les Germains, PP. 15-32 ; Karsten, T.E., Les Anciens Germains, PP. 123-28 ; Lot, F., Les Invasions Germaniques, PP. 30-32 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 38-39 ;

فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور العريفي ١ ص ١٦ .

(٢) طرخان : نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب - ٤٧٦ م (بحث نشر بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة بالمدد التذكارى للمرحوم الأستاذ شفيق غربال - ١٩٦٢) ؛ Painter, S., History of the Middle Ages, PP. 18-20

(٣) تاكيتوس والشعوب الجرمانية (ترجمة وشرح الدكتور إبراهيم طرخان - مصر ١٩٥٩) ص ٤٨ ؛ Lot, op. cit., PP. 31-32.

Gautier, E.F., Gensrics ; Roi des Vannoles, P. 91.

(٤)

أو يرحد (١). وهم فرعان : الأسديون Asdingi والسيليون Silingae ؛
ويهمنا الفرع الأول بصفة خاصة ، لأنه الفرع الذي ينتمى إليه الملك جزريك ،
مؤسس دولة الوندال الجرمانية في شمالى أفريقية الرومانى ، كما أن القوم الذين
قادم جزريك واستقروهم المقام في شمالى أفريقية ، هم من الفرع الأسدى .
أما المجموعة السيلية فلم تر أفريقية ، وإلى هذه المجموعة الأخيرة ينتسب إقليم
سيليسيا ، لإقامتهم فيه فترة من الزمن ، ولعل هذا هو الأثر التاريخى الوحيد
الباقى لهذا الفرع ، وهناك من يقول أن سيليسيا مشتق من إسم العناصر الهيلية
أو الأيلسية Elysii or Helisii ولكن النسبة إلى الفرع السيامى أرجح (٢) .

على أن السيليين والأسديين (٣) ، لا يتميزون عن بعضهم البعض ، فسكلاهما
من الوندال ، وإنما هذه التسمية راجعة إلى اسم الأسرة الحاكمة التى اشتهرت فى كل
فرع ، وينتسب الملك جزريك إلى أسم الأسرة الأسدية ، كما انتسب ملوك القوط
الغربيين إلى الأسرة الباطية Balthings وملوك القوط الشرقيين إلى الأسرة
الأمالية Amalings وملوك الفرنجة الأوائل إلى ميروفنش Merovich ، ويقال
أن أسلاف الوندال القدماء هم الهاربون Harii أو الأريين Arii (٤) .

سكن الوندال بقرعهم ، أول الأمر ، فيما هو تقريباً براندنبرج وبومرانيا ، أى
فى الجزء الأوسط والشرقى من بروسيا ، وذلك زمن المؤرخ بلينى Pliny
(ت حوالى ١١٥ م) وللمؤرخ تاكيتوس Tacitus (ت حوالى ١٢٠ م) (٤) .

(١) Karsten, op. cit., PP. 217-18.

(٢) Thomson, op. cit., P. 246 ; Mattingly, H., Tacitus on Britain & Germany, P. 169.

(٣) إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربية - مصر ١٩٥٨ . ص ٦٤٤٣٦ ؛ تاكيتوس
والشعوب الجرمانية فقرة (٤٣) ص ٩٤ ، ص ١٥٤

Gautier, op. cit. P. 92 ;

(٤) راجع : تاكيتوس والشعوب الجرمانية فقرة « ٢ » ص ٤٨ ؛

Karsten, op. cit., P. 218 ;

وكانوا في أول عهدهم التاريخي حلفاء للقوط الذين دفعوهم من مواطنهم الأصلية حول البحر البلطى، كما يقول المؤرخ القوطى جوردين Jodranes (ت في القرن السادس الميلادى^(١)). وبدأت حركات الوندال الأسديين، نحو الجنوب خلال القرن الثانى الميلادى، وظهر خطرهم لأول مرة حوالى عام ١٦٧ م، إذ حدث فى ذلك العام، أن تحرك فرعان من القبائل الجرمانية هما: الماركومان والكوادى، ومعهما بعض القبائل الصغيرة من بينها الوندال^(٢). وصل الوندال إلى حدود بوهيميا، حيث تركوا اسمهم على الجبال التى تفصل بين سيليسيا وبوهيميا، ومن ثم عرفت باسم جبال الوندال Vandalici Mounes، وهى المعروفة حالياً باسم: Risen Gebirge^(٣)، ومعناها: الجبال الشاهقة. كان الوندال فى حركتهم هذه بقيادة زعيمين هما: أمبرى Ambri وأسى Assi، واشتبكوا فى معركة ضد جيرانهم اللومبارد، خرجوا منها مهزومين^(٤).

وكما ازداد ضعف الأباطورية الرومانية، كلما توغل الوندال جنوباً، فساروا نحو حوض الدانوب الأوسط، ضمن جموع الماركومان، ودفعوا أمامهم قبائل الإزايجيين Izayges البدو الذين اجتاحوا داكيا^(٥). وفى حوض الدانوب، انبرى الأباطور الفيلسوف ماركوس أورابوس M. Aurelius (١٦١ — ١٨٠ م) لحرب الوندال أولاً، وذلك عام ١٦٨^(٦)، وفى نهاية الحرب عقد مع فرع الأسديين منهم، هدنة، منحهم بمقتضاها سكناً فى إقليم داكيا Dacia؛ ويقال أن الوندال كانوا فى هذه الحركة الأخيرة بقيادة اثنين من

Hodgkin, op. cit., P. 214; (١)

Cary, M., A History of Rome Down to the Reigh of Constantine, P. 655. (٢)

Williams, H.S. (Edit.), The Historians History of the World, Vol. VI, P. 598. (٣)

Moss, H. St. L.B., The Birth of the Mid. Ages, PP. 47- 8; Hodgkin, op. cit., P. 214. (٤)

Cary' op. cit. P. 655. (٥)

Villari, op. cit., P. 69. (٦)

زعمائهم هما : راؤس Räus ورابتوس Rapetus . وظل الأمبراطور أورليوس يتردد على منطقة الدانوب حتى وفاته في قنذبونا (فيينا) في عام ١٨٠ م ؛ ولما خلفه ابنه كومودوس Commodo (١٨٠ — ١٩٢ م) ، عقد هدنة مع الماركومان ، وحرّم عليهم الاعتداء على الوندال ، الذين أضحوا في حماية الرومان (١) .

ظل الوندال هادئين لفترة من الزمن في مقامهم المعترف به في داكيا شمالي الدانوب ، حتى استطاع الأمبراطور كاراكالا Caracalla (١٨٦ — ٢١٧ م) أن يكتب إلى السناتو في إحدى رسائله عام ٢١٥ م ، بأنه نجح في التفرقة التامة بين الوندال والماركومان ، وهم الذين كانوا في حلف معاً ضد الرومان ؛ غير أن الوندال ، وقد دأبوا على النقلة وعدم الاستقرار في مكان معين ، استأنفوا حركاتهم وعبثهم بأراضي الأمبراطورية ، حتى اضطر الأمبراطور أورليان Aurelian (٢٧٠ — ٢٧٥ م) « معيد بناء الأمبراطورية » ، إلى حربهم وهزيمتهم في عام ٢٧١ م ؛ لا نعلم شيئاً عن الموقعة ، ولكن الذي نعلمه هو المفاوضات التي أعقبت الموقعة ، إذ أرسل الوندال سفراءهم لطلب الصلح من الرومان ، ووافق الأمبراطور ، بشرط أن يرسل الوندال رهائن من أشرف بيوتهم ، من أبناء ملوكهم ونبلائهم ؛ تم الصلح وعاد الوندال إلى الاستقرار في داكيا ، حيث أمدهم الأمبراطور أورليان بالموثن الكافية ؛ وحرص الوندال على تنفيذ شروط المعاهدة ، وبلغ من شدة حرصهم ، أن ملك الوندال أصدر أمراً بأعدام كل وندالي يقوم بالتخريب في أراضي الأمبراطورية ، وجاء ذلك الأمر على أثر قيام نحو خمسمائة من مخربي الوندال واجتياحهم لأقليم مؤيسيا (٢) .

Hodgkin, op. cit., PP. 214-15.

(١)

(٢) أنظر الخريطة

Souttar' R., A short Hist .of Mediaeval Peoples, P. 327.

كان من بين شروط هذه المعاهدة، أن يقدم الوندال إلى الرومان في كل سنة :
ألفين من فرسانهم جنوداً معاهدين Foederati ، Leati أي auxiliaries ،
وذلك للخدمة في الجيش الروماني ؛ أوفى الوندال بهذا الشرط ، بدليل أن
سجلات الجيش الروماني في مطلع القرن الخامس للميلادى ، أشارت إلى أن :
« الجناح الثامن الوندالى الذى يعمل في مصر » ، وهو يتكون من ستائة فارس :
“Sub dispositione viri spectabilis comitis rei militaris per
Aegyptum : Ala Octava Vandilorum Neae”.(١)

وهذا ما أتاح الفرصة أمام ستيليكو Stilicho الوندالى ، لأن يرقى إلى أعلى
المناصب الحربية في الإمبراطورية الرومانية الغربية ، بل إلى أن يتحكم فيها فترة
من الزمن (٢) .

وبعد ذلك بسنوات قليلة ، يبدو أن كان هناك قسم من الوندال السيليين
يتجول نحو الراين ، مع فريق من البرجنديين — الذين أشار إليهم المؤرخ بليسي
بأنهم فرع من الوندال — ، فتصدى لهم الإمبراطور بروبس Probus
(٢٧٦ — ٢٨٢ م) وأوقع بهم هزيمة كبرى ، أنجحت عن قتل الكثير وأسر
القليل ، وكان من بين الأسرى ايجيل Igil ، القائد الوندالى ، أرسل الإمبراطور
هؤلاء الأسرى جميعاً إلى بريطانيا في عام ٢٧٧ م ، ليقوموا فيها ، ويقال أن
الحصن الذى أقيم على تلال جوماجوج Gomagog بالقرب من كبردج ، بناه
أولئك الأسرى الوندال ، ولذا عرف باسمهم : Vandalbury (٣) .

وقرب نهاية حكم الإمبراطور قسطنطين الأكبر (٣١٣ — ٣٣٧ م) ، قامت
أزمة حول مصائر الوندال المقيمين في بعض أجزاء داكيا شمالي الدنواب ، ويجاورهم
من الغرب ماركومان بوهيميا ، ذلك أن نزاعاً شب بين القوط القاطنين شرقي

Hodgkin, op. cit.

(١)

Maritius, M. (C. Med. H.) Vol. I, P. 269.

(٢)

Stephenson, C., Mediaeval Europe, P. 51 ; Hodgkin, P. 217.

(٣)

الوندال ، وملك القوط يومئذ هو جبريك Geberic ، وبين الوندال ، وملسكهم المعاصر فيسومار Visumar ، انتهى ذلك الصراع بانتصار القوط وإبادة معظم الوندال وقتل ملكهم ، وذلك في الفترة ما بين ٣٣١ : ٣٣٧ م ، التمس الناجون من الوندال ، من الامبراطور قنسطنين ، أن يمنحهم موطناً جديداً داخل أراضي الأبراطورية ، وتعهدوا أن يكونوا رعاياه الأوفياء ، ويشبه هذا الموقف ، ما حدث للقوط يوم التمسوا مثل هذا الموطن خشية من بطش الهون فيما بعد (١) .

وافق الامبراطور قنسطنين ومنح الوندال وطناً في ولاية ، بانونيا Pannonia في وادي الدانوب ، وهي الحجر الحالية تقريباً (٢) ؛ وفي هذا الموطن الجديد ظل الوندال نحو سبعين سنة ، على طاعتهم للأمبراطورية الرومانية . وخلال هذه الفترة أخذ الوندال ببعض أهداب الحضارة الرومانية (٣) ، ومن غير شك اعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسي وكان جيرانهم القوط قد اعتنقوها بفضل المبشر القوطي أوليفلاس ، واستفاد الوندال من ترجمة أوليفلاس للإنجيل إلى اللغة القوطية ، حتى أنهم حملوا معهم هذه الترجمة عندما رحلوا بعد ذلك إلى أسبانيا (٤) .

ولما كانت الأمبراطورية الرومانية قد تدهورت زمن الامبراطور هونوريوس Honorius (٣٩٥ — ٤٢٣ م) ، وكان الهون Huns التتار ، قد غزوا ما هو الحجر الحالية ، قرر الوندال في عام ٤٠٦ م أن يبحثوا عن وطن جديد غير بانونيا (٥) ؛ فتحالفوا مع أشقائهم السيليين الذين كانوا يقيمون في ذلك الوقت مع البرجنديين في وادي نهر المين Maine ، وانضم إليهم السوييف الجرمان والألان

(١) دولة القوط الغربيين ص ٥١ ؛ وانفس المؤلف : القوط والإمبراطورية الرومانية حتى نهاية القرن الرابع الميلادي (المجلة التاريخية المصرية العدد السابع ١٩٥٨) - ص ٤٠ وما بعدها .

Souttar , op. cit., P. 327. (١)

Villari, op. cit., P. 96. (٢)

Gautier, op. cit., PP. 85-88 : Hist. History, P. 598. (٣)

Hodgkin, op. cit., PP. 217-218. (٤)

Lot, op. cit., P. 78. (٥)

Alani الأيرانيون ، وتحركت هذه الجموع نحو الشمال الغربي ، إلى الراين ، يريدون نهب غالة البلجيكية ؛ وفي ذلك الوقت كان ستيليكو الوندالي ، كبير مستشاري الأمبراطور هونوريوس ، قد اتهمه حساده ومناقسوه ، بأنه هو الذي دعا الوندال للهجوم على الأمبراطورية ، ويبدو أن هذه التهمة غير صحيحة (١) ، والأرجح أنه استعان بهم ضد الفرنجة في غالة (٢) .

ليست لدينا معلومات كافية عن القتال الذي شب بين الوندال وبين الفرنجة في غالة ، غير أنه عندما ظهر هؤلاء البرابرة على الشاطئ الأيمن للرين ، قرب مدينة ماينز في ديسمبر من ذلك العام ، لم يكن الرومان قوات كافية في شمالي غالة ، ولذلك عهد الرومان إلى أحلافهم المسيحيين المساهدين ، وهم مزيج من الفرنجة الجرمان ، بمحاربة الغزاة ، وانتهت الحرب بهزيمة الوندال (٣) ، وقتل ملكهم الأسدي جودجسكس Godigisclus أو Godegisel عام ٤٠٦ م وقتل معه نحو ألفين من رجاله ، ولم ينقذ الوندال من الإبادة سوى وصول أحلافهم من الآلان في الوقت اللائم . وهذا الملك القتييل هو أبو جزريك ، وكان لمصرعه على مشهد منه ، على يد الفرنجة ، أثره في الروح الإنتقامية التخريبية التي عرف بها جزريك بصفة خاصة (٤) .

عبر من نجا من الوندال نهر الراين ، ودخلوا غالة ، حيث ظلوا نحو ثلاث سنوات ينهبون في مدن الغال . وكان يلي أمر الوندال يومئذ الملك جونثريك Guntheric ابن القتييل وأخو جزريك ، قاد هذا الملك قومه وأحلافه من السويف والآلان ، في عام ٤٠٩ م ، وتحرك بهم نحو الجنوب ، بحثاً عن جو صحو

(١) Hist. History, op. cit., P. 598 ; Pienne, H., A History of Europe from the Invasions to the 16th century, (Lond.), 1936), P. 28.

(٢) Hodgkin, PP. 219-220.

(٣) Lot, op. cit., PP. 79-80.

(٤) Gautier, op. cit., PP. 99, 111.

شمس ، وهو الجو الذي طالما أغرى البرابرة ، وكان له أثر كبير في تحركاتهم .
ووصلت هذه الجموع إلى جبال البرانس وأخذت تقرع أبواب أسبانيا في الفترة
ما بين ٢٨ سبتمبر ، ١٣ أكتوبر من عام ٤٠٩م ، وبدا عجز القوات الإمبراطورية
الرومانية ، فلم تفلح في ردها أو مقاومتها (١) .

دخل الوندال وأحلافهم أسبانيا ، عن طريق بوردو إلى بامبلون (بنبلونه)
ثم تتبعوا الطريق الروماني الكبير إلى براجا (برغش) وليون وزامورة وسلامنكة
(طلمنكة) فماردة فأشبيلية (٢) . وقد تبع الوندال وأحلافهم ، إلى أسبانيا ،
برابرة آخرون ، هم القوط الغربيون ، بقيادة ملكهم آتولف ، وحاربوا الوندال
باسم الرومان ، ومن أجل مطامعهم الشخصية ، وهزموهم أكثر من مرة ، حتى
قيل : إن الوندال ليسوا محاربين من الدرجة الأولى (٣) . وأدى هذا الصراع إلى
تخريب الولايات الخصبية المثمرة ، مما أضر بالمنتصر والمهزوم على السواء ، بل لقد
بلغ الأمر بالجيش الوندالي ، أن كان يشتري مكيال الدقيق بما يعادل نحو ٣٦ شلنًا ،
ويقال ، إن أمًا وندالية ذبحت أطفالها وأكلتهم (٤) .

لم يكن أمام الإمبراطور هونوريوس ، إلا أن يعترف بالأمر الواقع ، ويذكر
المؤرخ بروكبيوس Procopius أن الإمبراطور عقد مع الوندال ما يشبه الهدنة
أو المعاهدة ، سمح لهم بمقتضاها ، أن يقيموا في أسبانيا بشرط ألا يقوموا بنهب
أو تخريب أو اعتداء (٥) . وهكذا استقر الوندال بفرعهم السبلي والأسدي ،
في أسبانيا ، فاستوطن الفرع الأسدي منطقة غاليسيا Golloecia في الشمال

(١) Deanesly, op. cit., P. 75 ; Villari, op. cit., P. 96 ; Kaisten, op. cit.,
219 P. Davis, R.H.C., A Hist. of Mediaeval Europe (Lond., 1957), P. 23;
Boussonnade, P., Life & Work in Mediaeval Europe, (Lond.), 1937),; PP.
15-16.

Gautier, P. 102 ; Souttar, P. 327. (٢)

Villari, op. cit. P. 96 ; Schmidt, op. cit., P. 304. (٣)

Hodgkin, P. 221. (٤)

Hist. History, P. 598. (٥)

الغربي ، ويجوارهم السوييف (١). أما الفرع السيلي فأقام في منطقة بايتيكا Baetica وهي التي عرفت باسم الوندال ، فصارت « الأندلس » وهنا من المؤرخين من يشك في نسبة الأندلس إلى الوندال ، ويقول إن كلمة الأندلس Andalusia أو Handalusia ، ليست سوى الصيغة العربية لكلمة هسپريا Hesperia التي أطلقها المغاربة أصلاً على كل أسبانيا (٢). والراجح أن الأندلس نسبة للوندال الذين أقاموا فيها فترة من الزمن . أما العناصر البربرية الأخرى التي صحبت الوندال في اقتحامهم أسبانيا ، أو جاءت في أعقابهم ، فهي الآلان الإيرانيون الذين أقاموا في البرتغال ، والقوط الغربيون الجرمان الذين استقروا في الشمال الشرقي من أسبانيا (٣).

وحدث في عام ٤١٦م أن قبض الضابط الروماني قنسطانطيوس (٤) . على فريديبال Fredibal ملك الوندال السيلين ، بطريقة خادعة ، وأرسله إلى الأمبراطور هونوريوس ، واحتفل هونوريوس بهذا النصر في العام التالي ، وسيق الأسير أمام عربة الأمبراطور في موكب النصر . والواقع أن الخطر الحقيقي الكامن على الوندال في أسبانيا ، لم يكن من جانب الأمبراطورية الرومانية

(١) نظر الاستقرار السوييف في غاليسيا ، وهي التي عرفها العرب باسم « جليقية » ، عرف السوييف كذلك ، في الكتب العربية ، باسم « الجلالقة » .

(٢) Hodgkin, P. 223, N. I ; Hartmann, R., Art. 'Andalusia'

(٣) راجع دولة القوط الغربيين ص ٨٥ - ٩٣ . (Encycl. of Islam).

(١) القائد قنسطانطيوس ، شجاع مظفر ، خدم الإمبراطور هونوريوس ، تزوج من بلاسيديا Balcidia أخت الإمبراطور وإبنة تيودسيوس العظيم : وذلك على كره منها ، تم الزواج عام ٤١٧ عقب عودتها من بلاط القوط الغربيين حيث كانت أسيرة ، بعد أن كانت متزوجة من أتولف ملك القوط الغربيين ، الذي أحبته ، وأعيدت عند ما تم تبادل الأسرى . وزواج قنسطانطيوس منها صار تريكاً للإمبراطور في الحكم باسم قنسطانطيوس الثالث ، ولكنه لم يلبث أن مات بعد أن أنجبت له ولداً ، هو الذي صار الإمبراطور فالنتينيان الثالث وهو طفل بوصاية أمه بلاسيديا ، ولهذا السيدة الوصية أثرها الكبير في دعم التعاون بين بلاط القسطنطينية وبلاط رافنا ، وكذلك في ضياع أفريتيمة الرومانية على يد الوندال بسبب سوء تدبيرها . Hist. History, P. 572 ; Schmidt, op. cit., PP. 275-599 .

المنهارة ، وإنما جاء من ناحية القوط الغربيين ، وملكهم يومئذ واليا Wallia (٤١٥ — ٤٢٠ م) ؛ ففي عام ٤١٨ م ، قضى القوط نهائياً على الوندال السيلين في الأندلس ، كما قضوا على الآلان في البرتغال ، واستطاع من نجا من الآلان ، أن يفر إلى الوندال الأسديين في غاليسيا حيث اندمجوا فيهم ، حتى أضحي ملك الوندال في غاليسيا يعرف باسم « ملك الوندال والآلان » Rex Vandalorum et Alanorum^(١) .

وفي الحرب التي شب أوراها في غاليسيا عام ٤١٩ م بين السوييف من جانب ، وبين الوندال الأسديين وحلفائهم الآلان من ناحية أخرى ، انتصر الوندال بقيادة ملكهم جونديريك ، فهرب ملك السوييف هرمانريك Hermanric بقومه أمام بطش الوندال ، وانحازوا إلى منطقة اشتوريا الجبلية في أقصى شمالي أسبانيا^(٢) . فتعقبهم الوندال وحاصروهم ، ولم يرفع الوندال حصارهم إلا عندما تدخل الكونت استوريوس Asterius الحاكم الروماني في أسبانيا ؛ استجاب الوندال وتركوا السوييف ، لكنهم توجهوا مباشرة إلى منطقة بايتيكا (الأندلس) في الجنوب ، واستقروا فيها في ذلك العام (٤١٩) ؛ أي أنهم حلوا مكان أشقائهم السيلين السابقين ، ويحتمل أنه كان في هذه المنطقة قلة باقية من السيلين ، لم تلبث أن اندمجت وذابت في الأسديين^(٣) . وذن هذا المكان بدأ الوندال يتطلعون إلى البحر الأبيض والمحيط الأطلسي ، كما بدأوا يجهلون بالعظمة البحرية .

غير أن بلاط رافنا لم يقف مكتوف الأيدي أمام تقدم الوندال السريع الظافر في أسبانيا ، فقرر في عام ٤٢٢ م ، وهي آخر سنوات حكم الإمبراطور هونوريوس ، المغلوب على أمره ، أن يقوم بتحرير بايتيكا ، وانبرى لهذا

Gautier, PP. 103-105.

(١)

Gibbon, Ed., Decline & Fall of the Roman Empire, (Lond., 1954), III, (٢)
P. 328.

Hodgkin, P. 224.

(٣)

المشروع القائد العام للجيش الرومانية ، وهو قسطينوس Castinus ، وكان القوط الغربيون يساعدونه في حرب الوندال ، وكاد قسطينوس ينتصر ، لولا الانقسام الذي مزق هيئة القيادة الإمبراطورية ، مما أغضب بونيفاس Bonifacius وهو الذي يلي قسطينوس في القيادة العامة ؛ ورغم أنه أشجع ضباط الإمبراطورية.

ورغم أن بونيفاس أشجع قادة الإمبراطورية ، وأكفاً من رئيسه ، إلا أنه لم يحتمل غطرسة قسطينوس ، فانسحب في هدوء وعبر إلى أفريقية ، التي وليها فيما بعد من قبل بلاسيديا وابنها فالنتينيان الثالث^(١) . ومع قيام هذا الانقسام ، انتصر قسطينوس في أول الأمر على الوندال ، وحاصروهم في إحدى مدن بايتيكا ، حتى قاسوا من الجوع ، وكانوا على وشك الاستسلام ، لولا حماقتهم وتسرعهم في الدخول في معركة مع قوم جياع ، وذلك في الوقت الذي خدعه فيه حلفاؤه من القوط ، فانهمزم هزيمة منكرة وفر إلى طركونه Tarragona^(٢) .

لم يقنع الوندال بمنطقة بايتيكا كدولة لهم ، بل أخذوا على أثر انتصارهم على الرومان ، يغيرون على البلاد والموانئ ، فنهبوا ميناء قرطاجنة الجديدة بأسبانيا ، كما نهبوا أشبيلية ، ودمروا ولاية طركونة ؛ وتعقب الوندال ضحاياهم من الأسبان الذين هربوا لاجئين إلى جزر البليار ، فاستولوا على هذه الجزر عام ٤٢٥ م ، وتشمل جزر البليار : ميورقه Majorca ومينورقه Minorca ويابسة . ومن المحتمل أن الوندال استولوا على بعض السفن في الموانئ التي استولوا عليها ؛ وبهذا

(١) على أثر وفاة الإمبراطور هونوريوس في عام ٤٢٣ م قامت مشكلة حول ولاية العرش ، فهناك فالنتينيان الثالث بن بلاسيديا ، وعمره ٤ سنوات ، يعيش مع أمه منفياً في القسطنطينية ، ومعنى توليته تدعيم الصداقة بين الشرق والغرب ، وهذه أمنية عزيزة للحزب المنادى بتوليته ، ولكنها تؤدي في نفس الوقت إلى منافسة ونزاع مسلح بين الأوصياء ، نظراً لصغر سنه . والرأي الثاني انتخاب إمبراطور من غير الأسرة الإمبراطورية ، وهذا ما يزكيه قسطينوس القائد العام في الغرب ، نجح هذا الرأي وتولى حنارتيس الموثقين ، وهو رجل بيروقراطي مجرب ، ولكنه آله في يد القائد العام (C. Med. H. (Sh.), I, P. 88).

Gibbon, op. cit., PP. 328-29.

الوضع الجديد ، تحول الوندال إلى أعمال القرصنة في البحر ، بل امتدت غزواتهم إلى ولاية مرطانية Mauritania الأفريقية ، عبر الزقاق (١) . ولكن يبدو أنه لم يكن لهم هدف واضح يومئذ في الاستقرار على ساحل أفريقية الشمالى .

* * *

وبعد أن استقر الوندال « معاهدين » فى أسبانيا نحو عشرين سنة ، من ٤٠٩ إلى ٤٢٩ م . حان الوقت الذى اضطر فيه الكونت بونيفاس حاكم أفريقية الرومانى (٤٢٢ - ٤٣٢ م) إلى دعوتهم إلى أفريقية .

وتفسر ذلك : أن الأمبراطور تيودسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠ م) ، أمبراطور القسم الشرقى من الأمبراطورية الرومانية . صمم على إحياء الأمبراطورية الرومانية بشرطها ، وتوحيدها تحت سيادته ، فأرسل جيشاً ، تحت إمرة أقدر قواده ، وهما أردا بوريوس Ardaburius الآلانى وابنه أسبار Aspar وتلخص مهمة هذا الجيش فى طراد الأمبراطور « حنا الموثق » الذى عينه قسطنطينوس وتولية فالنتينيان الثالث ابن عمته بلاسيديا . تحمس تيودسيوس لهذا المشروع وكاد يتولى قيادة الجيش بنفسه ، لولا نصيحة الأطباء له رعاية لصحته (٢) . نجح الجيش فى القضاء على حنا وقتله عام ٤٢٥ وكان المتحكم فى القسم الغربى من الأمبراطورية آنذاك ، القائد العظيم أيتيوس Aëtius ؛ فلما رأى انتصار جيش الشرق ، اقتنع بما تم ، رغم أنه كان من أنصار حنا ، وأنجده بنحو ٦٠ ألف من مرتزقة الهون . قبل أيتيوس أن يتولى منصب القيادة العامة فى الغال بلقب « كونت » ؛ وتمت مراسم تتويج فالنتينيان الثالث فى عام ٤٢٤ م فى إيطاليا ؛ والملاحظ ، أن تيودسيوس الثانى ، رأى ألا يرهق نفسه بتحمل أعباء الغرب ومشاكله ، فضلاً عن أخطار البرابرة المحذقة به فيما وراء الألب ، ولذلك اطمأن

Deanesly, op. cit., P. 76 ; Lot, op. cit., P. 87.

(١)

Hist. History, P. 573.

(٢)

بولاية ابن عمته ، وزوجه من ابنته فيما بعد ؛ وحكم فالنتينيان الثالث من ٤٢٥ م إلى ٤٥٥ م (١) .

وفي نظير جهود الأباطور تيودسيوس الثاني في تولية فالنتينيان الثالث ، تنازلت الأباطورية الغربية له عن إقليم الليريا الغربي ؛ ومعنى هذا ، انضمام دالماتيا البحرية الغنية ، وكذلك تنازلت الأباطورية الغربية عن بانونيا ونوريكوم للأباطورية الشرقية . ولما كان عمر فالنتينيان الثالث عند ولاية العرش ، ست سنوات ، فقد قامت أمه بلاسيديا وصية عليه بلقب أوغسطا Augusta ؛ وبجانبا فيليكس Felix القائد العام لجيوش الأباطورية في الغرب (٤٢٦ — ٤٣٠ م) .

والمعروف عن بلاسيديا الوصية ، أنها تحكمت في الأباطورية الغربية باسم ابنتها مدة ربع قرن من الزمان ، واشتهرت بالحقد وسوء التدبير والعجز عن سياسة الأباطورية ، على عكس زوجة ابنتها يودكسيا Eudoxia التي زانها العقل وجملتها العبقرية (٢) .

وبالإضافة إلى سوء القيادة العليا وعجزها ، كانت القوة الحربية الرومانية في الغرب ، وقد وصلت إلى درجة كبيرة من التدهور والانحلال ، وغدا الاعتماد الأساسي فيها على المرتزقة من البرابرة (٣) . وأبرز شخصيتين في القيادة العسكرية في ذلك الوقت هما : أيتيوس وبونيفاس ؛ أما شخصية البطريق فيليكس ، فلم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى شخصيتي ايتيوس وبونيفاس ، وهما اللذان نظر إليهما باعتبارهما آخر الرومان . كان تعاون هاتين الشخصيتين أمراً هاماً

Villari, op. cit., PP. 91-92.

Hist. History, P. 574 ; Benthelot, M.A., Le Monde Barbare, L'Ivasions. (Hist. Générale) T. I, P. 66.

Katz, S., The Decline of Rome; & the Rise of Med. Europe, (New York, 1955) PP. 74-75 ; Mott, G.F., & Dee, H.M., Middle Ages (New York, 1952). PP. 7-11 ; Boissonnade, op., cit., PP. 14-17.

(١)

(٢)

(٣)

من أجل انقاذ الأمبراطورية ، غير أن منافستهما وانقسامهما ، كانا السبب المباشر في فقدان أفريقية ، فضلاً عن تمزيق الأمبراطورية برمتها .

أخذ أيتيوس يتقرب من بلاسيديا وابنها ، ويوطد صداقته مع القصر الأمبراطوري في رافنا ، مظهراً ولاءه وإخلاصه ، ولما كانت بلاسيديا ضعيفة التدبير وسيئة التقدير ، فقد خضعت لرغبات ايتيوس ، ودسائسه ضد غريمه ومنافسه بونيفاس ؛ وذلك على الرغم من ولاء بونيفاس للأسرة الأمبراطورية ، بدليل أنه لم يقف موقف المتفرج إبان محنة بلاسيديا وإبناها حين كانا منفيين بالقسطنطينية ؛ وضع بونيفاس قوات أفريقية وأموالها في خدمة بيت تيودسيوس العظيم ، وقع أيضاً — الأمبراطور حنا المعتصب ، على حين كان حنا يلقي التأييد والمساعدات من جانب ايتيوس وأحلافه من الهون^(١) . ولكي يحكم نسيج مؤامراته ، بعث في الخفاء إلى بونيفاس ، ينصحه^(٢) . بعدم الاستجابة إلى أمر الأمبراطورة .

أما أحوال بونيفاس ، « كونت أفريقية » في ذلك الوقت ، فكانت متطورة ، إذ حدث عقب وفاة زوجته الكاثوليكية ، أن رغب في التفرغ إلى العبادة والنسك وترك خدمة الدولة ، بعد أن نجح في حماية ولايته من غزوات للغاربة ، غير أن صديقه القديس أوغسطين ، نصحه بالبقاء في خدمة الدولة ، فتزوج من وارثة أسبانية ثرية ، ولكنها على المذهب الأريوسي ، وانصرف إلى اللهو ببعض الوقت ، وأهمل شئون ولايته ، فتجددت اعتداءات المغاربة ، حتى أن القديس

(١) أيتيوس بن جودنتيوس Gudentius الإسكثي الأصل ، وقائد الفرسان في الأمبراطورية الغربية ، وأمه نبيلة إيطالية ، ومنذ كان أيتيوس شاباً ، وهو يعمل في الجندية ، وكان من بين الرهائن الذين قضوا وقتاً طويلاً في معسكرات الهون حتى تكونت صداقة بينه وبينهم (Villari, P. 92 ; Gibbon, P. 326, N. 4 ; Lot, La Fin du Monde Antique et le Debut du Moyen Age, (Paris, 1951), PP. 239-40 ; Souttar, op. cit., PP. 212-15 ; Benthelot, op. cit. P. 69

Gibbon, P. 328 ; Hist. History, P. 575 ; Villari, P. 91.

(٢)

أوغسطين بعث إليه برسالة ينبهه فيها إلى العناية بواجباته (١). استدعته الأمبراطورة بلاسيدا إلى إيطاليا في عام ٤٢٧ م ، فرفض إطاعة الأمر ، فجاءت الجيوش الأمبراطورية لتجبر بونيفاس على الطاعة والولاء ، لكنه هزمها وشتتها ، ثم جاءت حملة أخرى بقيادة قوطي يعرف باسم سيجسفولت Sigisvult ، فاستطاعت هذه الحملة أن تنتصر عليه وتستولي على قرطاجنة العاصمة ، وعلى هيبو ، مركز أسقفية القديس أوغسطين (٢) .

ويبدو أن بونيفاس رأى ألا طاقة له بجيوش الأمبراطورية ، التي لا شك تفوق ما تحت يده من قوات في أفريقية ، فتملكه اليأس فضلاً عما اعتلج في نفسه من صراع عنيف ، بين الولاء للأمبراطورية والانتقام منها ، إذ لا يزال يشعر بخيبة أمل عندما لم يعين في منصب القيادة العامة بعد قسطينوس ، وهو الذي خلفه فيليكس بعد القضاء على حنا وأنصاره وتولية فالنتينيان الثالث ؛ كذلك يبدو أنه بدأ يتطلع في نفس الوقت لأن يصير الحاكم بأمره على أفريقية الرومانية بمساعدة الهرطقة الموترين من الأريوسيين وغيرهم .

وبعد تردد طويل ، بعث بسفير من من قبله إلى معسكر الوندال في أسبانيا يدعوهم إلى أفريقية ، وذلك في عام ٤٢٨ م . ويحتمل أن مبعوثه إلى الوندال هو نفس القائد القوطي سيجسفولت (٣) .

كان يتزعم الوندال في ذلك الوقت قسيان في الساطة هما : جوندريك وأخ غير شرعي له هو جزريك ؛ ويقال إن رسالة بونيفاس إلى الوندال كانت تتضمن اقتسام السلطة في أفريقية بين ملكي الوندال وبين بونيفاس ، لكن يشك في صحة هذا الخبر ، لأنه لم يرد في مرجع سوى ما كتبه بروكبيوس

(١) يوجد بعض أجزاء من هذه الرسالة في : Villari, P. 94.

(٢) Gibbon, P. 328 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 89, 90 ; Lot, P. 88.

(٣) C. Med. H. (Sh.), I, P. 90 ; Hodgkin, P. 246 ; Hist. ;History, PP. 575-76 ; Souttar, P. 327 ; Berthelot, op. cit., P. 68.

Procopius ، وهو ليس مرجحاً أصيلاً لهذه الفترة . مات جوندرىك ، وانتخب الوندال جزرىك ملكاً عليهم ، وحام الشك حول موت أخيه جوندرىك ، وهل لجزرىك دخل فى ذلك ؟ والراجح أن وباء انتشر فى جيش الوندال قبيل الغزو الأفريقى ، وكان جوندرىك من بين ضحاياه (١) .

والواقع لم يكن الوندال بحاجة إلى مثل هذا الاستدعاء من جانب بونيفاس لغزو أفريقية ، فقد أضحى الوندال قوة بحرية مخيفة ، وهناك ثراء أفريقية ومطامع الوندال واحلامهم فى تكوين دولة مترامية الأطراف ، فلم يقنعوا بمحدود باتيكا كدولة لهم . وأحوال أفريقية فى غاية الملاءمة لتنفيذ مشروعهم التوسعى ، فقيا الانقسام المذهبى بين الدوناتيين والكاثوليك ، والحروب الأهلية فيها وغزوات المغاربة المستمرة فضلاً عن الحروب والصراع فى إيطاليا نفسها وفى بلاط رافنا (٢) . لذلك لم تكن رسالة بونيفاس سوى عامل من عوامل التنفيذ الفورى دون إبطاء .

انفرد جزرىك بالسلطة على الوندال عام ٤٢٨ م ، وظل نحو خمسين عاماً ، عد خلالها أقوى وأشهر شخصية فى أوروبا ، باستثناء فترة بروز أتىلا الهونى القصيرة (٣) . كما كان بطل الوندال ، والعدو الرهيب لروما والقسطنطينية . كتب اسم جزرىك بأشكال مختلفة ، فكتاب القرن الخامس للميلادى أمثال ايداتيوس

(١) انتشرت إساءة بعد هذه الفترة بنحو قرن ، مؤداها ، أن جزرىك قتل أخاه ليتفرد بالحكم ، كما أتبع مقتل بليد Bleda على يد أخيه أتىلا الهونى ؛ وكان بروكبوس هو الذى أشاع هذه الشائعة : ثم نفاها بقوله : إن الوندال لا يصدقونها . وذكر كذلك أنه سمع من بعض الوندال ، أن جوندرىك وقع أسيراً فى أيدي أعدائه من جرمان أسبانيا ، وأنهم أعدموه صلباً ، أما المؤرخ ايداتيوس Idatius المعاصر ، فيربط موت جوندرىك بحادث تدنيس مقدسات أشبيلية ، على أثر استيلائه على هسباليس Hespalis ، وهى أشبيلية ، إذ اعتدى على كنيتها ، ولكنه سرعان ما هلك على يد مارد أو شيطان . (Hodgkin, PP. 226-27)

Villari, PP. 94-95.

(٢)

Lot, Les Jnasions, P. 87

(٣)

Idatius الأسباني ، وبروسبر ؛ Prosper الأكويتاني وغيرهما ، كتبوه بهذه الصيغة Gaisericus ويقرب منها الصيغة التي استخدمها المؤرخ القوطي جوردين Jordanes ، والمؤرخ البيزنطي بروكبيوس ، من مؤرخي القرن السادس الميلادي ، وهذه الصيغة هي Gaizerichus ؛ وكتبه غيرهم Gesericus, Gensericus وهكذا . ويبدو أن مرجع هذا الاختلاف الشكلي ، هو أن مثل هذه الصيغة كان شائع الاستعمال في بيزنطة . ورغم أن أغلب المراجع يكتبه «جنزريك» إلا أن الباحث الألماني فريدلندر Friedländer وهو الذي كتب عن المسكوكات الوندالية ، يفضل استعمال Gaisericus ، ويفسر هذه الكلمة بأنها مشتقة من كلمتين : Gais بمعنى « رمح » Reiks ، بمعنى « ملك » (١) .

أقترن اسم هذا الملك دائماً بالتدمير والتخريب ، والفرع للأمبراطورية الرومانية . ورغم ما قاساه الوندال من محن وهزائم متلاحقة ، سواء منذ كانوا في مورافيا ، أو أمام الفرنجة على ضفاف الراين ، أو أمام القوط الغربيين في أسبانيا ، مما يدل على أنهم لم يكونوا محاربين من الدرجة الأولى مثل جيرانهم البرابرة ، وهذا ما يؤيد وجهة النظر القائلة بهمجييتهم (Varbaricum) ؛ رغم هذا ، فإن هذه الصفة لم تلتصق بهم خلال حياة جزريك الطويلة ، فهو يمتاز بعقل جبار، وشجاعة منقطعة النظير، بثت في الوندال روحاً جديدة . حقيقة أنه كان قاسياً وحشياً ، إذا ما قيس بأقرانه من ملوك البرابرة الذين صار مصيرهم خيراً من مصيرهم أمثال الأاريك وآتولف من ملوك القوط الغربيين . هذا ويفترق جزريك عن أي زعيم من غزاة الشماليين في أنه لم يدانه أحد منهم في شدة نهمه للكسب والغنيمة ؛ وباستطاعته أن يكون صادق الحدس والتقدير لموارده وموارد أعدائه ،

(١) Halphen L. Les Barbares (Paris 1926). P. 38 ; Hodgkin P. 227
Gibbon P. 329.

وأن ينسج خيوط المحالفات السياسية لصالحه وصالح شعبه ، ولديه مقدرة فائقة على تكييف الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق أهدافه المحددة ؛ وقد ظل الناس يتحدثون عنه بعد وفاته بقرن من الزمان ، باعتباره أمهر الرجال ، ويشبهه من بعض الوجوه ، صنوه الأريك التيوتوني أو البروسي ، الذي استولى على المدينة الخالدة في العالم اللاتيني . ويقول بعض الكتاب : « إذا كان أتيليا هو نابليون القرن الخامس الميلادي ، فأحرى بجزريك أن يكون بسمارك ذلك القرن » (١) .

يصفه المؤرخ القوطي جوردين بأنه يعرج في مشيته ، نتيجة وقوعه مرة عن جواده ، وبسبب مذابحه في الرومان ، ذاع صيته في العالم ، ثم هو قليل الكلام عميق التفكير ، عزوف عن الترف لأنه يرى فيه تشبهاً بأمه ذهبت ريجها (٢) . ممتليء بالأهداف البعيدة لتحطيم الشعوب ، وعلى الأهبة دائماً لأن يبذر بذور الخصاص والشحناء بين أعدائه ، وأن يفيد من نتائجها .

وفي نظر مالكوس Malchus الأديب البيزنطي أن تغيراً خطيراً ألم بالوندال بعد جزريك ، أعظم ملوكهم ، فقد استهدفوا لكل أنواع الاضطراب والتدهور والانحطاط ، فضلاً عن الميوعة أو التخنث ، ولم تعد لديهم تلك القوة التي كانت لهم ، وفشلوا في الاحتفاظ بقواتهم الضاربة ، تلك التي حرص جزريك على أن تكون معدة دائماً لأي مشروع ، مما جعله أسرع في الانقضاض على عدوه قبل أن يهيء نفسه للدفاع أو الهجوم .

سخر جزريك جميع موارده ، وقد دبرها أحسن تدبير ، لهدفين كبيرين هما : إذلال الإمبراطورية الرومانية والقضاء على المذهب الكاثوليكي . ويفسر الأسقف الأسباني إيداتيوس كراهته الشديدة للكاثوليكية أن جزريك كان أريوسياً ، وإذا صح هذا ، فإن أساس هذه الكراهة يرجع إلى أنه ابن سرية

Hodgkin P. 229 , Gautier PP. 110-114.

(١)

Historian's Hist. P. 576 ; Villan PP. 96-7.

(٢)

أو محظية أسبانية أو غالية ، فنشأ في فجر حياته على مذهب أمه ، لكنه سرعان ما جحد هذه العقبة وارتد عنها واعتنق الأريوسية مذهب أسلافه العسكريين (١).

— ٣ —

وفي شهر مايو من عام ٤٢٨ م ، حشد جزريك كل شعبه من الوندال والآلان الخاضعين له ، على ساحل الأندلس المقابل للزقاق — وهو مضيق جبل طارق — استعداداً لتلبية دعوة الكونت بونيفاس ، غير أنه علم قبيل رحيله بأن عدوه هرمجاريوس Hermigarius ملك السويف ، يقوم بتخريب وتدمير بعض الولايات الواقعة بالقرب من خط سير جزريك ، وأنه سوف ينقض على أملاك الوندال في الأندلس ، فعاد مسرعاً على رأس فرقة منتخبة من رجاله ، وتعب ملك السويف وأنزل به هزيمة ساحقة ماردة وذبح كثيراً من السويف ، ولكن هرمجاريوس تمكن من الهرب ممتطياً صهوة جواده السريع ، الذي قيل فيه أنه أسرع من الرياح الشرقية ، غير أنه لم يلبث حتى غرق في نهر جوديانا Guadiana ؛ وعلق رجال الدين في مارده على غرقه على مشهد منهم ، إن موته عقاب من السماء بسبب إهائته السابقة لزعميتهم القديسة ولاليا Eulalia ، وهي إحدى الأطفال الذين استشهدوا زمن الأباطور دقلديانوس (٢) .

وبعد أن ألقى هذا الدرس القاس على السويف ، عاد على الفور إلى ساحل البحر ، ليعبر إلى أفريقية ؛ ولكي يطمئن إلى سهولة عبور قومه في أمن ونظام ، قام بإحصاء جميع الذكور من الوندال « من الشيخ المسن إلى الطفل الوليد »

Gautier op. cit. PP. 110-117.

(١)

(٢) عرفت القديسة ، بأنها من أجل الشهيدات العذارى ، بين زميلاتهما اللاتي أقيمت لهن تمثال في كنيسة القديس أبو الليناري Apollinare في رافنا ، ونسبت كرامات إلى هذه القديسة ، منها إنقاذ رافنا من تخريب تيودريك الثاني ملك القوط الغربيين في عام ٤٥٦ م .

ووجد أن عددهم ٨٠ ألف ، ويبلغ المحاربون منهم نحو ٥٠ ألف ، وعبأ جيشه ، ووضع على رأس كل ألف مقدماً Chiliarch . وكان بونيفاس قد أعد السفن اللازمة لنقل الوندال عبر المضيق (١) .

والملاحظ أن أفريقية وأسبانيا ، مرتبطتان معاً ، منذ أقدم العصور ، فكلماتها نقطة وثوب على الأخرى ، ففي التاريخ القديم والوسيط ، اتخذت الغزاة أفريقية مركزاً للوثوب على أسبانيا ، هكذا فعل الفينقيون قديماً ، ومن بعدهم العرب في العصور الوسطى ؛ وكذلك كان الشأن بالنسبة لأسبانيا ، كما فعل الوندال (٢) ؛ إذ بدت إفريقية للوندال ، كما بدت ملوك القوط الغربيين من قبل — زمن الأريك ت ٤١٠ — إنها الملجأ الأمين الدائم (٣) .

أبحر الوندال من الميناء الذي عرف فيما بعد باسم ميناء طريف ، في مايو ٤٢٩ م ، ونزلوا بساحل موريتانيا ، وهي أقرب مناطق شمالى إفريقية إلى أسبانيا ؛ وعلى الرغم من وجود اثنتي عشرة فرقة من المشاة الرومان ، وتسع عشرة فرقة من الفرسان ، فإن الاضطراب والانقسام بينها ، كل ذلك أعجزها عن حماية أفريقيا ، بل أن هذه الفرق كلها ، لا تعدل في قوتها وروحها ، فرقتين فقط من الجيوش الرومانية زمن يوليوس قيصر .

والمعروف ، أن حدود موريتانيا المتأخرة للصحراء والمحيط الأطلسي ، كانت محاطة بقائل متوحشة قوية تشتعل حقدًا وكراهية للرومان ، وتتحين الفرصة للانتقام ، هؤلاء هم المغاربة البدو ، وصل بعض المغاربة منهم إلى قرب الساحل ، حيث شهدوا معسكر الوندال ، ولا بد وأنهم شعروا بالخوف والفرع والدهشة من هذا الغازي الجديد ، الذي يتميز بزى معين وسلاح خاص ، وتقدم حربي فريد ،

Davis op. cit. PP. 21-22.

(١)

Bury op. cit. P. 89.

(٢)

Lot Les Invasions... P. 88.

(٣)

فضلاً عن صفاتهم الجثمانية التي بدت لهم ، كالشقرة وزرقة العيون ، على عكس الأفريقيين الذين أكسبهم المناخ الإفريقي لوناً زيتونياً ؛ وبعد إزالة بعض الصعوبات الخاصة بجهل الفريقين ، كل بلغة الآخر ، رحب المغاربة بالتحالف مع الوندال ، أعداء الرومان ، دون ملاحظة أو إدراك لأي نتائج في المستقبل ، وسرعان ما اندفع عدد كبير من هؤلاء الوطنيين من وديان وغابات جبال أطلس ، فقد حانت الفرصة للانتقام من جلادهم ؛ ولعل في هذا الترحيب ، ما يشبه ترحيب الأقباط المصريين بالفاتحين العرب المسلمين ، فراراً من ظلم البيزنطيين وإضطادهم لهم ، والقياس مع الفارق (١) .

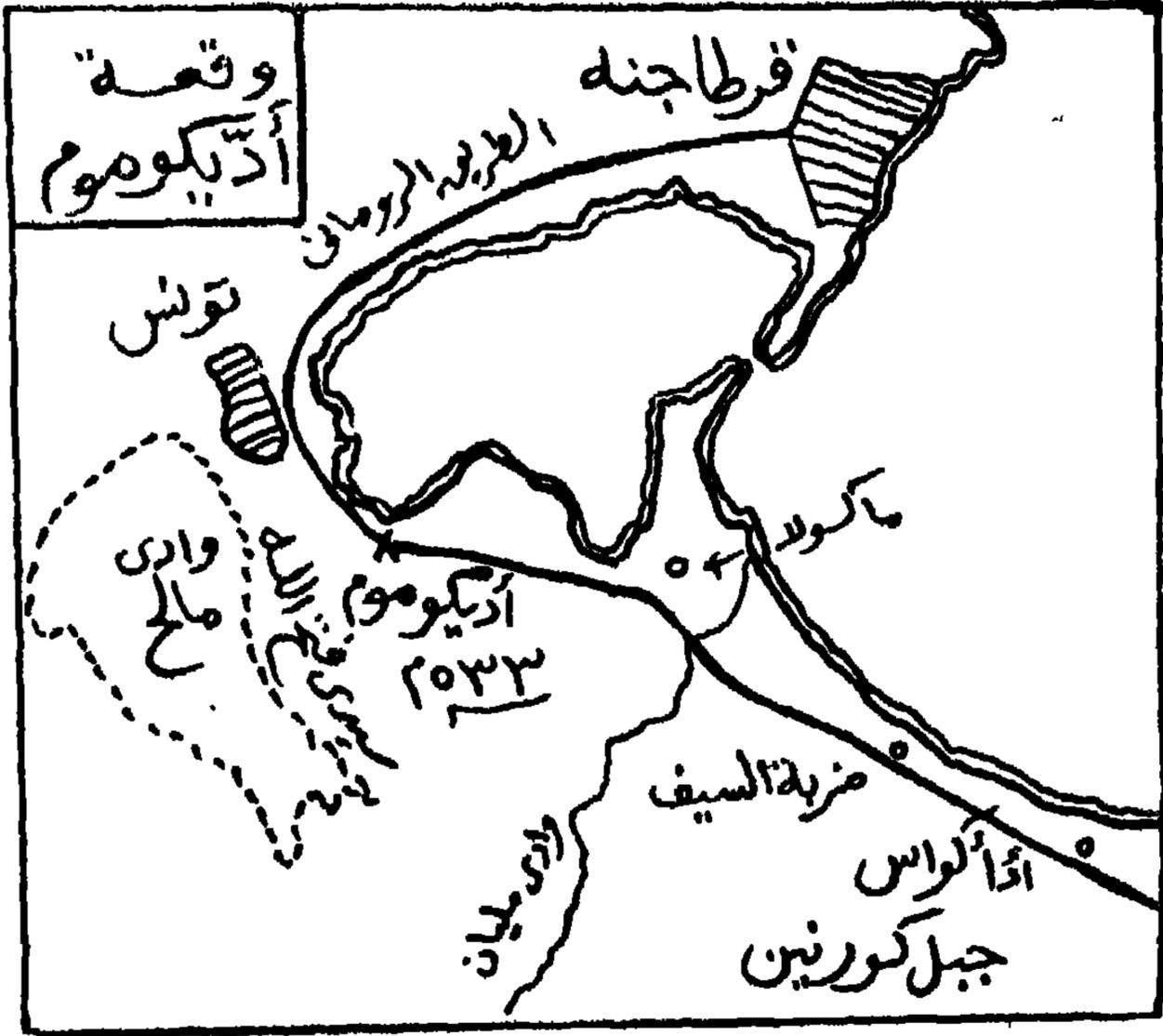
لأننا نعلم كثيراً عن تفاصيل فتوحات الوندال الأولى في شمالى إفريقية ، عقب نزولهم ، وكل ما نستطيع أن نقوله أنه في أوائل عام ٤٣٠ م كان شمالى إفريقية قد استهدف لتخريب الوندال ونهبهم ، باستثناء ثلاث مدن حصينة استطاعت أن تقاوم ، وهذه المدن هي . هيبورجوس وكيرتا والعاصمة قرطاجنة .

أما حصار هيبورجوس ، فقد بدأ حوالى نهاية شهر مايو من عام ٤٣٠ م ، وتقع هذه المدينة غربى قرطاجنة على بعد حوالى ١٨٠ ميلاً ، ومكانها الحالى هو المدينة الفرنسية بونا Bona . وهيبو محل إقامة القديس أوغسطين ، كان عاكفاً على بحوثه وكتبه عندما وصلتته أنباء الغزو الوندالى ، وسمع بما فعله الوندال من قتل ونهب وإبادة أشجار الفاكهة وتدمير الكنائس ، فى ولاية هادته تبدو تربتها من كل جانب كأنها تبتمس للزائر على قول فيكتور فيتنس ؛ تقدم الأساقفة إلى أوغسطين ملتمسين نصحه وإرشاده فى هذه الأزمة الطاحنة ، وسألوه النصيح فيما إذا كان ينبغى عليهم أن يهر بوا إلى أحد الحصون القوية التى لم تخضع بعد

(١) Historian's Hist. P. 577 ; Gibbon PP. 330-31 ; Gautier PP. 167-173 ; Dich' (Ch.) et Marçais (G.) Histoire du Moyen Age, (Paris, 1944), P. 39 ; Berthelotl op. cit., ; P. 68 ; Schimidt, L., op. cit., P. 305.



شمال أفريقيا
 أوروبا
 في القرن الخامس الميلادي



للوندال ، أو يبقوا حيث هم ، يمارسون أعمالهم . فأجابهم القديس أوغسطين : « إبقوا مع شعبكم وشاركوهم في المحن » ، غير أن الأساقفة لم يقروا على تحمل البقاء ؛ وقال قائلهم : وما الفائدة في بقائنا ، سوى أن نرى الرجال تقتل والنساء تهتك ، والكنائس تحرق ، أما نحن فسوف يحل بنا التعذيب والتنكيل حتى نجبر على فتح خزائن الكنوز الخفية التي لا نملكها ! ثم أخذوا يرددون معنى قول المسيح : « إذا عذبوك في مدينة ، فاهرب إلى المدينة الأخرى » .

أطرق أوغسطين بعض الوقت ، وفكر أن يحدو حدو البطريقين كبريان Cyprian وأثناسيوس ، اللذين اضطروا للتخلي عن منصبهما فترة من الزمن . ثم وافقهم بعد شيء من التردد ، غير أنه ما كاد ينتهي إلى هذه النتيجة حتى قدم عليه بوسيديوس Possidius أسقف كالاما Calama ، وهو الذي ندين له بالمعلومات عن هذه الأيام الأخيرة من حياة أستاذه أوغسطين ، قدم مع عدد من أساقفة البلاد القريبة من هيبو ، وأبوا إلا أن يشاركوا أستاذهم في البقاء في هيبو رغم الحصار ، وجلسوا أمام أقدام القديس العظيم ، منصتين إلى عذب حديثه الفياض ، الذي كان قبلاً أحلى من العسل ، ولكنه اليوم ينم عن الخوف ، ظل الجميع يتناقشون في هذه المحنة الكبرى ، ويتضرعون إلى الله أن يرفع عنهم هذا البلاء (١) .

وكان في مدينة هيبو المحاصرة ، رجل آخر ، هو المسئول عن كل هذه الكوارث ، هو الكونت بونيفاس ، الذي يكاد الحزن والأسى والأسف يأكل قلبه ، إذ كان قد عاد إلى الصفاء مع بلاط رافنا . فقد كان من الغريب حقاً أن بطلاً شجاعاً مثل بونيفاس ، يفعل هذه الفعلة النكراء ، بعد كثير من الخدمات الجليلة التي أداها للإمبراطورية ، فيستدعي البرابرة لتدمير الولاية التي عهد إليه

بقيادتها وسياستها (٤٢٢ — ٤٣٢ م) ظل أصدقاء بونيفاس يعتقدون أن سلوكه الشائن يمكن أن يغتفر ويتدارك ، فاتفقوا مع الإمبراطورة بلاسيدا وابنها ، في غيبة ايتيوس ، على الدخول في مفاوضة مع بونيفاس ، وقام داريوس Darius سفيراً من بلاط رافنا إلى كونت أفريقية . وداريوس من الضباط الرومان العظام ، ومعروف بحسن سمعته ؛ عقد اجتماعاً مع كونت أفريقية في العاصمة قرطاجنة ، ونوقشت الأحداث التي أدت إلى هذه النتيجة ، أظهر بونيفاس كتب ايتيوس إليه ؛ وأظهرت بلاسيدا على لسان سفيرها أسفها وندمها على موقفها من بونيفاس ، كما أظهر بونيفاس ندمه وتوبته ، ومن ثم عاد الصفاء (١) . وكان القديس أوغسطين ، وقد علم بالمفاوضة دون أن يبحث أسبابها الأصلية ، قد بعث برسالة إلى بونيفاس ينصحه فيها بالقيام بواجبه باعتباره مسيحياً ورعيه من رعايا الإمبراطورية (٢) .

غير أن الأمر أفلت من يده ، فلم يعد بإمكانه أن يربى الصدع الذي أصاب الإمبراطورية ، وعبثاً حاول بونيفاس إقناع جزريك بالجلاء عن أفريقية ، وبذلك في كل ما استطاع من وعود وإيمان وموathيق ، ولكن ملك الوندال العنيد لم يرحم ولم يلب ، فازدري كل شرط أو عهد تقدم به بونيفاس ، ورفض في عناد وإصرار أن ينزل عن شبر واحد مما فتحه من الأرض ، إذ كان يعتقد أن بونيفاس يخدعه .

لم يكن أمام كونت أفريقية سوى الانقلاب ضد حليفه ، وثار به حرب حياة أو موت ، وحشد له جميع فرقه المدربة ، فضلاً عن الحاميات الأفليمية ، ومع ذلك هزمه الوندال ، فلبجأ إلى هيبيو — عاصمة ملوك نوميديا القدماء — وحصنها واستعان في حمايتها بفرقة من مرتزقة القوط ، وعجزت الإمبراطورية عن إمداده

Gibbon, PP. 332-33; Hist. History, P. 577.

(١)

Gibbon, P. 333 N. 4

(٢)

بمزيد من القوات» (١). واستمات بونيفاس في القتال والدفاع؛ أدت بسالة بونيفاس ومن معه، فضلاً عن أن البحر كان دائماً مفتوحاً أمام هيبو. لإمدادها بما يستطاع من مؤن، أدى في ذلك، بالإضافة إلى صلوات القديس أوغسطين، وعدم مهارة الوندال في حصار المدن المسورة إلى صمود هيبو ومنعتها لمدة أربعة عشر شهراً.

وفي الشهر الثالث من الحصار مات القديس أوغسطين، وكان يومئذ في السادسة والسبعين من عمره، وفي الأربعاء من أسقفيته. وفي الشهر الرابع عشر من الحصار (يولية ٤٣١ م)، اضطر الوندال بسبب الجوع والإرهاق، نتيجة تدمير المناطق المجاورة التي لم تعد قادرة على تموينهم، إلى رفع الحصار؛ فأغرى هذا بونيفاس، بمنازلة الوندال في وقعة حربية، مكشوفة، لعله يقضى عليهم، ويشفي غلة صدره، وكانت أمداد قد وصلته من الأمبراطورية، كذلك قد جاءت من بيزنطة بقيادة أعظم قادتها «أسبار» الألاني (٢)، وكانت بلاسيديا قد توسلت إلى الأمبراطورية الشرقية لإنقاذها. تولى بونيفاس القيادة لجيشي الشرق والغرب، غير أنه منى بهزيمة كبرى، قررت في الواقع مصير أفريقية نهائياً؛ فعاد أسبار إلى بيزنطة، كما توجه بونيفاس إلى إيطاليا حزيناً أسفاً يائساً، وذلك بدعوة من الأمبراطورة، ليلى منصب القائد العام للجيش الروماني بعد مقتل فيليكس Felix (٣).

والمعروف أن أيتيوس كان قد حرض الجنود ضد فيليكس فقتلوه في رافنا عام ٤٣٠ م، وولى منصب القيادة العامة للجيش الروماني عن طريق الاغتصاب، ولكن بلاسيديا، رأت أن تسند هذا المنصب إلى الكونت بونيفاس، بعد أن ثبت وفاؤه وندمه وإخلاصه، فاستدعته في عام ٤٣١ م أو ٤٣٢ م، وعينه

Lot, Les Invasions, P. 88.

Gautier, PP. 179-183 ; C. Med. H. (Sh.), I, P. 90.

Gibbon, PP. 325-26 ; C. Med. H. (Sh.), I, PP. 89-90.

(١)

(٢)

(٣)

في منصب القيادة العامة ، بدلاً من أيتيوس المنتصب ، فكان ذلك مدعاة لنشوب حرب أهلية بين بونيفاس وأيتيوس . كان أيتيوس قد عاد في ذلك الوقت من الغال ومعه جيش من أحلافه البرابرة ، فالتقى به بونيفاس قرب مدينة ريمي Rimini وأنزل به هزيمة منكرة ، فر بعدها أيتيوس إلى أحلافه من الهون ، ولكن الجرح الذي أصاب بونيفاس في الواقعة ، لم يمهله طويلاً ومات عام ٤٣٢م ، فخلفه في القيادة العامة سباستيان Sebastian زوج إبنته ، ولكنه لم يلبث أن طرده أيتيوس في العام التالي ، ومن ثم أضحى أيتيوس سيد الموقف والحاكم بأمره في الغرب (١) . وهكذا غرقت الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، في حمأة الحروب الأهلية والمنافسات على السلطة ، في وقت هي أشد ما تكون فيه حاجة إلى تركيز جهودها وتوحيد قواتها ضد الوندال .

أما الوندال ، فقد تمكنوا من فتح هيبو ، بعد أن دكوا حصونها وأخذوا القتل والأسر في أهلها الذي هبوا للدفاع عنها على أثر رحيل بونيفاس .

واقدم هدد انتصار الوندال ، الإمبراطورية الرومانية بشطريها ، لأن أفريقية لم تكن مجرد مخزن قمح للإمبراطورية الغربية ، بل أن وقوع موانئها في يد الوندال يهدد السيادة الرومانية في البحر المتوسط ، ويحرمها من أحسن موانئها وأقوى حصونها (٢) .

وبعد هذه المرحلة العاصفة من حياة الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، وضع للبلاط الإمبراطوري في رافنا استحالة اقتلاع الوندال من أفريقية ، كما وضع لجزريك من ناحية أخرى ، أهمية العمل على تثبيت فتوحه وتدعيمها ، وقد أدرك ملك الوندال صعوبة الاستيلاء على قرطاجنة العاصمة ، ليقظة المدافعين

Hist. History, P. 580.

(١)

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٧١ ، ٧٢

C. Med.;H. (Sh.), I, P. 90 ;

عنها ، ومناعة أسوارها وحصونها ؛ يضاف إلى ذلك أن جزريك كان في حاجة إلى فترة هدوء ، لكي يدعم عرشه الذي بدأ يهتز تحت سبب نزاع عائلي اشتد في ذلك الوقت ، ذلك أن أبناء أخيه جوندرك ، دأبوا على الطعن في خلق جزريك ، وتعييره بأصله ، إذا كان أخاً غير شرعي لجوندرك . حقيقة أعدمهم جزريك وأغرق أمهم في نهر امبساجا Ampsaga ، إلا أن تدمراً عاماً دب بين قومه ، وأدى إلى قيام مؤامرات ضده ، فأخذ يقتل كل من يشك في ولائه من الوندال حتى قيل أن ما أراقه من دماء قومه بيده ، يفوق ما أريق من دماهم في ميادين القتال . وهناك ثورة المغاربة والدوناتيين والكاثوليك ، كل ذلك هدده وهدد فتوحه الحديثة ، بل حدث أن عجز عن التقدم إلى قرطاجنة ، فاضطر إلى التقهقر بقواته ، وساعد أعداءه أن البحر كان مفتوحاً أمامهم دائماً ، مما يهدد بوصول الأساطيل الحربية من إيطاليا وأسبانيا ، فضلاً عن أنه قد تفكر بيزنطة في معاودة الكرة والاشتراك مع رافنا في قتال الوندال . وفي قلب نوميديا ، كانت مدينة كيرتا Cirta الحصينة — وهي قسنطينة الحالية — لا تزال تقاوم بعنف وعناد . كل هذه الصعوبات ، جعلته يطلب الصلح وهو في أوج انتصاره (١) ؛ بل أنه عرض استعداده لإرسال ابنه هنريك رهينة لضمان ولاء الوندال ، وطلب أن يعطى ما فتح ؛ والواقع أن جزريك لم يكن صادقاً في عرضه بالولاء والقناعة بما فتح ، وإنما هي المشاكل الداخلية وحاجته إلى الراحة فترة ، هي التي دفعته إلى طلب المفاوضة والصلح (٢) .

أشارا أيتيوس على الإمبراطور وأمه بقبول المعاهدة مع الوندال ، فأرسل الإمبراطور سفيراً من قبله لمفاوضة الوندال ، وكان هذا السفير تريجييتوس Trigetius (٣) أتم السفير الإمبراطوري الصلح ووقع في هيبو في ١١ فبراير

(١) Gibbon, PP. 336-338 ; Gautier, PP. 184-186 ; Berthelot, op. cit., P. 68.

(٢) Lot Les Invasions P. 89.

(٣) كان تريجييتوس أحد أعضاء الوفد الذي صحب الباباليو في عام ٤٥٢ فيما بعد لمقابلة أنيلا ملك الهون .

٤٣٥ م . وأهم شروطه : السماح للوندال بالبقاء في ولايات أفريقية الرومانية كإسبانيا ، باستثناء منطقة قرطاجنة ، وأن يدفعوا جزية سنوية (١) .

والمهم في هذه المعاهدة أن الإمبراطورية الرومانية اعترفت رسمياً بشرعية استقرار الوندال في أفريقية ، وأصدر الإمبراطور فالنتينيان الثالث عدة تشريعات إنسانية للتخفيف عن الرعايا الذين قاسوا من الوندال في موريتانيا ونوميديا ، فأعفاهم من ديونهم ، وأنقص الجزية المفروضة عليهم إلى الثمن ، ومنحهم حق استئناف الأحكام الصادرة من حكاهم إلى روما (٢) . أما تنفيذ شروط المعاهدة فلم يكن تاماً ، فلم يدفع جزيريك الجزية التي اعترف بها ، كما أن الرهينة هرب ، وحدث ملك الوندال في إيمانه بعدم الاعتداء .

أخذ جزيريك من مركزه الجديد المعترف به في موريتانيا وقيصرية استفسس (٣) نقطة وثوب على ما بقي من أملاك الرومان في شمالي أفريقية ، كما جعله مركزاً للقرصنة في البحر الأبيض .

وقبل أن تنقضى خمس سنوات على توقيع المعاهدة ، حتى قام جزيريك واقتحم قرطاجنة عنوة ، ونهبها واستباحها في ١٩ أكتوبر ٤٣٩ م ، فقد تراخت يقظة الحامية الرومانية فيها خلال تلك الفترة ، استولى على قرطاجنة بدون حرب تذكر ، فظفر بذلك بأحسن ميناء في غربي البحر الأبيض ، كما ظفر بحقول القمح التي طالما طمع فيها منذ أمد طويل (٤) . واتخذها عاصمة لمملكته في شمالي أفريقية ، وأعد قرطاجنة ، في نظر المعاصرين « روما العالم الأفريقي » (٥) .

(١) Deanesly P. 76 ; Hodgkin PP. 248-50; Hist. History PP. 579, 599.

Gibbon, P. 337, N. 2.

(٢) أنظر الخريطة

(٣) Moss, PP. 48-50 ; Gautier, PP. 189-191 ; Gibbon, PP. 338-339 ; C. (٤) Med. H., P. 91 ; Schmidt, op. cit., P. 306.

Gibbon, P. 338 ; Deanesly, P. 76 ; Hodgkin, PP. 250-51. (٥)

وقد تعرض سكان قرطاجنة لأقسى أنواع الاضطهاد والعنف ، إذ أمر جزريك جميع السكان باظهار ما لديهم من ذهب وفضة وجواهر وأثاث، وتسليم ذلك كله إلى مندوبيه ، ومن يحاول أن يخفي شيئاً ، يعاقب بالقتل والتعذيب باعتباره خائناً للدولة ، ولقى النبلاء وأعضاء السناتو أشد أنواع الاضطهاد والتشريد، وهرب الكثير منهم لاجئاً إلى إيطاليا أو الولايات الشرقية . ومن هؤلاء كايلاستيان Caelestian عضو السناتو النبيل في قرطاجنة ، اضطر إلى التسول هو وزوجته وأسرته وخدمه في البلاد الأجنبية ، كذلك ماري Maria ابنة أحد نبلاء قرطاجنة ، افتداها بعض التجار السوريين من الوندال ، لكنهم باعوها بعد ذلك في بلادهم ، حتى قبض الله لها بعض الأيدي الرحيمة فأنقذتها(١) . وهكذا ، كانت شنائع الوندال في قرطاجنة ، ولم تستطع الأمبراطورية الرومانية أن تفعل شيئاً .

أضحى الوندال سادة أفريقية الرومانية ، ويبدو أن جزريك اتخذ لقب « ملك » منذ استيلائه على قرطاجنة ، بدليل أن المؤرخ المعاصر فكتور فيتنس V. Vitensis قال : إن هجوم جزريك على روما (٤٥٥) كان في السنة الخامسة عشرة من حكمه ، كذلك أرخ له بروكبيوس وپروسپر ، باعتباره ملكاً منذ ذلك الحادث ؛ ثم أن القرارات والمراسيم التي أصدرها جزريك ، على أثر استيلائه على قرطاجنة كانت تنسبته بلقب « ملك الوندال والآلان » وأحياناً « ملك قرطاجنة » أو « ملك إفريقية » ؛ ويقول المؤرخ البيزنطي ثيوفانيز Theophanes : « لقب جزريك نفسه ملك البر والبحر(٢) » .

* * *

وبعد أن ثبت جزريك حكم الوندال في هيبورجوس وقرطاجنة ، وجه

Ibid, PP. 339-40 ; Hist. History, P. 579.

(١)

Oman, PP. 7-8.

(٢)

همته لبناء السفن ، رغم أن الوندال ، كعظم غيرهم من البرابرة لم يمرنوا على بناء السفن ، إلا أنهم أفادوا من نواة البحرية التي كان بونيفاس قد أمدهم بها سابقاً ، ومن ثم صار جزريك يمتلك أكبر قوة بحرية ضاربة في البحر المتوسط (١) . وأمضى جزريك بقية حياته ، حتى وفاته عام ٤٧٧ م ، في أعمال القرصنة ضد البلاد المساحلة للبحر الأبيض ، فتعرضت لغزوه ونهبه : إيطاليا وصقلية ومالطة وسواحل أسبانيا المطلة على المحيط الأطلسي ، بل وصلت غزوات الوندال البحرية إلى ساحل الليريا وبلاد البلوبونيز وجزر بحر ايجه ، وحتى الإسكندرية مفتاح البحر الأبيض (٢) .

على أن البلاد التي تعرضت لهجوم القراصنة الوندال ، لم تكن مقصودة بعينها أولدواتها ، إذ لم يكن هناك هدف معين في الهجوم على بلد دون آخر ، وإنما الهدف العام هو الحصول على المنعم بجانب الانتقام عن عرفهم الوندال واشتبكوا معهم ، وهم الرومان بشطريهم في الشرق والغرب . ويقال إن رجال البحرية الوندالية كانوا لا يعرفون الجهة التي سوف يهاجمونها ، فحينما تستعد السفن للابحار من ميناء قرطاجنة ، جرت العادة ، أن ينزل جزريك من قصره الذي يقيم فيه ، وكان هذا القصر قبلاً مقر حكام الولاية القنصلية الرومانية ، فيسأله ربان السفن عن أوامره ، وإلى أي اتجاه يسرون فيه ، فلا يجهد الملك جزريك نفسه طويلاً في تحديد الهدف ، بل يجيبه على الفور : «دعنا نذهب إلى مساكن أولئك الذين حلت عليهم لعنة الله ، ثم يترك الرياح والأمواج توجهه حيث شاءت (٣) .

والمرة الثانية ، وبعد نحو ستة قرون ، يبرز اسم قرطاجنة مخيفاً مرعباً لسكان ضفاف النيبير (روما) ، حتى أن الشعراء المعاصرين وتبهم المتأخرون منهم ،

Guaiter, PP. 217-21.

(١)

Deanesly, P. 77.

(٢)

Hodgkin, PP. 251-52.

(٣)

وصفوا غزوات جزريك لإيطاليا بأنها صورة أخرى من صور الحروب البونية ، واعتبروها حرباً بونية رابعة ، يقول سيدونيوس .

“Heu Facinus ! in bella iterum quartosque labores Perfida Eliseae crudescunt classica Byrsae”.(١)

وخلال السنوات التي تلت سقوط قرطاجنة مباشرة ، أضحت جزيرة صقلية الهدف الرئيسي لغزوات الوندال ، لشهرتها في إنتاج الفصح (٢) . ففي عام ٤٤٠ م اقتحم جزريك هذه الجزيرة ، وعاث فيها نهباً وتدميراً ، واضطر للوقوف فترة قصيرة والعودة إلى أفريقية ، حين بلغه نزول القائد الروماني الشجاع سباستيان زوج ابنة بونيفاس ، فلما علم أن هذا الضابط ما جاء محارباً ، ولكن جاء لاجئاً من اضطهاد ايتيوس ، استأنف عملياته الحربية في صقلية . وفشلت الحملة البيزنطية التي أرسلها الإمبراطور الشرقي تيودسيوس الثاني في عام ٤٤١ م ، لمعاونة الإمبراطورية الغربية في حروبها ضد الوندال ، ورجع فشلها إلى اختلاف كلمة قادتها ، من ناحية ، واضطرار بيزنطة لإعادتها عام ٤٤٢ م من ناحية أخرى لمواجهة خطر أتيل ملك الهون . وبذلك ضاعت الفرصة الوحيدة لإعادة أفريقية ، خلال انشغال جزريك في صقلية (٣) .

حينئذ شعر الإمبراطور فالنتينيان ومستشاره أيتيوس باليأس من ناحية مساعدة بيزنطة ، وبالعجز عن مقاومة الوندال ، فاضطرا لعقد معاهدة في عام ٤٤٢ م مع جزريك سلم بمقتضاها صقلية أو جزءاً كبيراً منها الوندال ، واعترفت للمعاهدة كذلك بحقوق الوندال في مملكتهم بأفريقية كماهدين . ولم يكن في يد الرومان من ساحل أفريقية الشمالي سوى الجزء الأوسط والشرقي من الساحل — الجزائر الحالية تقريباً — وطرابلس (٤) .

(1) Hodgkin, P. 253 ; Gautier, P. 217.

Deanesly, P. 76.

Hodgkin, P. 254 ; Gautier, PP. 221-225.

Villari, PP. 99-101 Boissonnade, P. 27 ; Gautier, PP. 226-32.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

ولضعف الأمبراطورية الغربية ، ظل ايتيوس يرضى مطامع ملك الوندال ، لكي يحول دون اعتداءات جديدة ، بل اقترح المستشار الروماني أن يتزوج هنريك أكبر أبناء جزريك من ابنة فالنتينيان الثالث الطفلة ؛ وكان هذا الطعم قد أغرى ملك الوندال بإعادة زوجه ابنة السابقة ، وهي ابنة ثيودريك الأول ملك القوط الغربيين في عام ٤٤٥م ؛ أعادها إلى أبيها في حالة سيئة مشينسة ، إذ قطع أذنيها وجردع أنفها ، بحجة أنها تأمرت على ابنه بدس السم له (١) . فكان هذا الحادث إهانة بالغة ، فضلا عن كونه نقضاً لاتفاقية سابقة بين القوط والوندال ، مما أثار القوط للانتقام من الوندال (٢) .

ومما لاشك فيه ، أن جزيرة صقلية ، أصبحت في ذلك الوقت ، أو بعده بقليل ، جزءاً من أملاك الوندال المعترف بها ؛ ومن المحتمل ، أنه قبيل وفاة جزريك في عام ٤٧٧م . كان الجزء الأكبر من الجزيرة ، قد تنازل عنه الوندال لأدواكر Odoacr الذي شل عرش أباطرة الغرب وأنهى الأمبراطورية الغربية منذ عام ٤٧٦م ، وكان هذا التنازل نظير جزية يدفعها أدواكر لملك الوندال (٣) .

الخلاصة ، لم تعد صقلية جزءاً من إيطاليا ؛ وهي التي ارتبطت بها منذ أقدم عصور التاريخ ، فضلاً عن الارتباط الجغرافي ؛ ورغم توقيع المعاهدة ، فلم يكف جزريك عن الغزوات وأعمال القراصنة ، إذ لم تنزل لديه المبررات الكافية للغزو في كل ربيع ، وذلك للنيل من البلاد التي « حلت عليها لعنة الله (٤) . »

Hist. History, P. 582.

(١)

(٢) دولة القوط الغربيين ص ٩١ .

C. Med. H. I, P. 91 ; Bradley, H., The Goths, PP. 110-111.

(٣) إبراهيم طرخان نهاية : الأمبراطورية الغربية (مجلة الآداب - جامعة القاهرة - العدد

التذكاري ١٩٦٢) ; Hodgkin, P. 255, N.G., PP. 503-504.

Hodgkin, P. 255.

(٤)

أما جزائر البحر الأبيض الأخرى ، مثل سردينيا وقورشقة وجزر البليار ، فالمعروف أن سيطرة الوندال عليها . كانت أسبق وأقوى من سيطرتهم على صقلية ، بل أن هذه الجزائر كانت أكثر ارتباطاً بمملكة الوندال . من صقلية .

وبعد سبع وعشرين سنة من دخول البرابرة الوندال أفريقية ، وبعد اتخاذهم قرطاجنة عاصمة لدولتهم ، بستة عشر عاماً ، استصرخت الأرملة أيودكسيا Eudoxia ، عقب مقتل زوجها الأمبراطور فالنتينيان الثالث ، في ١٦ مارس من عام ٤٥٥ م ، بنحو ثلاثة شهور ، طالبة تدخل جزريك ملك الوندال لمساعدتها ، فقد حدث أن تخلص الأمبراطور من ايتيوس ، فانتقم أنصاره بقتل الأمبراطور (١) . ولم يتحرك أحد للدفاع عن الأمبراطور ، مما يدل على أنه كان كريهاً لشعبه وحكومته ، وبمقتله انقضى فرع تيودسيوس العظيم ، وانتخب الناس والجيش بترونيوس ماكسيموس Petr-Maximus عضو السناتو وكان في السنين من عمره في ذلك الوقت ، فأجبر أيودكسيا على الزواج منه ، وعلى تزويج ابنه قيصر بلاديوس C. Palladius من إحدى بناتها لكي يضمن العرش لابنه من بعده ، فضلاً عن تدعيم سلطته ، ولكنه فشل في كسب قلب الأمبراطورة الحزينة وفي الاحتفاظ بعرشه . ومن ناحية أخرى لم يفعل شيئاً نحو قتلة الأمبراطور فالنتينيان ، بل على العكس قربهم منه ، مما يحمل على الظن أن له يدأ في مقتل سلفه (٢) . أو أنه كان يخشى بطش البرابرة ، أو يخشى مصيراً مثل مصير فالنتينيان .

لم تكف أيودكسيا عن الحزن على زوجها ، وكانت معروفة بأنها أجمل

(١) راجع تفاصيل هذه الأحداث في بحث : نهاية الأمبراطورية الرومانية الغربية ، (مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة العدد التذكاري ١٩٦٢) .

نساء روما ، وكانت تحب زوجها رغم سلوكه الشخصي وخيانتة الزوجية ، شعرت بالحزن والعار لزواجها من كهل وهي لم تتجاوز الرابعة والثلاثين من عمرها (١) .
وفقدت كل أمل في مساعدة القسم الشرقى من الإمبراطورية ، إذ كانت عمها بلكاريا Pulcharia ، ابنة الإمبراطور ارКАДيوس ، قد ماتت في بيزنطة منذ عام ٤٥٣ م ، وهي آخر فرع تيودسيوس في الشرق ، وكانت تحكم في الشرق باسم أخيها تيودسيوس الثانى . لم تجد ايودكسيا بداً من الاستغاثة بملك الوندال ، ووصل سفيرها سرأ إلى قرطاجنة ، حيث أبدى استعدادة التام لغزو المدينة الخالدة ، وسيدة المدن ، تحت ستار نصره أسرة فالنتيان .

ولما شاع في روما نبأ قدوم الوندال ، هرب نبلاء المدينة ، ولم يفعل الإمبراطور ما كسيموس شيئاً للدفاع أو المقاومة ، بل أصدر مرسوماً أباح فيه الهروب لمن يريد مغادرة المدينة ، والواقع أنه كان في قصره يمد لنفسه الطريق للهرب ، غير أن المخلصين من أبناء روما ، غضبوا من هذا التصرف العاجز ، بعد أن وضعوا في الإمبراطور ثقتهم وتوقعوا أن يقوم بأى إجراء لمقاولة هذه الكارثة ، التى كان سبباً فيها ، ثار الجنود وحال خدم القصر وحراسه دون فرار الإمبراطور ، ودخلوا عليه وقطعوه بسيوفهم ، وجروه في شوارع المدينة ، فشاركهم الناس فى التمثيل ، ثم ألقوه فى نهر التيبر ، حتى لا تقام له طقوس الدفن (٢) . وقع هذا الحادث فى ٣١ مايو ٤٥٥ م ، أى بعد ولايته العرش بأقل من ثلاثة شهور (٣) .

لم يكن جزريك بحاجة إلى رسالة من ايودكسيا ، تدعوه فيها لغزو روما ، فهو يتحرق شوقاً لمداومة المدينة الخالدة ، وهى التى « حلت عليها اللعنة » فى هذه المرة . وسرعان ما شوهد أسطول الوندال فى أوستيا Ostia ميناء روما ، وذلك

Ibid.

Villari, P. 125.

Hist. History, P. 600 ; Hodgkin, PP. 195-205.

(١)

(٢)

(٣)

في اليوم الثالث بعد مقتل ماكسيموس (٢ يونية) (١). تقدم جزريك نحو روما بمحشوده من الوندال والمغاربة (٢). فلم يسمع البابا ليو الأول إلا الخروج على رأس وفد من رجال الدين ، بعد أن ألقى خطبة حماسية في كنيسة القديس بطرس وكان يرجو أن يفعل شيئاً لحماية المدينة ، كما نجح من قبل عندما التقى بملك الهون أتيلاعلى ضفاف نهر منشيو Mincio منذ ثلاث سنوات . كان نجاح البابا ليو محدوداً ، كما كان الشأن في مقابله السابقة مع الهون (٣). والواقع إن جزريك لم يهدف من غزوته هذه إلى شيء سوى النهب والغنيمة ، ولم يطمع في السلطان أو الحكم . قبل جزريك أن يحقن دماء أهل المدينة ، وألا يحرق المباني العامة أو الخاصة ، كذلك وافق ، بعد كثير من التردد ، على ألا يعذب أحداً ليعترف بكنوز ثروة مخبوءة ؛ غير أن أوامر جزريك لرجاله لم تكن جادة ، أو أنها لم تنفذه .

دخل ملك الوندال مدينة روما ، بعد هذه المقابلة ممتطياً صهوة جواده ، وتجول في هدوء داخل شوارعها ، وظل بها خمسة عشر يوماً ، تعرضت فيها روما لشرا أنواع النهب والسلب والاستباحة ، فلم يتقيد كثيراً بما اتفق عليه مع البابا ، نهب ما استطاع الحصول عليه من ذهب وفضة ونحاس من القصر الإمبراطوري ، ونهب الكنائس ، فاستولى على ما فيها من كنوز وجواهر وأواني ، وانتزع نصف سقف الكابيتول وهو معبد الإله جو بتير كبير آلهة الرومان ، وكان مصنوعاً من أجود أنواع البرونز ومغطى بطبقة سميكه من الذهب في غاية الروعة الفنية ، ويحتمل أن الوندال ظنوا في بادئ الأمر أن السقف كله مصنوع من الذهب فلما بدأوا ينتزعونه ، وجدوه من النحاس ، ولعل هذا هو سبب اكتفائهم بنصفه ، استولوا كذلك على أروع التماثيل التي وجدوها ، غير أن السفينة التي

Gautier, PP. 232-33

Hist. History; P. 601.

Villari, P. 125..

(١)

(٢)

(٣)

شجنت فيها هذه التماثيل ، غرقت بها في عودتها ، فاختنى بذلك أجل التماثيل
لآلهة الرومان مثل الإلهة فون Faun آلهة الحقول نيمف Nymph إلهة
الغابات وغيرها (١) .

ورغم شنائع الوندال في البلاد التي غزوها ، فإنهم لم يشنوا حرباً مبيدة ضد
العبارة والفنون ، وكل ما كان يهمهم هو الذهب والفضة والأحجار الكريمة ؛
ومع ما فعلوه هذه المرة في روما ، فإنهم لم يفعلوا الكثير بالمقارنة بما فعله غيرهم مثل
القوط الشرقيين والبيزنطيين واللومبارد ، وعلى رأس المدمرين جميعاً النورمان ،
بل البارونات الرومان أنفسهم في العصور الوسطى ، ولذا لا يلام الوندال ، على
الرغم من المثل النازل بالوندل 'Vandalism' ، أو التخريب ، فإنهم أقل إجراماً
من غيرهم في تدمير الآثار الفنية .

كان من بين المنهوبات التي نقلت إلى قرطاجنة الأواني المقدسة الخاصة
بالمعبد اليهودي ، مثل المنضدة الذهبية والشمعدان الذهبي ذي السبعة فروع ويؤكد
بروكبيوس سكرتير بلزار يوس ، أنه عند القضاء على الوندال فيما بعد ، عثر في قصر
جليمر Gelimer آخر ملوك الوندال ، على هذه الأواني وعلى الكثير من الجواهر
والتحف مثل السروج الذهبية ، والعربات المذهبة المخصصة لسيدات القصر ،
وكميات كبيرة من الذهب ، والأحجار الكريمة . وهذه كلها حملت إلى بيزنطة ،
وأضفت على انتصار بلزار يوس روعة وبيهاء (٢) .

(١) Schmidt, op. cit., P. 308 ; Historian's Hist., P. 601 ; Hodgkin, PP. 284-86 ; Guaiter, PP. 235-38.

(٢) نقلت الأواني المقدسة الخاصة بالمعبد اليهودي ثانياً إلى القدس ، حيث وضعت
في الكنائس المسيحية ، وعندما رآها أحد اليهود ، علق بقوله لأحد أصدقاء الأباطور ،
بأنها شوم على المكان الذي تحمل به ، فقد أدى وجودها في روما إلى غزو الوندال لها ، ثم أدى
نقلها إلى قرطاجنة إلى القضاء على الوندال أنفسهم . وهي في ذلك تشبه وجود « سفتا موسى »
في مدن فلسطين (Hodgkin, P. 286) أنظر ما يلي Davis, P. 23

أخذ جزريك في عودته من روما عدداً كبيراً من الأسرى ، يقدر بيضنة آلاف من الذكور والإناث ، ومن بين الأسرى أيودكسيا — وهي أرملة اثنين من الأباطرة ، وابنة إمبراطور ثالث (تيودسيوس الثاني) — وكذلك أسر ابنتها أيودكسيا وبلاسيديا Placidia ، ويبدو أنه كان في أسر الأباطرة وابنتيها حماية لمن من غضب الرومان ، حتى لا يقعن فريسة لأهل روما الساخطين . ومن بين الأسرى كذلك جودنتيوس Gudentius بن ايتيوس ، وكان هذا الابن قد تقدم من قبل للزواج من إحدى ابنتي الإمبراطور . زوج جزريك أيودكسيا الأبنة ، وهي الكبرى ، من هنريك أكبر أبنائه ، في نفس الشهر (يونية ٤٥٥) (١) ، أما أيودكسيا الأم والبنت الثانية ، فعاملهما ملك الوندال بكل احترام ورعاية ، ووفر لهما الحياة الكريمة في القصر الملكي بقرطاجنة ، وظل أمرهن على هذا النحو لمدة سبع سنوات (٢) .

وضم الأسرى عدداً كبيراً من المدنيين وأرباب الحرف وأصحاب الكفاءات النادرة ، وقد وزع هؤلاء الأسرى رقيقاً على رجاله ، ولذا لا بد وأن الدماء الرومانية قد امتزجت بالسكان في أفريقية الشمالية ، وكثير من سكان جبال الأطلس الحاليين ، لا بد وأنهم من سلالة هذا المزيج ؛ ومع أن الأسرى الرومان لم يلقوا الكثير من سوء المعاملة من جانب الوندال ، إلا أن ديوجراتياس Diogratias أسقف قرطاجنة ، بذل ما استطاع من جهد لمساعدة الأسرى والتخفيف عنهم ، إذ باع جميع الأواني الذهبية ومجوهرات الكنيسة وكنوزها ، وافتدى كثيراً من الأسرى ، ولكي لا تنفصم الروابط الأسرية ، نتيجة افتراق الكثير من هؤلاء الأسرى عن عائلاتهم ، إذ كان جزريك في توزيعه الأسرى

(١) Lot, Les Invasions, P. 115 ; Deanesly, P. 77 ; Dill, PP. 335-6 ; Souttar, (١) P. 328.

(٢) أعاد جزريك أيودكسيا الأم وابنتها بلاسيديا إلى القسطنطينية ، تحت إلهام الإمبراطور الشرقي ليو ، وفي بينقطة تزوجت بلاسيديا من أولييريوس Olburius عضو السناتور ، وهو الذي صار إمبراطوراً على الغرب فيما بعد .

على قومه ، كان يفرق بين الزوجة وزوجها وأطفالها وأبويها ، عمل أسقف قرطاجنة على توفير المسكن الصالح لجميع أفراد عائلات الأسرى ، ممن لم يستطع اقتدائه ، وذلك بأفراد كتدراييتين لهم ، وحول هاتين الكدراييتين إلى مستشفيات وأعد فيها الفراش وجميع ما يلزم لإقامة الأسرى ، وتولى بنفسه الإشراف عليهم ومواساتهم ، فكان يزورهم مرتين في كل يوم ، ويشرف على طعامهم ، ويصحب الأطباء لمعالجتهم ، وخلال قيامه بهذا العمل العظيم ، مات مأسوف عليه ، فحزن الأسرى عليه أعمق الحزن ، ودفن في مكان سرى ، حتى لا تتعرض جثته إلى السرقة على هواة جمع آثار القديسين (١) .

* * *

وهكذا قامت دولة الوندال في شمال أفريقية ، وعجزت الأمبراطورية الرومانية بشرطها عن صد أخطارهم أو اقتلاعهم من أفريقية ، وظلت الأمبراطورية الغربية في الفترة ما بين ٤٥٦ م ٤٧٢ م في اضطراب داخلي متصل الحلقات ، حتى سقطت نهائياً في عام ٤٧٦ م (٢) .

— ٤ —

بدأ حكم الوندال في شمالي أفريقية ، من العاصمة قرطاجنة عام ٤٣٩ م ؛ وكانت الأمبراطورية الرومانية في الغرب ، قد اعترفت بوصفهم « معاهدين » Foedrati منذ عام ٤٣٥ م ثم اعترفت باستقلالهم في عام ٤٤٢ م (٣) .

وحكومة الوندال ملكية استبدادية ، وظلت كذلك زمن جزريك وخلفائه من بعده ، حتى زال ملكهم من أفريقية ، والملاحظ أن هذا النظام الاستبدادي ، لم يكن سائداً عند الجرمان الآخرين الذين أخذوا بنظام الملكية ، مثل القوط

(١) Hodgkin, PP. 286-89 ; Hist. History, P. 602 ; Villari, P. 127.

(٢) نهاية الأمبراطورية الرومانية في الغرب .

Deanesly, P. 78.

(٣)

والفرنجة ، ولذا فإن حكومة الوندال أقرب ما تكون إلى حكم الطغاة ، الذين عرفوا في تاريخ الإغريق القديم ، حقيقة تشابهت حكومة الوندال مع بعض حكومات الجرمان ، من حيث إن الملكية محصورة في بيت معين ، ذى أصول مقدسة ، إلا أن سلطة المجالس الملكية كانت تختلف ، فلم يكن لمجلس نبلاء الوندال من السلطة والوزن مثلما كان لمجلس نبلاء الفرنجة أو مجلس طليطلة القوطي (١) .

انحصرت الملكية الوندالية في بيت الأسديين Asdingi ، وهو البيت الذى انحدر منه الملك جزريك وخلفاؤه . ومن دلائل قوة الملكية وطغيانها ، أن جزريك ، أقدر البرابرة في عصره (٢) ، قد طرح ذلك التقليد الذى نشأ بين حكومات البرابرة الأخرى ، وهو تقسيم الملك أنصبه كأنه إرث ، بين الأبناء ، مما كان من أخطر معاول الهدم لتلك الملكيات بعد زوال مؤسسيها . لقد أوصى جزريك ولى عهده ، بأن يكون الحاكم الأعلى مسلطاً على جميع أملاك الوندال كتلة واحدة غير مجزأة ، فدللت هذه القاعدة على حصافته السياسية ، كما قوبلت قاعدة ولاية العرش لأكبر أعضاء الأسرة المالكة ، بالرضا التام ، إذ ليس من الضروري أن يكون أكبر أبناء الملك ، وهذا تقليد تيوتوني قديم (٣) .

غير أن هذا التقليد أدى إلى بعض المشاكل حول وراثة العرش من بعد جزريك ، إذ حدث أن حاول هنريك أكبر أبناء جزريك وخليفته من بعده ، أن يولى ابنه من بعده ، ومن أجل ذلك ذبح أخوته وأبناءهم باستثناء اثنين هما وليا أخيه الأصغر جنزو Genzo ، فقد تمكن هذان الإبنان من الهرب (٤) .

(١) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٣٢ - ١٤١ .

(٢) فشر (نفسه) ص ٣٠ .

Deanesly, P. 77 ; Oman, P. 11 ; Schmidt, P. 318.

(٣)

Oman, P. 11.

(٤)

وربما كان من أسباب قوة الملكية الوندالية ، أن منابع الثروة عند الوندال ، لم تعتمد اعتماداً كلياً على الأرض ، أو على أعمال وخدمات طبقة من المحاربين يحاربون أساساً على الأرض ، وذلك على عكس الفرنجة الذين اتجهوا إلى الأرض ، على أثر استقرارهم في الغال ، بعد فترة الإضطرابات والفتوح ، فاعتمدوا على ماتغله أراضيهم وأملاكهم ، وكذلك على ما يجبونه من مكوس وضرائب على التجارة ، أما الوندال فاعتمدوا بصفة أساسية على ما يحصلون عليه من أسلاب ومغانم عن طريق القرصنة ، إذ استولوا على كثير من السفن الإغريقية ، وأصبح لهم أسطول بحري ضخم يتحكم في البحر المتوسط ، حتى أصبحت روما ، لأول مرة ، منذ الحرب البونية الثالثة في القرن الثالث قبل الميلاد تحت ، رحمة بحرية تفوقها قوة وضخامة^(١) واستطاعت البحرية الوندالية أن تنتزع منها صقلية وسردينية وقورشة وجزر البليار وغيرها ، أدرك الوندال أن النهب المباشر أسهل مثلاً وأسرع ربحاً وأكثره ، وإن لم يكن أبقاه ، وأهلوا العمل الأصيل في احتكار مصادر هذا الربح مثلاً ، كتجارة البحر المتوسط ، مما أدى في نهاية الأمر إلى القضاء على هذه التجارة ، وعلى الوندال أنفسهم . ومن ناحية أخرى ، أدرك ملك الوندال أن رعايا ، أو أتباعاً أثرياء ، عن طريق القرصنة ، أقل خطراً على عرشه وسلطانه من منافسات طبقة من ملاك الأراضي والنبلاء المحاربين^(٢) .

وفيما يتعلق بالجهاز الإداري في دولة الوندال ، ترك جزريك الشيء الكثير منه إلى الموظفين الرومان لخبرتهم الطويلة في الحكم والإدارة ، ومن غير شك كانت رغبات الوندال وتدخل الملك واضحة في جميع الشؤون ، فعمل كبار النبلاء وجميع الموظفين ، كل في اختصاصه ، داخل إطار الطاعة والخضوع دون أدنى معارضة أو احتجاج ، مهما كانت أوامر الملك^(٣) . أبقى جزريك على فروع الإدارة

Deanesly, PP. 78-9.

Hodgkin, P. 263.

Oman, PP. 28-30 ; Hodgkin, P. 263 ; Stephenson, PP. 52, 78.

(١)

(٢)

(٣)

اليومية في أيدي البيروقراطية الرومانية ، وهذه مما لا طاقة للجerman بالصبر عليها وممارستها وتنظيمها ، وهذا هو السبب في أننا نجد ، تحت حكم الوندال ، نحا كما على قرطاجنة ، بلقب نائب قنصل Proconsul ، وكذلك حاكم الأقليم في حكومة الوندال بلقب Primarius Provinciae ، وهناك رئيس الحجاب أو رئيس الديوان الملكي : Praepositus sacri cubiculi . أما الاختصاصات التفصيلية المحددة لهؤلاء الموظفين ، فغير واضحة زمن الوندال (١) ، إذ المعروف أن الوندال لم يأخذوا بالحضارة الرومانية قبل دخولهم أفريقية ، ولم يتشبعوا بها وهم في أفريقية (٢) .

أما سياسة الوندال نحو الأراضي التي فتحوها في أفريقية ، فلم تتقيد بالمبدأ القديم الذي طبق في الإمبراطورية الرومانية لصالح البرابرة المتسلطين ، وهو مصادرة أو ضم الأراضي للمعاهدين منهم . كضيافة إجبارية لهم وقد فعل ذلك ، أدواكر وثيودريك في إيطاليا ولكنهم صادروا معظم الأراضي واستولوا عليها ووزعوها بينهم (٣) ، وبدأ جزيريك هذه العملية ، وأكملها بعد فتح قرطاجنة مباشرة ، والملاحظ ، أنه بمقتضى معاهدة ٤٤٢م ، كانت هناك بعض الأراضي التي ظلت بيد الإمبراطورية في طرابلس وموريتانيا ولكن ملك الوندال أكل استيلاءه على جميع هذه الأراضي ، عقب وفاة الإمبراطور فالنتنيان الثالث (٤) .

اختار جزيريك أجود الأراضي المملوكة لكبار أهل أفريقية الرومانية من النبلاء والأشراف والأثرياء ، ووزعها وأصحابها رقيقاً Servi على ولديه هنريك وجنزوني Genzoni . ومعنى ذلك أنه احتفظ لنفسه ولأولاده بولايات : بيزا كينا وأباريتان Abaritan وجيتوليا Gaetulia وجزء من نوميديا ، وهذه هي أجود الأراضي

Hodgkin, P. 263 ; Oman, P. 28.

(١)

Chapot, P. 466.

(٢)

Deanesly, P. 78.

(٣)

Hodgkin, P. 263 ; Oman, P. 8.

(٤)

في شمالى أفريقية ، ومن هذه الأراضى المنتخبة تكون الخاص للملكى أوالدومين
Dominicum ، وهى على حد تعبير المؤرخ فيكتور فيتنس : « أرض سيدنا
جزريك : "Gaisericus ; Dominicus noster . أى أن هذا الدومين
الضخم يمثل تقريباً كل الولايتين الكبيرتين ، نوميديا وبيزا كينا وبعض أجزاء
الولاية القنصلية زوجتانا Zeugitana (١) . وهذه الولاية الأخيرة أصغر
الولايات ، إذ تبلغ نحو مائة ميل فى خمسين ميل ، لكنها من غير شك أغنى
الولايات ، وتقع قرطاجنة فى وسطها (٢) .

وصادر جزريك معظم أملاك عامة الأفريقيين الرومان ، ووزع هذه الأملاك
إقطاعات على قومه من الوندال ، ولكنه تلطف مع هؤلاء الأفريقيين ، وسمح لهم
باسترداد أراضيهم نظير دفع أثمنها ، أى يشترونها مرة ثانية ، إلا أن الجزء الأكبر
من أراضيهم قسم بين الوندال ولاسيما الأراضى الخصبية أما الأقل جودة والمتفرقة
فقد تركها لهم ، ووزع مما صادر على طبقة الحاربين من قومه ، إقطاعات وراثية ،
بشرط أداء الخدمة الحربية ، مع إعفائهم من جميع الضرائب (٣) .

وعرفت التوزيعات الإقطاعية ، أو الأراضى التى وزعها إقطاعات باسم :
إقطاعات الوندال Sortes Vandalorum (٤) . والمعنى الحرفى لهذا المصطلح :
الحصص أو التقسيمات الوندالية ، وكلمة سهم أو حصص أو نصيب Sors ، عرفت
عند القوط الغربيين وعند الفرنجة البريين على الراين ، وكذلك عند البرجنديين
على شواطئ بحيرة جنيف (٥) .

Gautier, PP. 203-210 ; Hodgkin, PP. 257-8.

Gibbon, P. 339 ; Hist. History, P. 579.

Hodgkin, PP. 257-8.

Oman, P. 8.

Deanesly, P. 78 ; Hodgkin, PP. 256, 259.

(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)

ومن هذا التوزيع تبدو بذور النظام الإقطاعي الذي تمخض عنه تدهور المجتمع الفرنسي إبان حكم الكارولنجيين ، مع العلم بأن له أصولاً كذلك ترجع إلى الميروفنجيين أسلاف الكارولنجيين (١) .

وليس من المعقول أن يترك الوندال أغلبية سكان دولتهم الجديدة في أفريقية أحراراً ، فإن الضياع الواسعة التي حازها الملك وأولاده ورجال جيشه ، كانت في حاجة كبيرة إلى جيش كبير من العبيد لزراعتها واستغلالها ، ولذلك انحدر جميع رعايا الوندال من الأفريقيين إلى طبقة العبيد ، وبصفة خاصة ، أولئك الأثرياء من الملاك الذين صودرت أملاكهم ، مما يدل على صلف البرابرة وعتوهم ، ولكن بمرور الزمن ، أثبت أصحاب المدينة القديمة والثقافة العالية وجودهم وأهميتهم ، إذ لم يلبث أولئك الأرقاء الأرستقراطيون من المستوطنين الرومان ، أن صاروا القوة المحركة لزملائهم من الأرقاء الخاضعين للوندال ، حتى قيل ، إنه إذا طال أمد الحكومة الوندالية ، على النحو الذي سارت إليه في طريق الانهيار ، لن يكون هذا إلا لحساب هذه الطبقة المستنيرة ، التي سوف تسيطر على مجرى الحوادث وعلى مصير الوندال أنفسهم .

أما طبقة الفقراء ، فهم وإن تركوا أحراراً فيما أبقى لهم الوندال من أملاك ، إلا أنهم أثقلوا بأنواع الضرائب المختلفة ، حتى حاول الكثير منهم الفرار ، ومن قبض عليه أعدم (٢) . وهكذا قاسى جميع السكان من رعايا الوندال . ويمكن أن نتبين طبقتين فقط في مجتمع الدولة الوندالية في شمالي أفريقية هما : الطبقة العليا ، وتشمل الوندال وما اندمج فيهم من العناصر البربرية الأخرى مثل الآلان . وهذه الطبقة معفاة من الضرائب . والطبقة الثانية هي الطبقة الدنيا ، وتشمل جميع من

(١) Ganshoff, F.L., Feudalism, PP. 100-101 ; Seignbos, Ch., L'Europe Féodale (Hist. Générale), T. II, P. 1.

(٢) سعيد عاشور : أوروبا المصور الوسطى ج ١ ص ٧١ - ٧٢ و ٧٨-٧٩, Oman, PP. 7-8.

عدا الوندال من الرعايا ، وعلى هذه الطبقة كل الغرم . ومثل هذا التقسيم الجائر وجد في فرنسا في العصور الوسطى ، ولم يقض عليه إلا بقيام الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر (١) .

ومن حيث الجيش الوندالي ونظامه ، فالمعروف أن القوة الحربية عند الوندال كانت تتكون من الوندال أنفسهم ومن حلفائهم الذين ارتبطوا بهم أو اندمجوا فيهم مثل : الآلان الإيرانيين والهيروليين (٢) . الجرمان وبعض القوط وبعض السويف . اندمجت هذه العناصر بالوندال ، حتى لم يعد هناك تمييز بينها وبين الوندال . وبجانب هؤلاء البرابرة كان هناك فرقة من المغاربة دخلت في خدمة الوندال ، ولها رؤساؤها الوطنيون من المغاربة أنفسهم ، وكثيراً ما كان جزريك يرسل المغاربة سنوياً لغزو إيطاليا أو صقلية (٣) .

وامتلك الوندال قوة بحرية ضخمة ، أصبحت في وقت من الأوقات أخطر قوة بحرية في البحر المتوسط ، واكتسب بحارتهم خبرة بحرية ساعدتهم على بث الرعب والفرع عند سكان شواطئ هذا البحر ، ولو أن حروب الوندال البحرية كانت أقرب إلى القرصنة منها إلى الحرب المنظمة .

وبذل جزريك جهداً كبيراً في الأخذ بأساليب الجيش الروماني من حيث التنظيم ، فنظم جيشه على الأساس العشري ، كما يقول المؤرخ بروكبيوس ، وهو نظام قديم عرف في الشرق والغرب على السواء . واقتضى هذا التنظيم أن يكون على رأس كل فرقة مكونة من ألف محارب ضابط بلقب دوق Dux أو مقدم ألف Chiliarck أو Millenarii (٣) .

(١) Gautier, PP. 203-210 ; Hodgkin, PP. 259 ; Schmidt, P. 316.

(٢) الهيروليون أعظم القبائل الجرمانية وحشية ، وأقام بعضهم في أول الأمر عند شواطئ بحر أزوف شمال البحر الأسود (Lot, P. 52) .

(٣) Deanesly, P. 80 ; Hodgkin, P. 256 ; Schmidt, P. 320

أما سياسة الوندال الدينية ، فكانت متعصبة لمذهبهم الأريوسى ، ويعتبر الوندال فريدين بين البرابرة من حيث شدة التعصب (١) ؛ جاءوا إلى أفريقية وهم على المذهب الأريوسى منذ قرن مضى ، وكانت أفريقية فى تلك الفترة بيئة تتنازعها الأهواء الدينية مما سهل عليهم فتحها (٢) . فبدأت علاقتهم بالرعايا الكاثوليك سيئة منذ أول ، إذ لم يلبث جزريك ملك الوندال ، أن صادر أملاك الكنائس الكاثوليكية ونقلها إلى الكنائس الأريوسية (٣) . وكتب المؤرخ المعاصر فكتور فيتنس V. Vitensis رسالة عن الاضطهادات الوندالية "De Persecutione Vandolorum" وقال فيها : إن الوندال دمروا الكنائس والكتدراثيات والمقابر والأديرة ، وأحرقوا جميع بيوت العبادة ، وقتلوا الأساقفة ورجال الدين ، وأذاقوا من لم يقتلوه ألواناً مختلفة من العذاب ، كأن يفتحوا أفواههم ويتركونها مفتوحة بالأوتاد والخوابير، وقد يملأونها بالقاذورات، ووضعوا الصخور على ظهورهم ، وأهانوا النساء وكبار القوم وخطفوا الأطفال من أمهاتهم ، وهكذا . غير أنه مما لا شك فيه إن هذا المؤرخ كان مبالغاً فيما كتب إذ كان يكتب تحت تأثير قوميته وتمصبه لمذهبه ، رغم أنه معاصر ، حقيقة ارتكب الوندال الكثير من المنكرات ، شأن البرابرة المتسلطين واسترقوا بعض رجال الدين ونفوا الكثير منهم ، لكن من المبالغة أن نقول : إنهم قتلوا أسراهم أمام المدن المسورة ، فهناك خطر انتشار الأوبئة ، وهم يدركون تماماً أنهم أول ضحايا الأوبئة ؛ ويحتمل أن لكلمة الوندال والوندالية أو الوندلة 'Vandalism' علاقة بالاضطهاد الدينى أكثر من دلالاتها على الكراهة الجنسية لأولئك القراصنة ، وما اقترن باسمهم من تخريب وتدمير (٤) .

Lot, P. 89 ; Schmidt, P. 321

Gautier, PP. 199-200 ; Hodgkin, P. 265.

Oman, P. 9.

Deanesly, P. 79 ; Hodgkin, PP. 296-71.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

حاول جزريك أن يحول بعض الكاثوليك البارزين إلى المذهب الأريوسى ومن هؤلاء : الضابط سباستيان ، صهر بونيفاس ، الذى هام على وجهه فى الأرض فراراً من اضطهاد ايتيوس ، فأتجه إلى القسطنطية أولاً ، ثم إلى بلاط القوط الغربيين ، واستولى على برشلونة من الأمبراطورية الغربية ، لصالح ثيودريك ملك القوط الغربيين ، ولما ساءت علاقته مع القوط ، توجه إلى جزريك فى أفريقية حيث رحب به ، بعد أن اطمأن إليه ، وعينه فى منصب رفيع ، ولما كان سباستيان كاثوليكياً ، لم يطمئن جزريك إلى ولائه ، فدعاه يوماً إلى حضرته ، وعرض عليه اعتناق المذهب الأريوسى ، فأبى سباستيان فى أدب وشجاعة ومنطق ، غضب جزريك ، وأمر بإعدامه بعد ذلك (١) .

كذلك أعدم جزريك أربعة آخرين من الكاثوليك ، وهم من أصل أسباني ، أخلصوا لملك الوندال ، حتى صاروا من أقرب مستشاريه ، وهم : أركاديوس وبروبس Probus وباسكاسيوس Paschasius ويوتكيوس Euty chius ، وذلك على أثر رفضهم اعتناق المذهب الأريوسى ، وأظهر هؤلاء الضحايا شجاعة نادرة وصلابة محمودة فى الحفاظ على عقائدهم ، ولم تغرم الوعود بالثروة والجاه أما العاديون من الكاثوليك الذين يخدمون فى حكومة الوندال ، فلم يتعرضوا للاضطهاد العنيف الذى حل بكبار الكاثوليك ، مهما كانت خدماتهم للوندال .

لم يكن جزريك وخلفاؤه ، من بعده ، يعترفون إطلاقاً بحق الفرد فى اختيار العقيدة التى يؤمن بصحتها ، ويحتمل أن الوندال تعصبوا لمذهبهم خلال الجيل الأول الذى تلا الفتح مباشرة .

وبعد وفاة جزريك فى ٢٥ يناير ٤٧٧م ، خلفه ابنه هنريك ، زوج الأميرة

الرومانية أيودكسيا . ولما شعر هنريك بخطورة النزاع بينه وبين بيزنطة حول مصير أيودكسيا . فكر في إعادة هيئة الأكليروس الكاثوليكي في قرطاجنة عام ٤٨١م لكنه لم يلبث أن أدرك أنه لم يعد هناك ثمة ما يخشاه من جانب روما الشرقية (١) ، ولذلك تابع سياسية سلفه في اضطهاد الكاثوليك ، ولم يعبأ بتأثير زوجته فيه ، انتقم ممن كان يخشى خطرهم ، سواء أ كانوا داخل قصره أو خارجه من أتباعه وخدمه وحشمه من الكاثوليك . وعلق المؤرخ بروكبيوس على سياسة هنريك الدينية ، بأنه لم يكن هناك ملك اضطهد المسيحية بمثل القسوة التي عالجها هنريك إذ كان من بين وسائل الاضطهاد عنده الإحراق بالنار . وبمقتضى القرار الذي أصدره هنريك في ٢٤١ يناير من عام ٤٨٤م ، أمر بتطبيق جميع القرارات الانتقامية أو الاضطهادية التي كان أباطرة الرومان قد أصدروها ضد أصحاب المذاهب المخالفة ، إلا إذا تحولوا للعقيدة الرسمية الوندالية (الأريوسية) فطرد الكثير من الأساقفة ، الكاثوليك إلى جزيرة سردينيا ، واستخدم الأموال التي جباها من مصادرة أملاك الكنائس الكاثوليكية في بناء كنائس أريوسية جديدة ، وفصل الموظفين الكاثوليك من مناصبهم ، وفرض غرامات مالية على جميع الكاثوليك ، كل بحسب ثروته ومكانته ، وكلف الأريوسيين بتنفيذ قراره التعسفية . ولم تجد احتجاجات الإمبراطور البيزنطي واحتجاجات البابا (٢) .

خلف هنريك حاكماً أكثر اعتدالاً منه ، هما الأخوان جوثاموند (٤٨٤ — ٤٩٦ م) ، ثراساموند Thrasamund (٤٩٦ — ٥٢٣ م) . لقد اضطهد جوثاموند الكاثوليك ، ولكن على نحو أقل قسوة وعنفاً من هنريك ، ومن بين من لقوا الاضطهاد على يديه أعظم الشعراء المعاصرين يومئذ دراكونتيوس Dracontius ، إذ سجن هذا الشاعر لأنه تغنى

Deanesly, P. 80 ; Schmidt, P. 311.

(١)

Gautier, PP. 201-203 ; Schmidt, P. 312

(٢)

بمحمّد الإمبراطور الشرقى زينو Zeno وإن لم يفصح عن اسمه (١). غير أن جونتاموند لم يلبث أن أعاد فتح الكنائس الكاثوليكية في عام ٤٨٧ ، رغم أن بعض الأساقفة الكاثوليك ظل منفيًا في جزيرة سردينية (٢). وازدادت سياسة اللين والاعتدال زمن تراساموند ، الذى يعتبر الملك الوحيد بين الملوك الوندال ، الذى ظفر بتمجيد معاصريه من الإغريق واللاتين ، فهو فضلًا عن ثقافته الممتازة وبروزه فى الخطابة والخلق الحسن ، كان حليف ثيودريك العظيم ملك القوط الشرقيين ، ومتزوجًا من أخته ، أمالافريدا Amalafriada (٣) وكان المعروف عن ثيودريك فى ذلك الوقت ، إنه متسامح مع الكاثوليك ، فكذلك كان ملك الوندال حليفه وزوج أخته (٤) .

أما الملك هلدريك بن هنريك ، الذى حكم فى الفترة ما بين ٥٢٣ و ٥٣١ م ، فأمه أبودكسيا البيزنطية ، وكان قد مكث مدة طويلة فى القسطنطية ، بلغت نحو ٤٠ سنة ، تشبع خلالها بالمدينة الرومانية والثقافة الرومانية ، ولذلك برهن على أنه ملك رومانى أكثر منه وندالى . عطف على الكاثوليك ، حتى قيل عنه فاق عطفه على كاثوليكية أمه عطفه على أربوسية أبيه : من أجل ذلك بدا هلدريك غريبًا وسط قومه ، ولما كان معروفًا بالجن فضلًا عن تقدمه فى السن ، خشى تراساموند قبل وفاته أن ينقض هلدريك سياسة أسلافه المتعصبة ، وإن عرف تراساموند نفسه بالتسامح ، إلا أنه أوصى هلدريك ألا يعيد الكنائس الكاثوليكية إلى أصحابها ، لم يستمع هلدريك لهذه الوصية ، بل أمر بإعادة الكنائس الكاثوليكية بأساقفتها إلى ما كانت عليه ، أكثر من ذلك أمر بسجن أمالافريدا

Bury, P. 125.

(١)

Deanesly, P. 81.

(٢)

(٣) زفت أمالافريدا إلى ملك الوندال فى موكب فخم ، وجاءت إلى أفريقية وفى صحبتها

بعثة شرف من ألف محارب من نبلاء القوط .

Deanesly, P. 81 ; Bury, P. 125.

(٤)

أخت ملك القوط الشرقيين ، وهي الأميرة الأريوسية العظيمة ، ثم أمر بإعدامها .
وفي عام ٥٣١ م عزل هلدريك وسجن ، وخلفه جليمر Gelimer الذى
قضى عليه بلزاريوس (١) .

بعد مقتل الأمبراطور ماكسيموس فى عام ٤٥٥ م ، ونهب روما على
يد جزريك فى ذلك العام ، كان المتحكم الفعلى فى الأمبراطورية الغربية المتدهورة ،
القائد أفيتوس Avitus ، وهو الذى تمكن من الوصول إلى منصب الأمبراطور
الشاعر يومئذ ، لكنه لم يلبث أن طرد على يد القائد ريكمر Ricemer ، الذى
أشتهر فى ذلك الوقت على أثر تحطيمه لأسطول وندالى يتكون من ٦٠ سفينة ،
هاجم جزيرة كورسيكا فى عام ٤٥٦ م (٢) .

وتم اختيار مايوريانوس Majorianus فى عام ٤٥٧ م ، من أعظم
الأباطرة المتأخرين الذين حاولوا إنقاذ الأمبراطورية الغربية من الأخطار المحدقة
بها ، انعدت الآمال عليه ، لوقاية الأمبراطورية من أخطر أعدائها الخارجين
فى ذلك الوقت ، وهو جزريك ، إذا كان ملك الوندال ، لقوته ، وصفاته ، وموقع
دولته ، أخطر عدو يهدد إيطاليا .

لم يكن الوندال قد كفوا عن أعمال الغزو والنهب والقرصنة ، فقد جاء
أسطول وندالى مغربى فى مطلع حكم الأمبراطور مايوريانوس ، واقتحم رجاله جنوى
إيطاليا وأخذوا ينهبون المنطقة حول نهر جارليانو Garigliano فأسرعت الجيوش
الأمبراطورية وفاجأت الوندال فى منطقة كامبانيا Campania . وأعملت فيهم السيف ،

(١) Lot, Les Invasions, P. 142 ; Deanesly, P. 82 ; Schmidt, P. 314,320.

Hist. History, P. 605.

(٢)

حتى قتل الكثير منهم ، ومن بين القتلى القائد الوندالي نفسه ، زوج أخت جزريك لم يكتبف الأمبراطور مايوريانوس بهذا النصر ، بل صمم على غزو الوندال في أفريقية ، والقضاء عليهم نهائياً . ويدل هذا المشروع الخطير على جرأة وشجاعة الإمبراطور مايوريانوس ، ولو قدر لهذا الأمبراطور أن ينجح في بث الروح العسكرية في الشبيبة الإيطالية ، إذا لا استطاع أن ينازل جزريك ، على رأس جيش من الطراز الروماني القديم ، غير أنه لسوء الحظ ، الذي لازم الأمبراطورية الغربية في أواخر أيامها ، أنه وقع في أسوأ ما وقع فيه أسلافه من خطأ ، عندما استعان بالبرابرة ، وأحلهم محل الرومان ؛ ومع ذلك فله في هذا واسع العذر ، بعد أن وضع له ضعف الروح الحربية عند الرومان ، وأن الأخطار المحدقة به لا تحتمل التأخير (١) .

استهوت سياسته ونشاطه وشهرته ، الشعوب البربرية الضاربة حول نهر الدانوب ، من البورستينيين Borysthenes والتانيين Tanais والجبيديين Gepidæ والقوط الشرقيين والروجيين Rugii والبرجنديين والسويف والآلان ، فانتالت حشود هؤلاء جميعاً على إيطاليا ، وقادهم الإمبراطور بنفسه ، وكانوا في الواقع مفرقين ، تمزق صفوفهم الشحنةاء والانقسامات ، وذلك كله يرجع إلى أنهم من عناصر مختلفة وأهواء متباينة ولهم مطامع متنوعة ؛ عبرت هذه القوات جبال الألب في البرد القارس ، وكان الأمبراطور ، بين حين وآخر ؛ يسرغور الثلج برمحه الطويل ، ويشجع السكيثيين Scythians الذين أظهروا ألمهم من قسوة البرد ، وذلك بتجديد وعوده إليهم وإلى غيرهم ، وأنهم جميعاً سوف يعوضون عن ذلك العناء ، بدفء شمس أفريقية .

امتلات معسكرات مايوريانوس بالبرابرة الخلفاء ، ويظاهرة الشعب الروماني بحماسة وولائه نحو الإمبراطور ، الذي اعتقدت عليه الآمال ، أدرك الأمبراطور

بثاقب نظره ، استحالة فتح أفريقية والسيطرة عليها ، ما لم يكن أسطوله البحري قوياً كافياً ، وتذكر أنه خلال الحرب البونية الأولى ، أن جمهورية روما فطنت لأهمية القوة البحرية ، وأنها استطاعت بفضل حماس أبنائها أن تعد أسطولا قوياً في خلال ستين يوماً ، بعد أول ضربة ضربها أبنائها لتضع الأخشاب من الغابات ، وأن تنزل في البحر ١٦٠ سفينة .

ورغم اختلاف الأحوال ، زمن الجمهورية الرومانية ، وخلال النصف الأخير من القرن الخامس الميلادي ، فإنه نجح في حشر العمال الرومان في غابات الابنين لقطع الأخشاب ، وفي إصلاح دور الصناعة في رافنا وميسنوم Misenum ؛ كذلك عاونه بلاد الغال ، في مشروعه الضخم ، ولم يلبث أن تجمع للامبراطور ماريوريانوس أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة ، امتلأت به ميناء قرطاجنة الجديدة في أسبانيا (١) .

ويدل هذا النشاط المنقطع النظير ، أن الأمبراطور ماريوريانوس ، كان من خير ما تمخضت عنه حوادث العهد الأخير من الأمبراطورية الغربية ؛ كان ماريوريانوس يتحرق شوقاً للنصر ، ويمد عدته له . ويذكر المؤرخ بروكبيوس أن الأمبراطور أراد أن يقف بنفسه على قوة الوندال ، قبل المغامرة بمشروعه الكبير ، فتنكر بصبغ شعره ، وزار قرطاجنة عاصمة الوندال ، بوصفه سفيراً للامبراطور ، فلم يعبا به جزريك وبعفارته وطرده ، ولما علم بعد ذلك بحقيقة أمره ، حزن أشد الحزن على إفلاته من بين يديه ، ومثل هذه القصة قد تكون أسطورة غير تاريخية ، إلا أن مثل هذه الأساطير لا تنسج إلا في حياة الأبطال (٢) .

Hist. History, P. 608 ; Hodgkin, P. 426.

Hodgkin, PP. 428-29.

(١)

(٢)

لم تخف عبقرية مايوريانوس عن جزريك ، كما لم يحمل ملك الوندال نوايا
الأمبراطور الروماني نحو الوندال ، وما أعده من استعدادات وخطط . ولذا صمم
جزريك على اصطناع الحيلة واستخدام الخديعة ، ولا سيما وأن ملك الوندال كان
غير مطمئن إلى شجاعة رعاياه الذين أضعفهم ما آلوا إليه من ترف في الجو اللدانيء
الأفريقي ، كما أنه كان يشك في ولاء المغلوبين الذين لم يعنبروه سوى طاغية
أريوس ، فضلاً عما أصاب بلادهم من تخريب ومصادرة ومظالم ، كان جزريك
على يقين من أن الرومان يستطيعون أن ينزلوا في أية بقعة على الساحل ؛ ولذلك
رأى أن يصطنع الحيلة ، ويتقدم طالباً الدخول في مفاوضات الصلح ، وبعث
إليه سفارة تطلب منه المهادنة والصلح : فرفض الأمبراطور مايوريانوس (١) .
متمسكاً بالبداة القديمة القائل بأنه لا أمان لروما طالما كانت قرطاجنة في يد الأعداء .

استطاع جزريك أن يفلت مما أعده له خصمه العنيد ، بعد أن فشلت
خديعته ، فاستعان ببعض الخونة من رعايا الأمبراطور ، أولئك الذين حز
في نفوسهم نجاحه وشهرته ، وفاجأ جزريك جزءاً من الأسطول الروماني في خليج
قرطاجنة الجديدة بأسبانيا قبل أن يتحرك ، وأغرق أكثره أو أحرقه ، وذلك
في مايو ٤٦٠ ؛ وبذلك دمرت استعدادات ثلاث سنوات في يوم واحد (٢) .

ولقد دل سلوك كل من الخصمين القويين ، بعد هذه الكارثة ، على أنهما
قادران على المناورة كل في مشروعه ، فلم ييأس الأمبراطور ، كما لم ييباه الوندال
بهذا النصر السريع الغادر . جدد الوندال مفاوضاتهم من أجل الهدنة والصلح ،
وفي هذه المرة ، وافق الأمبراطور ، حتى تتاح له الفرصة لإصلاح أسطوله وإعادة
بناء قوته لمعاودة الكرة ؛ ومن ثم عاد الأمبراطور مايوريانوس إلى إيطاليا ليتابع
جهوده من أجل بلاده . كان الأمبراطور يدرك تماماً سلامة موقفه وتصرفاته ،

Gautier, P. 248.

(١)

Gautier, P. 248 ; Hist. History, P. 609 ; Oman, P. 9.

(٢)

ونزاهة أهدافه ، ولكن الشيء الذي لم يخطر له على بال ، هو تلك المؤامرات التي كانت تحاك حول عرشه (١) .

حدث أن زعزعت كارثة قرطاجنة ، ذلك المجد الذي تمتع به الأباطور مايوريانوس ، بسبب انتصاراته وتوفيقاته ، والواقع أن الحكومة الأباطورية في روما ، كانت منهارة ، ففيها الكثير من رجال الحرب والسياسة ، الذين لا يفيدون إلا في جو المؤامرات وخلال أحداث العتق ، فلم يتمخض عمله الدائب في تطهير أداة الحكم ، إلا عن قيام مؤامرة ضده ، نسج خيوطها ريكمر ، أثار البطريق ريكمر أحقاد البرابرة ضد الأباطور بحجة أنه لم يمد صالحاً لحكم الأباطورية . وسرعان ما ثار البرابرة ضد الأباطور ، وأجبروه على التنازل عن العرش ، وبعد ذلك بخمسة أيام أشيع موته ، بسبب مرض الدوسنتاريا ، والحقيقة أن ضباط القائد ريكمر ، قبضوا عليه ونزعوا عنه شارة الملك وقطعوا رأسه في ٧ أغسطس ٤٦١ م (٢) . وبمقتل مايوريانوس ، انقطع آخر خيط في أمل انقاذ الأباطورية ، أو على الأقل في تأجيل سقوطها إلى حين .

أضحى ريكمر الحاكم بأمره في الغرب ، واختار لنفسه أن يكون صانعاً للأباطرة ، دون أن يكون هو امبراطوراً ، ولم تكن الحال في الشرق خيراً منها في الغرب ، إذ كان المتحكم فيها يومئذ القائد أسبار Aspar الآلاني الأريوسي ؛ اختار أسبار لعرش الأباطورية في الشرق اشباداره ليو الأول (٤٥٧ — ٤٧٤ م) ليكون طوع أمره ، لسكنه جاء على غير ما كان يتوقعه أسبار ، إذ عمل على تدعيم مركزه في الداخل والضرب على أيدي أسبار لكي يتفرغ لقهر الوندال ، بعد أن ظهر عجز الأباطورية الغربية بعد مايوريانوس ؛ ولم ير أسبار من وسيلة

Deanesly, P. 77 ; Villari, P. 129.

(١)

Hist. History, P. 609.

(٢)

للانتقام من الإمبراطور الذي عينه ، سوى الاتصال سرّاً بجزريك الوندالي ،
لاتفاقهما معاً في المذهب الأريوسي فضلاً عن تشابه المصالح (١).

وبعد أن نجح ليو في تحرير نفسه من استبداد أسبار ، بتكوين قوة حربية
ضاربة من الأيسوريين الأسيويين ، لموازنة قوة أسبار ، استجاب لآلام الإبطاليين
وتوسلاتهم لإنقاذهم من خطر الوندال ، وأعلن على الفور تحالفه مع الإمبراطورية
الغربية ضد الوندال ، لكنه لم يعترف بالإمبراطور ساويرس (٤٦١ - ٤٦٥ م)
الذي عينه ريكمر خلفاً لمايوريانوس ، وظاهره في ذلك حاكماً العال والماشيا .

ولمات الإمبراطور ساويرس ، بعد أربع سنوات صاخبة ، ظل ريكمر
صاحب السلطة الفعلية نحو أكثر من سنة . لكنه اقتنع خلال هذه الفترة ،
باستحالة قهر الوندال دون الاستعانة بقوة بيزنطية بحرية ، لذلك اتفق مع السناتو
الروماني للتقدم إلى الإمبراطور ليو ليختار إمبراطوراً للغرب ، فاختار لهم
انثيموس Anthemius (٤٦٥ - ٤٧٢ م) (٢).

اتفق الإمبراطوران على إنقاذ الغرب من خطر الوندال ، وعاد الأمل قوياً ،
بفضل هذا الاتحاد ، في استعادة أفريقية والنفوذ الروماني في البحر المتوسط (٣) .
أعد ليو أسطولاً ضخماً في عام ٤٦٨ م ، أنفق على إعداده أموالاً ضخمة
وجهداً مضنياً ، وكان هذا مما شجع ماركليينوس Marcellinus حاكم الماشيا
على إعلان ولائه للإمبراطور انثيموس ، فقام على رأس أسطول من مثله ، وأنزل
هزيمة بالوندال واستخلص منهم جزيرة سردينيا وصقلية مؤقتاً (٤) ، وفي نفس

(١) Hist. History, P. 611.

(٢) الإمبراطور انثيموس هو ابن بروكوبيوس ، من أصل شريف ، ويمتاز بالخلق
والفضائل ، وكان من أعظم حكام الشرق ، تزوج من يوفيميا Euphemia ابنة الإمبراطور
مارقيان ، فكانت هذه المصاهرة من أسباب ترقيته السريعة إلى كونت فقائد عام فيطريق ،
يضاف إلى ذلك مجده الحربي الذي حققه بانتصاراته السابقة على الهون عند الدانوب .

(٣) Gautier, PP. 252-53.

(٤) Hodgkin, P. 447.

الوقت ، نزل هرقل Heraclius القائد البيزنطي على شاطئ أفريقيا في طرابلس واستعاد بعض المدن من أيدي الوندال ، ثم تقدم نحو قرطاجنة ليلتقي بالجملة الأساسية التي جاءت إلى قرطاجنة عاصمة الوندال (١) .

نزلات القوات البحرية الضخمة عند رأس بون Bon ، على بعد نحو ٤٠ ميلاً من قرطاجنة ، وكان لواء القيادة العليا معقوداً للقائد البيزنطي بازيلسكوس Basiliscus ابن زوجة الإمبراطور ليو . جاء نزول القوات البيزنطية الرومانية على الساحل الأفريقي مفاجأة مزعزعة للثقة في قلب جزيريك ، حتى أسرع يطلب الدخول في مفاوضات الصلح ، بأي شروط يملئها الرومان ، وطلب هدنة لمدة خمسة أيام ، لإتمام شروط الصلح ، والواقع أن ملك الوندال لم يكن يهوى إلا إلى كسب بعض الوقت لإعداد نفسه ، ولإيجاد انقسام بين قادة الجملة الرومانية ، حول ما عرضه ملك الوندال ، وفي كلا الحالين يستفيد جزيريك . استجاب بازيلسكوس لخديعة جزيريك ، إما لأنه قصير النظر نسي التدبير ، وأما لأن أوامر سرية وصلته من أسبار الخوّد على الإمبراطور ليو ، وكان بازيلسكوس بطمع في العرش البيزنطي ، وإما لأن الوندال رشوه بكمية كبيرة من الذهب . وأياً كانت الأسباب ، فإن حيلة جزيريك جازت على القائد الروماني ، وتمكن جزيريك خلال الخمسة أيام التي جرت فيها المفاوضات ، أن يستعد استعداداً عاجلاً ، وفي جنح الليل حشد حراقاته بالقرب من أسطول الرومان ، وفي مكان تسهل الحركة فيه ، أشعل فيها النيران وأرسلها إلى سفن الرومان فاحتكت بها ، وأشعلت النيران فيها ، وحينئذ هجم الوندال هجمة صادقة ، استولوا فيها على سفن المئون الرومانية ، وأغرقوا أكثر الأسطول ، فكانت خسارة الرومان فادحة ، وقعت هذه الكارثة في ربيع عام ٤٦٨ م (٢) .

(١) Gantier, P. 250
(٢) Hodgkin, PP. 446-50 ; Hist. History P. 613 ; Gantier, PP. 252-8.

لم يستطع القائد بازلسكوس أن يعمل شيئاً ، سوى النجاة بنفسه والعودة سريعاً إلى القسطنطينية ، حيث لجأ إلى كنيسة أياصوفيا ، إلى أن ظفر بالعمو ، ونجا من حكم الإعدام . وفشل إذن مشروع القضاء على الوندال .

وخلال الفترة من ٤٦٨ — ٤٧٦ م كانت الأمبراطورية الغربية قد بلغت ذروة الاضطرابات والفوضى ، فولبها عدد من الأباطرة الأشباح ، كانوا صنيعاً صناع الأباطرة أمثال ريكمر وأورستيز ، ومن هؤلاء الأباطرة ، أوليبريوس Olybrius حوريكمر ، ولاء الأخير بعد أن قتل أنثميوس في عام ٤٧٢ م ، ولما كان أوليبريوس متزوجاً من بلاسيديا التي أعادها جزريك إلى القسطنطينية فقد طمع جزريك في صداقة الرومان عندما ولي أوليبريوس العرش ، ومن أجل ذلك أوقف جزريك غزواته على بلاد الإغريق ، وأعلن أن « اللعنة حلت على إيطاليا فقط » ؛ فتكررت صوائغه على إيطاليا وصقلية ، وكانت أهدافه هي القرى والمدن غير المسورة ، خشية من وجود الحاميات القوية في المدن الكبرى (١) . ولما قتل أوليبريوس في ذلك العام ازدادت أحوال الأمبراطورية اضطراباً إلى أن سقطت نهائياً في عام ٤٧٦ م على يد أدواكر وأصبح زينو أمبراطور الشرق هو الأمبراطور الوحيد على شطري الأمبراطورية (٢) .

وفي أوائل عام ٤٧٧ م ، أي بعد نصف سنة فقط من سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب ، ويعد طرد الأمبراطور أغسطوس آخر الأباطرة في الغرب ، مات جزريك ملك الوندال ، بعد أن ظل نحو نصف قرن ، الشيخ الخفيف للرومان ، ولكنه مات بعد أن ماتت الأمبراطورية الغربية نفسها ، وسرعان ما تدهورت مملكة الوندال من بعده ، ولم يكده يمضي أكثر من نصف قرن

(١) Hodgkin, PP. 516-36 ; Villari, PP. 148-9.

(٢) أنظر : نهاية الأمبراطورية في الغرب للمؤلف (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - العدد الثلاثين ١٩٦٢)
Souttar, P. 335.

بقليل ، بعد وفاة جزريك ، حتى أضحت دولة الوندال فريسة سهلة للاقتناص أمام الأمبراطور الشرقى يوستانيوس .

ماتت عظمة الوندال وقوتهم بموت جزريك ، رغم ما خلفه من أسطول ضخم قوى ، وخزانة مليئة بالأموال ، فضلاً عن القصر الرائع التي تزينه التحف المنهوبة من روما . لم يستطع خليفته من بعده أن يفيد مما خلف سلفه . كما لم تستطع أيودكسيا البيزنطية زوجة هنريك أن تحمله على التخفيف من حدة تعصبه ضد الكاثوليك ، وقد هربت زوجته هذه من قرطاجنة بعد أن عاشت معه ١٦ سنة وأنجبت له ولدين ، هربت سرّاً إلى القدس حيث ماتت (١) .

كان على الأمبراطورية الشرقية أن تصفى حسابها مع الوندال ولاسيما وقد أصبحت هذه الأمبراطورية هي المسئولة الوحيدة عن مصائر الرومان ومصالحهم في الشرق والغرب ، ولم ينقطع الوندال خلال تلك الفترة ، أي منذ وفاة جزريك حتى قيام يوستانيوس في العرش ٥٢٧ م ، عن مهاجمة شواطئ البلقان وشرقي البحر الأبيض ، وكان سلف يوستانيوس وخاله جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م) قد وجه أنظار الكاثوليك المضطهدين من رعايا ملوك الجرمان الأريوسيين عامة إلى الشرق ، وجاء خليفته بمشروعه العظيم لإعادة الأمبراطورية الرومانية وإحياء السيطرة الرومانية Roman Imperium . فضلاً عن إحياء الروح الرومانية Romanitas (٢) . واستعادة أفريقية الوندالية جزء حيوي في هذا المشروع الضخم .

كان الوندال يشكلون الخطر الحقيقي على الأسطول البيزنطي في البحر الأبيض ، وانتهز يوستانيوس فرصة عزل الملك الوندالي هلدريك (٥٢٣ - ٥٣١ م)

Oman, PP. 10-11 ; Lot, La Fin, P. 289.

(٣)

Diehl & Marçais, PP. 54-55 ; Deanesly, P. 82.

(١)

وهو الملك الذي تجرئ في عروقة الدماء البيزنطية (١) . وأعد عدته للتدخل ، فأنهى ما هنالك من مشاكل ، بأن عقد صلحاً مع كسرى الأول الفارس ٥٣٢م وأخذ نيقية Nika في نفس السنة (٢) ، ورغم الإرهاق الذي لقيه الجنود البيزنطيون في الحرب الفارسية ، فضلاً عن النفقات ، هناك عوامل شجعت الأباطور بوستانوس على تنفيذ مشروعه ، منها أن التجار الأغر يق صاحوا بضرورة الحرب مع الوندال ، كما أن أسواق الوندال أنفسهم كانوا يؤكدون أن أهل الولايات على تمام الأهمية لمساعدة جيوش الأباطورية ، ولعل هذا من أهم العوامل التي شجعت بوستانوس ، على المضي في خطته ، يضاف إلى ذلك : تلك الثورة الوطنية التي قامت في طرابلس ، ضد سيادة الوندال ، وتزعّمها بودنتيوس Pudentius ، زمن جليمر ، آخر ملوك الوندال ، وكان زعيم الثورة على اتصال بالأمبراطور الشرقي ، وجاءته فعلاً فرقة حربية صغيرة من قبل الأمبراطور ، وانزكب ملك الوندال غلطة كبرى في أنه لم يعمل على قمع الثورة والقضاء عليها ، ومعنى هذا ، أن جيوش الأمبراطور سوف تنزل في أرض (صديقة) (٣) .

وقبل هذا الحادث بقليل ، ثار الحاكم الوندالي في جزيرة سردينيا وأعلن استقلاله عن قرطاجنة ، وكان هذا الحاكم قوطياً دخل في خدمة الوندال ، اسمه جوداس Godas ، فلما علم بمشروع الأمبراطور بوستانوس ، أعلن خضوعه له ، فأرسل جليمر حملة قوامها خمسة آلاف محارب و ١٢٠ سفينة ، لقمع الثورة وهذا ما حرّمه من خدمات هذه الحملة في صد جيوش الأمبراطور ، كما حرّمه من معظم سفن الأسطول الوندالي وأحسن البحارة (٤) . هذا وهناك العداء الذي

Diehl & Marçais, PP. 64-67.

Ibid.

Bury, II, P. 128.

Ibid ; Diehl et Marçais, P: 66

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

الذي استحكم في ذلك الوقت بين الوندال والقوط الشرقيين ، نتيجة سنجن^١ امالافريدا Amalafriدا القوطية، زوجة تراساموند ملك الوندال السابق ، فقد سجنها الوندال بعد وفاة زوجها وقتلها مما أدى إلى قطع علاقة الصداقة بين القوط الشرقيين في إيطاليا وبين الوندال في أفريقيا ، أي بين بلاطى رافنا وقرطاجنة^(١) . ولذلك ساعد القوط الشرقيون على اقتلاع الوندال وإبادتهم ، وذلك بوضع موانى صقلية تحت تصرف الجيوش الأمبراطورية^(٢) .

تذلت أذن جميع مصاعب يوستانيوس ، ولا سيما مشكلة تأمين طريق المواصلات وخط السير . رسمت الخطة على أساس إنزال جيوش الفتح أو إعادة الفتح الرومانى لأفريقية Reconquesta ، على الشاطئ قرب قرطاجنة^(٣) . أبحرت قوات الأمبراطور يوستانيوس من القسطنطينية في ٢٢ يونيو من عام ٥٣٣ م ، وعلى رأسها كونت بلزاربوس. أقدّر قواد الأمبراطورية ويليه في القيادة العامة القائد الأرمنى الكف. حنا Joannes^(٤) ، وبازك البطريق هذه الحملة قبيل إبحارها^(٥) . بلغت عدة سفن النقل ٥٠٠ سفينة ، وعليها عشرة آلاف من الجنود الرجالة وخمسة آلاف من الفرسان ، هذا بالإضافة إلى فرقتين من الرماة المعاهدين (Laeti, Foederati) من الهون وعددهم ٦٠٠ محارب، ومن الهيرولين Heruli وعددهم ٤٠٠ مقاتل^(٦) ، صاحب كونت بلزاربوس في حملة . زوجته أنطونيا ومستشارة المؤرخ بروكبيوس Procopius ، أحد قادة الفكر في بيزنطية في القرن السادس الميلادى^(٧) ؛ وكذلك رئيس حرس

Villari, P. 197.

(١)

Bury, II, P. 129.

(٢)

Deanesly, P. 83.

(٣)

Villari, P. 198.

(٤)

Bury, II, P. 129.

(٥)

Oman, PP. 76-77 ; Bury, P. 127, Lot, Les Invasions, P. 142 ; Schmidt, P. 315.

(٦)

(٧) بروكبيوس من مؤرخى القرن السادس الميلادى ، صاحب الحملات البيزنطية ضد فارس

والوندال والقوقاس الشرقيين ، ووضع كتباً عن هذه الحروب مثل :

De Bello Vandalorum etc... (Bury, PP. 129, 143)

بلزاريوس الخصاص وهو الخصى سولومون العراقي الأصل ، ومن أقدر الخصيان وأشجعهم ، وهو الذي ولى افريقية بعد القضاء على الوندال (١) .

ركب بلزاريوس وزوجته ومستشاره ورئيس حرسه في سفينة القيادة Navis Praetoria ، ولقى الجيش مصاعب جمة خلال رحلته ، من ذلك عواصف في بحر ايجيه ، ونفاد الماء العذب الطازج ، ويذكر بلزاريوس أن سفينة القيادة لم تشك قلة المياه نظراً لمهارة زوجته في طريقة حفظ الماء ، إذ كانت خزنت المياه في أواني زجاجية في أسفل السفينة وغطتها بالرمال ، ومن ثم بقي الماء طازجاً بارداً (٢) . وعند صقلية ، وقف الأسطول البيزنطي قرب سرقوسة ، حيث أخذ حاجته من التموين (١) ، فضلاً عن الأخبار الخاصة بالعدو ، وهذه جمها بروكيوس عندما نزل إلى الجزيرة . وعلم أن الوندال مشغولون في إخماد ثورة سرينيا ؛ استأنف بلزاريوس رحلته ، وساقته الرياح إلى رأس فادوا Caput Vada أوراس كبوديا على بعد ١٦٢ ميلاً من قرطاجنة ، ونحو ٦٦ ميلاً جنوبي هادروميتوم Hadrumetum (سوسة) ، ويقول بروكيوس إن المسافة بينها وبين قرطاجنة تستغرق خمسة أيام سيراً على الأقدام (٢) .

وقبل نزول بلزاريوس وجيشه إلى البر ، عقد مجلساً حربياً على سفينة القيادة ، وناقش خطط الهجوم على قرطاجنة ، وفي الشهر الثالث منذ خروجهم من القسطنطينية ، نزلوا على الساحل الأفريقي في سبتمبر ٥٣٣ م ، واتخذت القوات البيزنطية أماكنها في معسكرات محاطة بالأسوار ، ومن بين الأسوار سور من الأوتاد والخوابير ، تم ذلك في سرعة فائقة ، وفي يوم واحد . وكان معسكر البيزنطيين بالقرب من بئر فيها مياه كافية لتموينهم وتموين خيولهم بالماء ، مما كان من أكبر

Ibid.

Deanesly, P. 82.

(٣) من المحتمل أن جزيريك كان قد عقد معاهدة مع أدراكر قبل وفاته عام ٧٧ ؛ تنازل بها من معظم جزيرة صقلية ونظير أن يدفع له أدراكر جزية سنوية H. Oman, P. 10. odaku, P. 256

Bury, II, P. 130.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

العوامل التي ساعدت على نجاح الحملة . أمضى بلزاريوس وجيشه ليلة للراحة والاستجمام ، وكان يتولى الحراسة على كل سفينة خمسة عشر من الرماة الأفذاذ .

وفي اليوم التالي تقدم بلزاريوس ، وأوصى رجاله بعدم التعرض لقمح أهل الولايات وثمارهم بأي أذى ، مذكراً إياهم بأن الأفريقيين ليسوا سوى سلالة الرومان الأوائل ، وهم يكرهون الوندال أشد الكراهة ؛ ثم طمأن بلزاريوس الأفريقيين بقوله ، أنه على وشك أن يزيح عنهم هذا الكابوس الطاغى .

أرسل بلزاريوس فرقة من ثلاثمائة فارس بقيادة حنا الأرمني للاستطلاع ، وكذلك فرقة من الهون من ٦٠٠ فارس للمسير على جانب طريق الزحف لحماية الجيش من هجوم مفاجيء أو كمين ، واستولوا على أول مدينة وهي سيلكتم (Selekta) Syllectum بدون أي مقاومة أو حرب ، بل أخذوها بالخدعة والحيلة ، إذ كان المشرف على خيول الوندال فيها ، قد سلم الخيول إلى بلزاريوس فكافأه بكمية من الذهب ، وسلمه رسالة الإمبراطور إلى زعماء الوندال ليقرأها عليهم ومضمون هذه الرسالة : « أن غرض الجيش الروماني ليس حرب الوندال ، وأنه يريد نقض المعاهدة التي أبرمها جزريك (٤٧٦ م) ، ولكن الهدف الوحيد هو إزالة حكم الطاغية (جليمر) الذي استخف بوصية جزريك وسجن ملك الوندال (هلديريك) وقتل أقرباءه وسمل عيون الباقيين ، وآثر إبقاءهم لتعذيبهم ، ولذلك انضموا إلينا لإيقاظكم وتحريركم من حكم الطاغية ، وسوف نفعمون بالأمن والحرية ونعاهدكم أمام الله ، بأننا سوف نحقق لكم هذه الوعود » (١) .

ولكن الرجل الوندالي الذي تسلم الرسالة ، لم يستطع أن يقرأ الرسالة على الملأ ، واكتفى بعرضها سراً على أصدقائه الذين يثق فيهم ، ومن ثم لم تكن لها أية نتيجة . وعندما تقدم بلزاريوس ، ساعده الأهالي بالموثون ، ومراجيش في طريقه

بالمدين : تابوس ، ولبده وسوسه ، ثم إلى جراس Grasse حيث يوجد قصر
بحديقة جميلة لملك الوندال ، ومكان هذا القصر حالياً « سيدى خليفة » . كان
جليمر في ذلك الوقت في مدينة هرميان Hermiane بولاية بيزا كينا ؛ ولما علم
بتقدم الزحف الرومانى ، بعث برسالة سريعة إلى أخيه أماتاس Ammatas
في قرطاجنة ، يأمره بقتل هلدريك ومن معه بالسجن ، والاستعداد بكل قواته
لمهاجمة الرومان ، وكان جليمر يريد أن يحاصر الرومان قرب تونس (١) .

وفي ١٣ سبتمبر ٥٣٣ م ، التقى بلزاريوس بجيش جليمر الوندالى ، وهزمه على
بعد عشرة أميال جنوبى قرطاجنة ، في موضع اديكم Ad-Decimum ، فهرب
جليمر إلى نوميديا غرباً ، ولم يلق الكونت بلزاريوس صعوبة تذكر في الظفر
بهذا النصر السريع ، حتى أنه تمكن في أمسية ذلك اليوم ، أن يتوجه إلى
قرطاجنة مع زوجته ، حيث كان الهدوء يسودها ، ولم تكن هناك أية عقبة تحول
دون دخوله فيها ، إذ كان القرطاجانيون قد فتحو أبواب مدينتهم ، بعد أن شاع
هرب ملك الوندال ، وإضاءوا المصابيح ، حتى بدت المدينة في تلك الليلة كأنها
في عيد (٢) .

أما الوندال المقيمون في قرطاجنة ، فقد لجأوا إلى الكنائس يتضرعون فيها
فيها إلى الله ، لم يدخل بلزاريوس المدينة في ذلك الوقت خشية أن يكون بها
كمين ، وفي اليوم التالى وصلت سفنه إلى ما ندركيوم Mandracium — ميناء
قرطاجنة — وأزال المرشدون القرطاجانيون السلاسل من مدخل الميناء ، وأفسحوا
الطريق حتى دخلت السفن .

وفي ١٥ سبتمبر ، دخل بلزاريوس قرطاجنة ، وأمر رجاله بعدم التعرض

Ibid PP. 130-32 ; Diehl et Marçais, P. 66.

Oman P. 78 ; Gautier, P. 309

(١)

(٢)

للسكان بأي أذى ، فحسبهم ما قاسوه زمن الوندال ، ودخل قصر جليمر وجلس على عرشه (١) . ويصف بروكبيوس الحفل الذي أقامه بلزاريوس ، ابتهاجاً بالنصر ، في قاعة الحفلات بالقصر الملكي الوندالي ، حيث اعتاد ملوك الوندال أن يقيموا حفلاتهم فيها ، مع أمراء قومهم . ويطلق الرومان على قاعة الحفلات عادة في القصور الإمبراطورية اسم « القاعة الدلقية » ، حيث توضع منضدة ذات ثلاثة أرجل ، وعليها يوضع السقاة الإمبراطوريون Pincernae الكؤوس ونظراً لاستعمال هذا التقليد لأول مرة في مدينة دلفي اليونانية ، أضحي الرومان يطلقون كلمة « الدلقية » على هذه المنضدة ، واستعار البيزنطيون هذا المصطلح وأطلقوه على قاعة العشاء في القصور الإمبراطورية ، فسموها : الغرفة الدلقية . كانت هذه القاعة معدة بالأواني والطعام والشراب ، استعداداً لحفلات جليمر ، فألت هذه الاستعدادات جميعها إلى بلزاريوس ورجاله ، وقام خدم جليمر بتقديم الطعام والشراب للمتصرين (٢) .

ورحب السكان بالفاتح ، وأبحر الأسطول الإمبراطوري إلى بحيرة تونس ؛ وفي تلك الأثناء بعث المغاربة في نوميديا بسفرائهم إلى بلزاريوس مظهرين خضوعهم وإذعانهم للفاتح ؛ وكان من عادة زعماء المغاربة أن يمنحهم أباطرة الرومان شارات الأمرة على أقوامهم ، وهذه الشارات عبارة عن : عكاز مصفح بالفضة وقلنسوة فضية على شكل تاج ، ومعطف أبيض ، وتيونك Tunias أي رداء روماني ، وخذاء منخفض . أرسل بلزاريوس بهذه الشارات ، دليلاً على عودة الأمور إلى ما كانت عليه (٣) .

Lot, Les Invasions, P. 143 ; Deanesly, PP. 83-4 ; Bury, II, P. 135. (١)

Deanesly, P. 84. (٢)

Ibid. (٣)

Bur, II, PP. 13°-36y. (٤)

وعلى أثر هذا النصر المبين ، استعاد الأساقفة الكاثوليك مراكزهم وكنائسهم ، وطهروا الكنائس من آثار الأريوسية ، وعلقوا فيها التحف والهدايا التي نذرها المؤمنون للكنيسة ، والتي كانت أخفيت خلال سيطرة الوندال ، وظلت مخبوءة طوال تلك الفترة ، ومن بينها الطاسات الجميلة المزخرفة ، والمشكاوات وغيرها ، أعيد كل شيء إلى حاله ، وهرب رجال الدين الأريوسيون وتفرقوا في شتى الجهات .

أما جليمر الآبق ، فقد كان لاجئاً في ذلك الوقت عند بعض القبائل المغربية ، التي ظلت على ولائها له ، وذلك في مدينة بولارجيا Bulla Regia في نوميديا ، وهي المعروفة حالياً باسم « حمام دراجي » ؛ خرج جليمر واستأنف كفاحه ، رغم انتصارات بلزاريوس ، فقطع الماء العذب عن قرطاجنة ، وحاصرها ، فهزمه بلزاريوس مرة أخرى في منتصف ديسمبر من نفس العام (٥٣٣) عند مدينة تريكاماروف Tricamarum — ومكانها الآن غير معروف ، وكانت تقع على بعد نحو ٢٠ ميلاً غربى قرطاجنة . حينئذ عاد جليمر إلى مخبأه مرة ثانية ولكن في تلال بابوا Pappua في مفاوز نوميديا عند أنصاره من المغاربة ، وعاش في هذا الملجأ في بؤس وجوع ، وقاسى من شدة البرد ، ولا سيما وكانت فرقة الهيروليين بقيادة زعيمهم الهيرولى فراس Pharas قد أحاطت بهذا الجبل وحاولت دون اتصاله خارج هذه المنطقة ، وأرسل القائد الهيرولى إليه رسالة ودية ينصحه فيها بالتسليم ، إذ لم يعد هناك جدوى في أية مقاومة ، فسلم (١) .

وفي تلك الأثناء كان بلزاريوس قد تقدم إلى هيبورجيوس واستولى عليها ، واحتاط على الموجود فيها من كنوز الوندال ؛ ثم أرسل جيشاً من قبله لفتح سردينيا وقورشيقة وجزر البليار ؛ وأخيراً استولى بلزاريوس على مدينة سوتا Ceuta (سبتة) في أقصى المغرب ، واستعاد كذلك جزر البليار وقورسقة وسردينيا .

(١) Gautier, PP. 309-10 ; Lot, La Fin, PP. 289-90 ; Bury, PP. 135-36.

وبتسليم جليمر ملك الوندال في مطلع عام ٥٣٤م ، تكون دولة الوندال قد زالت نهائياً^(١). واقتنع الأمبراطور يوستانيوس بهذه النتيجة الطيبة ، فإن الوندال ذهبت ريمهم ، ولم يعد هناك أى خوف من ناحيتهم ، واستدعى قائده المظفر واحتفل بالنصر في القسطنطينية ، حيث سار الملك جليمر الوندالي الأسير ، في موكب النصر ، واتخذ يوستانيوس لقباً جديداً على أثر هذا النصر وهو « الوندالي والأفريقي أى قاهر الوندال وفاتح أفريقية & Africanus Vandalicus » ، وأعيدت الحكومة الرومانية بكامل مظاهرها وتقاليدها في أفريقية^(٢) .

ومن بين المغنم التي استولى عليها بلزاريوس وعاد بها إلى القسطنطينية ، الأواني الذهبية التي كان القيصر تيتوس Titus Caesar قد استولى عليها يهوذا Judaea من قبل ؛ وعومل جليمر ملك الوندال بالرحمة والتقدير فأعطاه الأمبراطور يوستانيوس ضيعة كبيرة في منطقة فريجيا بأسيا الصغرى ، حيث ظل يعيش جليمر وأسرته في هدوء ونعمة^(٣) . وقد عثر في عام ١٨٧٥م بالقرب من مدينة Feltre على وعاء فضي مكتوب عليه : جليمر ملك الوندال والآلان Geilamir Vandalorum et Alanorum Rex ولا بد وأن هذا الوعاء كان من بين كنوزه التي استولى عليها بلزاريوس ، ويقول المؤرخ ممسن Mommsen إنه ربما كان بلزاريوس أهداه إلى ضابط هيرولي ، ويحتمل أن هذا الضابط هو الذي نقله معه إلى إيطاليا^(٤) .

وكان من بين الأسرى عدد كبير من الجنود الوندال ، فسكون منهم الأمبراطور يوستانيوس خمس فرق « نسبت إلى الأمبراطور نفسه » وندال

Villari, P. 199 ; Bury, II, PP. 137-138 ; Gautier, P. 310.

(١)

Oman, P 79 ; Lot, La Fin P. 290; Bury, II, PP. 138-39. Halphen, (٢)
L., Les Barbares, P. 96 ; Moss, PP. 97-100.

Bury, II, P. 179.

(٣)

Bury, II, P. 139.

(٤)

يوستانيوس : 'Vandali Justiniani' . ووضعها عندا لحدود الفارسية ، كما دخل عدد من الوندال الأسرى في خدمة بلزار يوس (١) .

لم تكن هناك من مصاعب في فرض السيادة الرومانية من جديد على أفريقية الرومانية ، سوى ما صدر من مقاومات عنيفة وثورات عارمة ، منها الوطنيون المغاربة ضد السيادة البيزنطية ، مما حمل بلزار يوس على العودة من صقلية إلى أفريقية لقمع الثورات . وتكررت الثورات ضد سولومون Solomon أول حاكم بيزنطي عقب زوال الوندال ، وكذلك ضد حلفائه من بعده ، فمثلاً كان على سولومون ، أن يطارد أنتالاس Antalas زعيم قبيلة فركس Frexi البربرية وحلفاءها من القبائل الآخرين بزعامة كاتسنا إذ كان هذا الحلف يهدد ولاية بيزا كينا ، كذلك كان الزعيم لابداس Labdas ملك بربر جبل أوراس يهدد نوميديا ويخرب فيها ولذلك عاش سكان نوميديا في رعب وقلق من البربر المقيمين بجبال أوراس ، أما بربر موريتانيا ويشغلون أغلب مساحتها ، فكان يتزعمهم إثنان في ذلك الوقت هما : ماسونا Masuna وماستييجاس ثم إن ولاية طرابلس كانت معرضة دائماً لغزوات قبائل لواته البربرية (٢) .

وفشل سولومون في القضاء على أخطار الثورات الوطنية التي شنها البربر ، ضد كل سيادة أجنبية ، وكان الجيش الروماني ضعيفاً في أفريقية ، وفشل حكام الرومان في تهدئة البربر ولم تجدد الحصون التي أقامها الرومان بعد الوندال ، في الحيلولة دون غزوات البربر ، وإن حاولت دون ثورات السكان في المدن ، بل لم يحل دون انهيار الحكومة الرومانية في تلك الفترة سوى تفكك القبائل البربرية الوطنية وعدم الوحدة بها ، بسبب الأحقاد والمنافسات ، ولذا استغل الرومان هذا الانقسام ، فاستعانوا بالبعض ضد البعض الآخر .

Ibid.

Bury, II, P. 141.

(١)

(٢)

الخلاصة يمكن القول : إن الظاهرة المميزة لتاريخ شمالى أفريقية منذ طرد الوندال ٥٣٤م حتى الفتح العربي في منتصف القرن السابع الميلادي ، هو الحروب المتصلة ضد البربر ، تخللتها فترات هدوء قصيرة ، ولم تنجح الحكومة الرومانية البتة في يوم ما في فرض سيادتها الكاملة وسيطرتها التامة على الوطنيين (١) .

أما أسباب سقوط دولة الوندال فتلخص في عدة عوامل ، منها : أن عدد الوندال كان قليلاً بالقياس إلى عدد رعاياهم من المستوطنين الرومان والبربر الوطنيين حقيقة زاد عددهم إلى ثلاثة أمثال العدد الأصلي الذي غزا أفريقية ، ومع ذلك ظلوا أقلية صغيرة غريبة من الناحية الجنسية . ورغم أن الوندال أقاموا في أفريقية نحو قرن من الزمان ، وعاشوا بين المستوطنين الرومان أو الرومان الأفريقيين Romano-Africano ، ولا سيما في الولاية القنصلية وبيزا كينا ، واستعماروا الكثير من نظم الإدارة الرومانية ، وإلى حد ما أبقوا على اللغة اللاتينية ، بل أن منهم من شجع الآداب اللاتينية ، رغم كل ذلك فإن الوندال ظلوا منفصلين عن أهل الولايات الذين لم يصفو لهم النية ، ولم يندمجوا فيهم ، حقيقة أن دركونتيوس Dracontius (٢) الشاعر والخطيب المعاصر للملك الوندالي جنتاموند (٤٨٤ — ٤٩٦م) يقول بأن أطفال الوندال والأفريقيين كانوا يترددون معاً على مدرسته ، وكان يمكن أن يتم التقارب والامتزاج على طول الزمن ، لكن لم يكن كافياً لتحقيق الامتزاج بين العنصرين .

هذا ولم يتعد حكم الوندال الفعلي عن المنطقة المحيطة بقرطاجنة وهيبيو رجيوس ، أى ولاية أفريقية — وهى تونس الحالية تقريباً ، أما طرابلس ونوميديا وموريتانيا فكانت فعلاً في يد الأمراء والبربر وإن عدت هذه الأجزاء ضمن مملكة الوندال

Ibid, PP. 142-43.

(١)

(٢) دراكونتيوس الشاعر الأفريقي ، أعظم الشعراء المشهورين في تلك الفترة الحاكمة في الأدب اللاتيني ، وربما كانت الشخصية الوحيدة التي برزت في بيت الوندالية .

ولا يعترفون إلا بالسيادة الإسمية للوندال ؛ ولم يكن التوسع ، في عرف الوندال ، هو تدعيم سيطرتهم واستقرارهم شرقاً وغرباً على طول الساحل ، وإنما كان مدلوله لديهم هو القرصنة البحرية ، وهناك الخلاف المذهبي العنيف ، فقد عرف الوندال بتعصبهم الشديد للأريوسية وهي هرطقة ، إن لم تكن كفرة في نظر الأرثوذكسي أو الكاثوليكي ، ولم يفعل الوندال ما فعله أشقاؤهم من الجرمان الآخرين مثل القوط الشرقيين أو الغربيين ، وتسامحوا مع رعاياهم الكاثوليك ، ولذا تعد الأريوسية سبباً جوهرياً في زوال ملك الدول الجرمانية التي دانت بها (١) .

ثم إن جزيريك ، ملك الوندال ، كان قد هدم جميع أسوار المدن ، باستثناء المدن التي أقام فيها الوندال تحصينات وندالية جديدة ، مثل قلعة سوتا المطلة على الزقاق ، وهي بورجيوس وقرطاجنة ، واعتقد جزيريك أن هذا يحول دون تمرد السكان ، ويحرم الجيوش الغازية من استخدام هذه التحصينات ، ولكن الأمر جاء على عكس ما تصور ملك الوندال ، إذ أن إزالة الأسوار وهدم الحصون ، يسهل مهمة الغازي أكثر من تعويقها ، والذي حدث فعلاً خلال تقدم بلزاريوس ، أنه لم يلق مقاومة تذكر (٢) . كذلك دل هذا التدمير الوندالي ، من ناحية أخرى ، على قصر نظر زعيم الوندال ، ولذا يمكن أن يقال إن منشيء دولة الوندال في شمالي أفريقية ، قد وضع بذور ضعفها وانهارها (٣) .

يضاف إلى ذلك ، تلك الحملات المتكررة من جانب روما وبيزنطة ، وكثرة المعارك التي خاضها الوندال ضد ثورات البربر الوطنية ، فهؤلاء لم يخضعوا لحاكم قط ، فقد دُوخوا الرومان من قبل ، ورغم إن جزيريك قمعهم مؤقتاً ، وذلك بتجنيدهم في جيشه ، كما فعل الرومان سابقاً ، فإن خلفاء جزيريك قد تعرضوا

(Bury, II, P. 12° ; Schmidt, P. 322)

Oman, P. 10 ; Hodgkin, PP. 523-24.

(١) راجع
(٢) راجع ما سبق .
(٣)

لثورات مستمرة من جانب البربر ، واشتبكوا معهم في حروب متقطعة ، ولكنها ليست حاسمة ، ولا سيما ضد بربر جبل أوراس (١) . فمثلا حدث زمن هنريك (٤٧٧ — ٤٨٤ م) أن اكتسح البربر من سكان جبال أطلس ، المستوطنين الرومان والوندال على السواء ، ومات هنريك وهو يستعد لحربهم (٢) ، كذلك شغل تراساموند (٤٩٦ — ٥٢٣) في حرب طويلة ضد البربر ، مما حمله على مهادنة الكاثوليك ليتفرغ للبربر ، وفي زمنه أفنى البربر عدداً كبيراً من الوندال . والملاحظ أن طرق البربر في حربهم فضلاً عن أسلحتهم الطويلة واستخدام الجمال ، وإتقان حرب العصابات والاختفاء في الصحراء التي خبروا دروبها ومسالكها ، كل ذلك أنك الوندال وأضعفهم ؛ ويقال أن خيول الوندال كانت تجفل من منظر الجمال وحركاتها (٣) . ولم يكن البيزنطيون ، الذين خلفوا الوندال في شمالي أفريقية بأحسن حالا من أسلافهم ، فيما يتعلق بمتاعب البربر وثوراتهم .

أما القول بأن مناخ أفريقية ، لم يكن ملائماً للوندال ، فهو وإن كان يختلف عن مناخ البقاع الباردة التي هبطوا منها ، إلى أنه ليس أساسياً ، إذ أن الوندال منذ دخولهم أسبانيا في عام ٤٠٩ م ثم أفريقية في عام ٤٢٩ م ، كانوا تعودوا على هذا المناخ والقفه ، ولكن ليس معنى هذا التقليل من أهمية هذا العامل الجغرافي ، فالواقع أن المائة عام التي قضتها الوندال في أفريقية ، قد غيرتهم ، فأمسوا أقل قدرة على الحرب ، وأقل رغبة فيها ، ولا سيما بعد أن انغمسوا في اللهو والترف والرخاء ، في ذلك الجو الأفريقي الدفيء ، حتى أنه منذ وفاة جزريك ، يمكن أن يقال أن روحهم الحربية قد ضعفت . بل إن من بين الوندال أنفسهم زمن جليمر (٥٣٠ — ٥٣٤) آخر ملوك الوندال ، من كان يتطلع إلى منقذ من الرومان ، ليقضى على الأحقاد والتنافس والانقسامات التي مزقت صفوف الوندال .

Basset, op. cit..

Oman, P. 11.

Deane.ly, P. 81.

(١)

(٢)

(٣)

وإذا سأل سائل ، عن الدور الذي أسهم به شمالى أفريقية في نقل المدنية الرومانية والتراث الروماني ، فإن هذا السهم كان كبيراً ، غير أنه تم قبل وصول الوندال إلى أفريقية بصفة أساسية (١) . حقيقة أبقى الوندال على كثير من مظاهر المدنية الرومانية ، سواء في الإدارة أم في إقامة المؤسسات والعمائر على النسق الروماني ، ولا سيما زمن ثراساموند ، إلا أن ذلك كان قليلاً ، ولم يضيف الوندال شيئاً جديداً . ويذكر للملك الوندالي ثراساموند (ت ٥٢٣ م) إن عهده اشتهر ببعض الهدوء ، وأنه كان يشجع الأدب ، وفي عهده وعهود خلفائه من بعده ، قام نشاط أدبي ملحوظ في أفريقية الوندالية ، فمثلاً برز الشاعر درا كوتتوس Dracontius زمن ثراساموند ويعد أعظم شعراء اللاتينية في تلك الفترة ، وتعنى الشاعر Florentius بمدح ثراساموند ، وكذلك الشاعر فيلكس Felix ؛ وكتب الشاعر لكسوريوس Luxorius في رثاء دوميرا Domira الطفلة إحدى قريبات الملك الوندالي هلدريك (٥٢٣ — ٥٣٠) (٢) . والملاحظ أن مثل هذا النشاط كان يقوى زمن هدوء العلاقات بين الوندال وبيزنطة ، كما كان الشأن زمن هلدريك الذي كان صديقاً لبيزنطة ، نظراً لصلة القرابة الدموية ، إذ كان جده فالنتيان الثالث ، وقامت علاقة ود وصداقة بينه وبين الأمبراطور يوستانيوس ، حتى حاول أن يجعل مملكته تابعة لبيزنطة ، فلما طرده جليمر ، تدخل يوستانيوس (٣)

والواقع ، أن الوندال لم يتشبعوا بالمدنية الرومانية ، ويعملوا على تقليدها ، كما فعل القوط الشرقيون والغربيون (٤) والفرنجة مثلاً ، ولم يصيبوا من الروح

(١) راجع ما سبق في القسم الأول من البحث .

(٢) Bury, P. 125 ; Schmidt, P. 322

(٣) راجع ما سبق .

(٤) انظر دولة القوط الغربيين للمؤلف .

الرومانية Romanitas . إلا بعض قشورها ، منذ غادروا مواطنهم في وديان الحجر
الفسيحة وشقوا طريقهم إلى أفريقية .

ورغم أن حكمهم امتد في أفريقية ما يقرب من قرن من الزمان ، منذ استيلائهم
على قرطاجنة في ٤٣٩م حتى استسلام جليمر للكونت بلزار يوس في مطلع
عام ٥٣٤م ، فإن الآثار التي خلفوها ، لم تعد أدوات زينة وأواني منزلية ، تدل
في زخرفتها على الطابع الجرمانى أو البربرى الذى عرف عند الشعوب الجرمانية
الأخرى . فمن الآثار الوندالية التى عثر عليها : بعض رؤوس الدبابيس والمشابك
والأبازيم والمجوهرات ؛ فعثر قرب مدينة هيبورجوس (بونا الحالية) فى أحد
قبور الوندال على بعض المجوهرات وأدوات الزينة ، وعثر فى قبر سيدة وندالية على
عقد جميل من العقيق والزجاج الأحمر والأخضر ؛ ووجد فى قبر رجل وندالى
مشبكان كبيران ، مما يستعمل لتثبيت الثوب على الكتف ، وكذلك وجدت
مجموعات أخرى من هذه الأدوات ، وعلى بعضها صور المحاربين ؛ وربما تلمس
أصول الزخرفة الوندالية ، ولا سيما فى الألوان التى استعملوها مثل اللون الأزرق
والأحمر والأخضر ، فى الفن الذى ساد فى جنوبى روسيا ، وهذه على أية حال
دون مثيلاتها من المجوهرات القوطية والميروفنجية (١) .

وربما كان أهم من هذا ، من حيث الأثر التاريخى للوندال ، هو أن فتح
الوندال لإفريقية ، وقدم لها ، لا يمكن تجاهله عند دراسة أوربا الجرمانية ، فإن
حركات الوندال دون غيرهم من حركات الشعوب الجرمانية ، كانت عاملاً هاماً
فى التطور الاقتصادى لأوربا ، لأن سيادة الوندال على البحر المتوسط وتحكم أسطولهم
فيه ، وقطع التجارة الرائجة بين الموانئ التجارية الشهيرة أمثال : بيزنطة وأزمير
وصيدا والأسكندرية ولبدة (Leptis) وقرطاجنة وأوستيا ومرسيليا ، أدى ذلك

إلى نقل أوربا من طور الاقتصاد المعتمد على نفوذ الأباطورية الرومانية بصفة أساسية إلى طور الاقتصاد القائم على الاكتفاء الذاتي بقدر المستطاع ، وذلك داخل للمالك الجرمانية التي قامت على أنقاض الأباطورية الرومانية (١) .

* * *

ومن العجيب أن الوندال اختفوا من التاريخ نهائياً ، إذ تفرق من بقى من شرادهم في أطراف الأباطورية الرومانية ، وعلى حدود فارس (٢) ، أما من بقى في أفريقية ، فقد صودرت أملاكه وأنزل إلى مرتبة الرقيق ، كما فعل الوندال أنفسهم من قبل ، مع سادة المستوطنين الرومان في أفريقية . وإذن ، فالوندال ، من أولئك البرابرة الذين لم يتركوا أثراً في التاريخ ، ومثلهم في ذلك مثل أشقائهم الجرمان من الهيروليين والروجيين Rugin ، والقوط الشرقيين والسويبي ، ولم توجد إلا آثار ضئيلة من بقايا اللغة الوندالية (٣) .

* * *

أما عن أحوال شمالي أفريقية بعد طرد الوندال ، فيمكن أن تلخص في الاضطراب المستمر من جانب البربر الوطنيين ومن جانب الحامية الرومانية نفسها . والمعروف أن البيزنطيين حكموا شمالي أفريقية ، على أثر طرد الوندال ٥٣٣/٥٣٤م إلى منتصف القرن السابع الميلادي ، عندما جاء الفتح العربي الاسلامي ، أي ما يربو على قرن من الزمان

الظاهرة الكبرى المميزة لتاريخ شمالي أفريقية ، خلال ذلك القرن ، هي الصراع الدائم ضد الوطنيين من البربر ، ولا عبرة لفترات الهدوء القصيرة الأجل ،

Deanesly, PP. 116 Sqq.

(١)

(٢) راجع ما سبق

(٣) Kartsen, PP. 219-220 ; Boissonnade, PP. 18-26.

(٣)

التي كانت تتخلل ذلك الصراع : بل إن خطر البربر الوطنيين بدأ فعلا ولما يزال بلزار يوس في أفريقية ، وقبل أن تستقر أوضاع السيادة البيزنطية الجديدة ، أو تنظم قوة دفاعهم عن الولاية : وكما دوح البربر ، الوندال من قبل ، كذلك لم يكن البيزنطيون بأسعد حالا من أسلافهم في حكم تلك البقاع (١) .

وخلال الفترة التي تلت زوال السيادة الوندالية مباشرة ، كان البربر يكونون ثلاث مجموعات رئيسية في مناحل شمالى أفريقية :

١ — في الشرق قبيلة لواته وأحلافها من القبائل البربرية الأخرى مثل هواة وأورينة ونفراوة وأوربة . وهذه تنتشر في طرابلس وبرقة وجبل أوراس وماوالا .

٢ — صنهاجة في الغرب ، وتنتشر فروعها داخل المغرب الأوسط والمغرب الأقصى . وتشمل كتامة وزواوا وزناتة وبنى فريدة وغماراوبرغواطة ومصمودة وجزولة ولطة ، ويلاحظ أن صنهاجة وفروعها هم المعروفون باللمثمين (٢) .

٣ — زناتة وتنتشر فروعها في منطقة ممتدة من طرابلس شرقاً إلى الغرب (٣) .

أى أن جميع الساحل الأفريقي كان مهدداً دائماً بهذه القبائل في أى جزء من أجزائه .

Basset, op. cit.

(١)

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ٣ .

Bury, P. 141 ;Basset op. cit.

(٣)

وظهر في تلك الفترة زعماء من البربر، أمثال يبداس *Yabdas* ويتزعم بربر جبل أوراس ، ويتزعم البربر في موريتانيا إثنان هما ماسيناس *Massinas* وماسونا *Masuna* ، وكذلك الزعيم أنتالاس *Antalas* في پيزا كينا — وهي ولاية أفريقية الرومانية سابقاً أي تونس الحالية تقريباً — وبجواره الزعيم كانسنا *Cutsina* (١).

لم يكف البربر عن مهاجمة الحاميات الرومانية ، الموزعة في مواقع متباعدة ، ومهاجمة سكان المدن من المستوطنين الرومان ، وربما كان بربر جبل أوراس من أخطر القبائل البربرية التي هددت المدن الساحلية .

وكان باستطاعة القوات البيزنطية أن تحمي الحدود الطويلة الممتدة ، ضد هجمات البربر ، ولا سيما وأن البربر يعتمدون على فرق الفرسان الخفيفة ، مع العلم أن البربر يتفوقون على الرومان بأعدادهم الكبيرة ، غير أنه يمكن التغلب على قلة عدد الرومان بالنسبة للبربر ، إذا أخلص جنود الحامية الرومانية في أداء واجباتهم ، وإذا كفوا عن الأحقاد والضغائن الفاشية بينهم ، وإذا نجح قادتهم في سياستهم ؛ ولكن هذا كله ، افتقر إليه البيزنطيون في شمال أفريقيا ، ولم يكن للسيادة البيزنطية أن تظل قرناً في شمال أفريقيا ، إلا لانقسام قبائل البربر أنفسهم وكثرة الصراع بينهم ، فهذا وحده هو الذي مزق وحدة البربر ، حتى كان الرومان يستعينون بفريق ضد آخر ، كما حدث في انتصار القائد الروماني تروجليتا *Troglita* على قبائل لواته في طرابلس الذين هاجموا الرومان بزعمارة كاركسان *Carcasan* عام ٥٤٧ م فلم يتحقق النصر على لواته إلا بفضل مساعدة بربر حيل أوراسي (٢) .

Bury, P. 141.

(١)

Bury, PP. 147-48 ; Basset op. cit.

(٢)

يضاف إلى ذلك كثرة تمرد جنود الحامية الرومانية في شمال أفريقيا ، لتأخير روانبهم باستمرار ، وللخلاف المستحكم حول اقتسام الغنائم ، فضلاً عن وجود عدد كبير من الأريوسيين ، وهم الذي يكونون فرق المعاهدين ، التي تحارب بين صفوف الرومان ، أسماء هذا الفريق ، سياسة التعصب الديني التي مارسها الرومان ضد الأريوسية ، إذا أعيدت الكنائس التي انتزعت من الكاثوليك زمن الوندال ، إلى ما كانت عليه ، وهناك عدد كبير من الرومان الذين تزوجوا من النساء الونداليات ، وحالوا استرداد الأملاك التي كانت لزوجاتهم أو آبائهن السابقين زمن السيطرة الوندالية ، وصادرتها الحكومة الإمبراطورية وأعادتها إلى ما كانت عليه سابقاً ، مما أدى إلى وجود مشاكل معقدة لإثبات حق الملكية ، فضلاً عما تخال ذلك من تزوير الوثائق وقيام قضايا لاحتصر لها (١) .

ثم إن السياسة الإمبراطورية فشلت في إقرار السلام الدائم في شمال أفريقيا ، حقيقة هي نجحت في حماية الحدود ، وفي الاحتفاظ بالسيطرة الرومانية ، لكنها لم تنجح في إقامة سلام مستمر ، والدليل على ذلك كثرة الولاة الذين تعاقبوا الحكم في أفريقيا زمن الإمبراطور يوستانيوس نفسه ، وكثرة الشقاق الذي وقع بين هؤلاء القادة الولاة وبين جنودهم . وفشل هؤلاء الحكام في الضرب على أيدي البربر . وأول هؤلاء الولاة ، بعد بلزار يوس ، هو القائد سولومون الذي صحب بلزار يوس في الفتح وولى الحكم بعد رحيل بلزار يوس ، بلقب جديد هو قائد جيش أفريقيا ، اضطر إلى الهرب من أفريقيا إلى صقلية أمام غزوة البربر الكاسحة في عام ٥٣٦م وخلفه جرمانوس Germanus الذي ظل سنتين ، ثم أعيد سولومون (٥٣٩م) ، لكنه ذبح في معركة كليوم Clilium عام ٥٤٤م أمام قبيلة لواته وأحلافها ، وشجع هذا النصر قبائل البربر الأخرى فهاجمت الأملاك الرومانية ، حتى أن القوط الغربيين في أسبانيا ، أغرام فشل الرومان فأرسلوا جيوشهم عبر الزقاق

واستولوا على ميناء سوتة ؛ وكان خليفة سولومون في أفريقية سرجيوس Sergius
دوق طرابلس ، الذي كان السبب بسوء تديره وجبنه وقصر نظره ، في إثارة لواته
وغيرها ، ووقع سرجيوس في شقاق مع جنوده ، فعين الأمبراطور اريوباندوس
Areobandus قسماً له في السلطة ، ولما لم يتفقا ، أعفى سرجيوس وانفرد زميله
بالحكم (١) . ومع ذلك ظلت الأحوال مضطربة ، وفشل في إقرار النظام ، وخلفه
تروجليتا Troglita ، وهكذا لم يستقر الحكم الروماني في شمالي أفريقية في وقت
من الأوقات .

وبالإضافة إلى هذه الاضطرابات ، وتمرد الجنود ، وسوء الإدارة ، وقع طاعون
في مطلع حكم البيزنطيين في شمالي أفريقية ، بعد القضاء على دولة الوندال ، واستمر
من ٥٤٢ إلى ٥٤٣ م ، وقضى على أعداد كبيرة من سكان الأمبراطورية . ومن
بين ضحاياه ، عدد ضخم من الرومان في شمالي أفريقية (٢) .

وهذا كله عيب الطريق للفتح العربي الإسلامي في منتصف القرن
السابع الميلادي .

ابراهيم علي طرغما

Ibid. P. 146.

(١)

(٢) راجع ما كتبه مؤنس في (فتح العرب للمغرب) ص ١١ - ٤٧ .

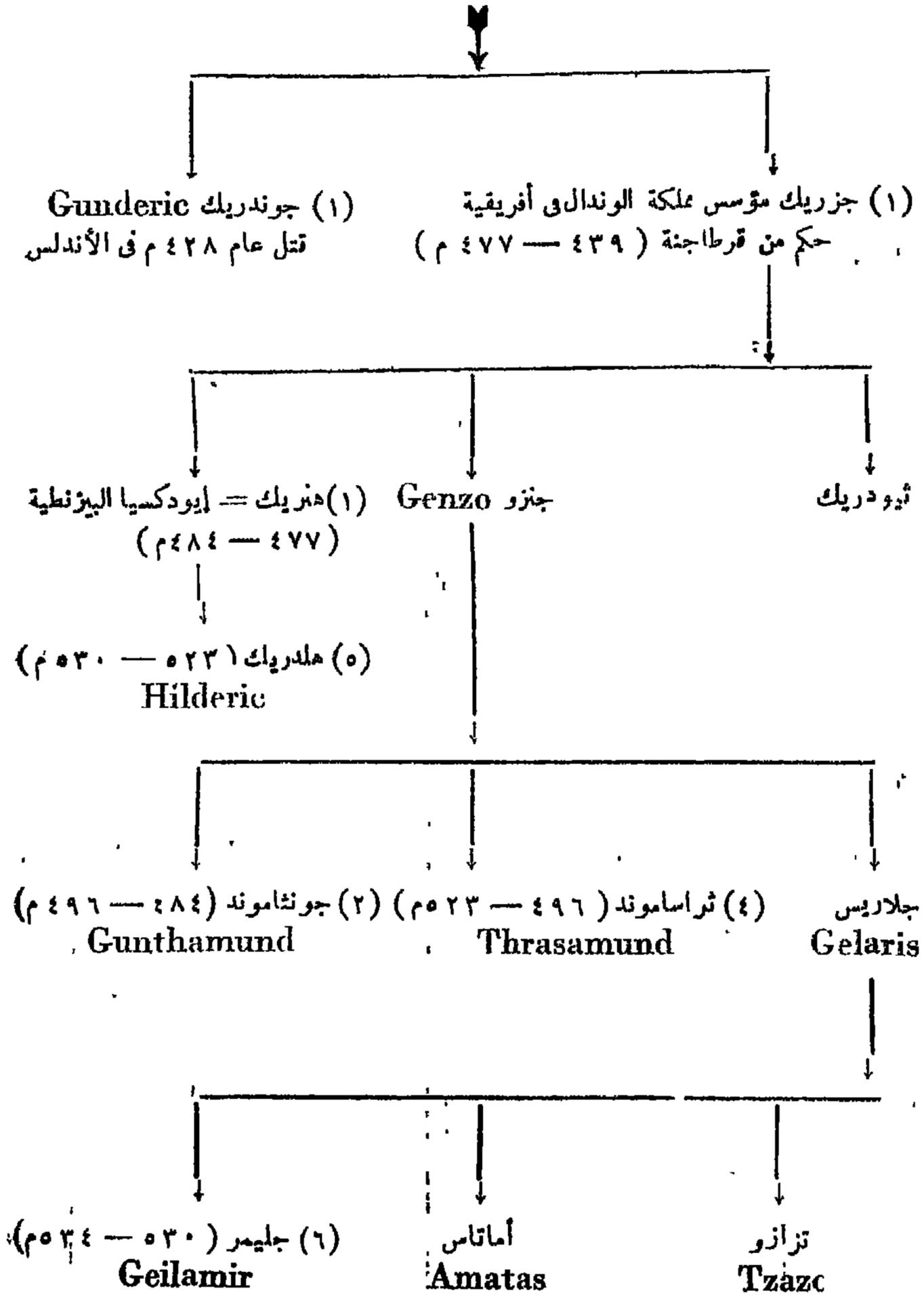
Bury, op. cit. P. 135 ;

(ملوك الوندال في أفريقيا)

٤٣٩ — ٥٣٤ م

جوديجسكلس Godigisclus

قتل عام ٤٠٦ م عند نهر الراين



الآباطرة الرومان المعاصرون لدولة الوندال

منذ قيامها في أفريقية ٤٢٩ إلى زوالها ٥٣٤ م

رقم مسلسل	اسم الأباطرة	مدة حكمه	ملاحظات
١	هونوريوس Honorius ابن ثيودوسيوس	٣٩٥-٤٢٣ م	
٢	جنا الموثق Joanne	٤٢٣-٤٢٥	قتله جيش الشرق
٣	فالتينيان الثالث Valentinian III	٤٢٥-٤٥٥	حكم بوصاية أمه بلاسيديا ابنة هونوريوس ، وقتله أنصار أيتيوس
٤	ماكسيموس Petr. Maximus	٤٥٥	مات بعد ثلاثة شهور
٥	أفيتوس Avitus	٤٥٥-٤٥٦	رشحه القوط الغربيون وعزله ريكمر صانع الآباطرة وتحكم في السلطة حتى أبريل ٤٥٧ م
٦	ماريويانوس Majorianus	٤٥٧-٤٦١	أعظم آباطرة تلك الفترة
٧	ساويرس Severus	٤٦١-٤٦٥	رشحه ريكمر ، وتحكم في السلطة بعد وفاته إلى ٤٦٧ م
٨	أنثيميوس Anthemius	٤٦٧-٤٧٢	مرشح الشرق، عزله ريكمر وقتله
٩	أوليبريوس Olybrius	٤٧٢	رشحه ريكمر والوندال
١٠	جليكريوس Glycerius	٤٧٣-٤٧٤	رشحه البرجنديون طرده أورستيز
١١	يوليوس نيبوس J. Nepos	٤٧٤-٤٧٥	رشحته بيزنطة
١٢	روملوس أوغسطس R. Augustus	٤٧٥-٤٧٦	ابن أورستيز ، طرده أدواكر وقتل أباه عام ٤٧٦ م ، وأقام حكومة في إيطاليا من ٤٧٦ - ٤٩٣ م .
١٣	زينو Zeno	٤٧٤-٤٩١	الآباطرة الشرق والغرب ، وافق على تبعية حكومة ادواكر للعرش البيزنطي . لكنه استمدى عليه القوط الشرقيين .
١٤	أناستاسيوس الأول Anastasius I	٤٩١-٥١٨	
١٥	جستين الأول Justin I	٥١٨-٥٢٧	
١٦	يوستانيوس Justinianus	٥٢٧-٥٦٥	قضى على دولة الوندال في أفريقية وأعاد شمال أفريقية إلى السيادة الرومانية البيزنطية . ٥٣٣ / ٥٣٤ م .

القرماطيون

ظهر هذا الاسم في المصادر العربية ، لأول مرة فيما نعلم ، في أخبار ثورة الزنج التي قامت في البصرة وهددت كيان الدولة العباسية ما يقرب من أربعة عشر عاماً (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٩ - ٨٨٣ م) (١) .

ولعل أكثر الذين اشتركوا في هذه الثورة كانوا من الذين نزحوا من البلاد الأفريقية ، ولا سيما بلاد الزنج (أي السومال) ، واستخدمهم ملاك الأرض في إزالة الطبقة الملحية - السبخ - التي تغطي الأراضي في سهول البصرة ، وكشف التربة الصالحة للزراعة ، ونقل السبخ وجعله في أكوام أو تلال للفادة منه في الوقت نفسه (٢) .

كان من بين هؤلاء الإفريقيين زنج سوماليون كما قلنا ، ولعلهم كانوا أكثر عدداً لقرب بلادهم من العراق وسهولة النزوح إليه ، وكان منهم النوبة الذين انتقلوا من السودان وادي النيل ، وكان منهم «القرماطيون» ، وهم - كما سنرى - جنس من أجناس السودان الغربي .

اشتهر من القرماطيين في هذه الثورة «راشد القرماطي» واهب فيها دوراً هاماً (٣) .

(١) أهم ما كتب عن ثورة الزنج :

أ - تاريخ الطبري - ١١ (ط الحسينية بمصر)

ب - Noldeke, Sbtches From Eastern Hist. (Lordon 1892)

ج - عبد العزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة (ط بغداد ١٩٤٥)

ص ٧٥ - ١٠٥

د - ثورة الزنج لفصيل السامر (ط بغداد ١٩٥٤)

(٢) فيصل السامر ص ٢٣ ، دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مجلد ١٠ (زنج) .

(٣) تاريخ الطبري ١١ / ١٧٤ .

ذكر المسعودى أن أول من صنف في أخبار ثورة الزنج في العراق محمد بن الحسن بن سهل المتوفى حوالى ٢٨٥ هـ^(١) . ولا نعرف عن هذا الكتاب إلا ما نقله عنه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (مثلاً ج ١١ ص ١٩٠) . ولم يحفظ لنا الزمن وصفاً معاصراً كاملاً لثورة الزنج إلا ما أورده ابن جرير الطبرى فى تاريخه (ولد الطبرى ٢٢٤ هـ وتوفى ٣١٠ هـ) .

لهذا يعد تاريخ الطبرى من أقدم المصادر التى روت أخبار هذه الثورة ودور القرماطيين فيها . ولا بد أن يكون الطبرى قد عاصر أحداث هذه الثورة وشهد بعضها على الأقل .

ومن بعده أشار المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) إلى « القرماطى » من بين الشعوب السودانية التى أمعنت فى المغرب وذكر أن لهم ملكاً ودار مملكة^(٢) .

وهناك كاتب عربى آخر ، عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وهو المقدس ، أورد فى كتابه « أحسن التقاسيم » (كتبه حوالى ٣٨٥ هـ / ٩٨٥ م) تعريفاً سريعاً موجزاً بالقرماطيين ، فوصفهم بأنهم جنس من أجناس السودان الكثيرة التى تتاخم أرضهم بلاد المغرب ومصر من قبل الجنوب ، وأنهم يتعاملون بالملح ، والنوبة والحبشة بالثياب^(٣) .

وفى عدا هذه المصادر لا نكاد نجد من كتاب العرب من أضاف شيئاً جديداً إلى الإشارات القليلة التى وردت فيها . وهذا أمر يسترعى انتباهنا ، ويدعونا إلى أن نتساءل عن حقيقة هذا الاسم ، وكيف نعلم سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن أخبار هذه الجماعة وتاريخها ؟

(١) مروج الذهب (نشر محيى الدين عبد الحميد) ١٩٥/٤ .
(٢) مروج الذهب (ط مصر نشر محيى الدين عبد الحميد) ج ٢ ص ٢٠ (القرماطى صوابها القرماطى) .
(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

أما التعرف على حقيقة هذه التسمية ، فالسبيل إليه أحد احتمالين : فإما أن يكون لفظ القرماطيين قد أطلق على هذه الجماعة بعد انتقالهم إلى العراق ، كأن يكون مشتقاً من لهجة أو مصطلح عراقي ، فهو في هذه الحالة ليس مكتسباً من موطنهم الإفريقي الأول . وإما أن يكون هذا الإسم — من مادته الأصلية — علماً معروفاً على شعب قديم من شعوب السودان الغربي حملوه معهم من موطنهم الإفريقي .

وإذا كان من اليسير أن نرد بعض الأسماء التي أطلقت على زنوج البصرة إلى مصطلحات محلية نشأت في العراق ، مثل قولهم : الفراتية ، وهم الزنوج الذين سكنوا منطقة فرات البصرة ، والشورجية ، وهم الزنوج الذين عملوا في إرالة الشورج ، وهو الزبد الملحي الذي كانت تجلبه المياه إلى أرض العراق الأدنى ثم تنحسر عنها — فليس من اليسير أن نرد كلمة مثل « القرماطيين » إلى اصطلاح عراقي . ولا أظن أن الأستاذ ماسينيون قد أدرك وجه الصواب فيما أورده في مقالته : الزنج والقرامطة^(١) من ربط مصطنع بين لفظي القرامطة والقرمطين . ويقول في مقالته الثانية (والأكثر احتمالاً أن يكون لفظ القرامطة مأخوذاً من لهجة « واسط » الآرامية المحلية إذ ورد فيها لفظ (قرمطا) ومعناه المدلس . وقبل أن تقوم حركة القرامطة بسنوات ، أي منذ سنة ٨٢٥٥ / ٨٦٨ م ، ظهرت في هذه المنطقة ذاتها ، فرقة تسمى « القرماطية » إلى جانب فرقة الفراتية ، وكانت من بين فرق الجند المحاربة في ثورة الزنج .

فالواقع أن محاولة الربط بين هذين اللفظين هي خلط بين جماعتين وحركتين ، مبنى على مجرد التشابه اللفظي . وإذا جاز أن يكون لفظ القرامطة مشتقاً من لهجة محلية ، على اعتبار أن معظم أفرادهم كانوا من العرب والأنباط الذين رسخت

(١) الأولى في دائرة المعارف الإسلام (مجلد ١٠ - الترجمة العربية) والثانية في Shorter Eneye of Islam (Karmitians)

أصولهم في البيئـة العراقيـة وما جاورها من عهود بعيدة ، فإنه من المستبعد أن يكون لفظ القرماطيين من نفس الاشتقاق ، ولا سيما إذا عرفنا أن حركة الزنج قد اختلفت إلى حد كبير ، في زمانها ووسائلها وطبيعتها عن حركة القرامطة ، وأن الوصف الذي أورده كل من المسعودي والمقدسي عن القرماطيين قد أكد أنهم جنس كسائر أجناس السودان ، ولم يشر أي منهما إلى صلتهم بالبيئـة العراقيـة ، ولا لاثورة الزنج في العراق . وكلاهما — على اقتضابه — يدل على أنهم جنس معين في إفريقية ، لهم طريقة في التعامل (في موطنهم الإفريقي طبعاً) تختلف عن طريقة النوبة والحبشة ولهم ملك ودار مملكة . فالأرجح أن يكون إسمهم مكتسباً من موطنهم الأصلي في إفريقية ، وأن يكونوا قد حملوه إلى العراق ، كما حمل الزنج والنوبة إسميهما من إفريقية واحتفظوا بهما في المهجر العراقي وغيره من المهاجر .

وهنا نقف عند السؤال الثاني : كيف نعمل سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن التعريف الكافي بهذا الشعب وتاريخه في موطنه الأفريقي ، على الرغم مما نعرفه من حرص هؤلاء وأولئك على تدوين كل ما انتهى إليهم عن شعوب السودان وممالكهم وأخبارهم ؟

والواقع أن الشعوب التي عرفها العرب في منطقة السودان الغربي وتحدثوا عنها حديثاً مفصلاً ، هي الشعوب التي برزت في صورة ممالك أو سلطنات إسلامية واستمرت علاقاتها بالعالم الإسلامي زماناً غير قصير . ولا ريب في أن أكثر شعوب السودان الغربي قد أبرزها النشاط الإسلامي والنشاط التجاري متضافرين في تلك العصور ، فلمت أسماؤها في ميادين الحرب والسياسة والتجارة والدعوة إلى الإسلام ، وظفرت بنصيب غير قليل مما كتبه العرب .

ولم يكن القرماطيون — على ما يظهر — من جملة هذه الكثرة الغالبة من شعوب السودان الغربي التي لُمت أسماؤها ، ولم يتح لهم في بلادهم — في العصور

الإسلامية — ما أتيج لإخوانهم من فرص التفوق في أى مجال من المجالات
المشار إليها . ومن أجل هذا — فيما نرجح — أغفل المؤرخون العرب ذكرهم إلا
في القليل النادر .

وإذا أردنا أن نبحث عن مثال من تلك الشعوب القليلة التي ضعف شأنها
بانتشار الإسلام في المنطقة الواقعة جنوبى بلاد المغرب ، فإن لدينا حالة معينة
ذكرها الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق » ، وهي حالة أهل « ودان » إذ
يقول (١) : « وأما أرض ودان فإنها جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى
ناحية البحر ، وكانت فيما سلف أكثر الأرض عمارة ، وكان الملك في أهلها
ناشئاً متوارثاً ، إلى أن جاء دين الإسلام ، فخافوا من المسلمين ، فتوغلوا هرباً
في بلاد الصحراء فتفرقوا ، ولم يبق بها الآن إلا مدينة « دواد » (٢) وهي الآن
(أى في القرن السادس الهجرى) خراب ليس بها إلا بقايا قوم من السودان
معايشهم كدرة وأمورهم نكدة .

ولعل هذا النص يعبر عن جزء من حادث كان أوسع مجالاً مما ذكره
الإدريسي . فلم تكن أرض ودان — في حقيقة الأمر — إلا مركزاً واقعاً
في طريق تجارى طويل عامر بسكانه ، أهم مرا كزه : فزان — جرمه — ودان .
وكان هذا الطريق مزدهراً منذ عصور قديمة ، قبل الإسلام ، وظل كذلك ، إلى
أن تفرق أهله بسبب الغزوات الإسلامية من جهة ، واشتداد العواصف الرملية
وعجزهم عن مقاومتها من جهة أخرى ، مما حدا بالتجار إلى التحول عنه إلى طريق
آخر هو : طريق سجلماسة — أودغشت — منحنى النيجر .

عاش على ذلك الطريق التجارى (طريق فزان . جرمه . ودان) ، منذ

(١) وصف أفريقيا الشمالية (قطعة من نزهة المشتاق للإدريسي) تحقيق بريس
(ط الجزائر ١٩٥٧) ص ٢٣ .

(١) قرأها بالمر (The Bornu, Sahara & Sudan 1936) (واو) وربما
سمتها (ودان) .

عصور ما قبل الميلاد ، شعب سماهم اليونان الجرمانت Garamantes ، ازدهروا في زمان المؤرخ هيرودوت (حوالي ٥٠٠ ق م) وامتدت مساكنهم على طول ذلك الطريق . وفي جنوب فزان تقع منطقة جرمه Garama التي نسبوا إليها ، وهي مركزهم الأول ، وفيه استقرت جماعات منهم ، ونالت نصيباً من الحضارة ، وامتصت قدرأً صالحاً من الثقافة المصرية أو الليبية القديمة ، واستخدمت مركبات الخيل . ومنهم من امتدت مساكنهم إلى داخل الواحات الواقعة غربى مصر . فإذا اتجهنا إلى المراكز الجنوبية من هذا الطريق ، وجدنا فريقاً من الجرمانتين قد ضربوا خيامهم في الصحارى الجنوبية ، بعيداً عن مركزهم الأول « جرمه » ، وبلغت مساكنهم واحة العوينات . ومنهم جماعات أقاموا في المنطقة التي سميت فيما بعد « بلاد الكانم » ، وفي تيبستي (١) .

ويتضح من هذا كله أن الجرمانتين كانوا قاطنين على مراكز هذا الطريق ، وما تفرع منها إلى الشرق . وظلوا كذلك في خلال عصور ما بعد الميلاد ، إسماعلياً يجد عناية المؤرخين من اليونان والرومان ، ويمتلك قدرأً كبيراً من السيطرة والنفوذ .

ثم هجر التجار هذا الطريق في العصور الإسلامية الأولى للأسباب التي ذكرنا ، وتفرق أهله ، وتقطعت الوشائج بين جماعات الجرمانتين ، واتمس بعضهم سبيل الهجرة إلى مناطق أخرى ، وصارت كل فئة وقد اختلطت بعناصر حامية وزنجية مختلفة على حسب مؤثرات البيئات التي عاشوا فيها أو انتقلوا إليها ، وعرفت فئات منهم بإسم خاص غير الإسم القديم المشترك . فهؤلاء الذين عاشوا في تيبستي وما حولها كانوا هم النواة التي كونت جماعة « التبو » . ولعل هذه الجماعة نفسها هي التي عرفت في شمالي دارفور بإسم الجروان أو القرعان . ولا تزال بقاياهم تؤلف جزءاً من سكان دارفور في الوقت الحاضر .

(١) بالدرص ٤ ، ٨٠ ، ١٧ هامش .

أما الإسم القديم المشترك ، وهو الجرمانتيون ، فلا يطلق في الوقت الحاضر على أية جماعة من هذه الشعوب التي تسكن إفريقيا . فقد عني عليه الزمن ، واندرج في طي النسيان على مر العصور .

على أنه من المستغرب أن يختفى إسم الجرمانتيين دفعة واحدة حتى من المصادر العربية المبكرة ، ولا سيما إذا عرفنا أن العرب المسلمين لا بد أنهم أدركوا فترة ما من قوة هذا الشعب ، قبل أن يصل إلى حضيض الوهن والضعف والتفريق . بل لقد عرف الفاتحون الأولون من العرب المسلمين ، مدينة « جرمة » مركز الجرمانتيين الأول ، فعندما قدم عقبة بن نافع « ودان » وافتتحها سأل أهلها هل من ورائكم أحد ؟ فقبل له : جرمة وهي مدينة فزان العظمى ، فسار إليها ثمانى ليالٍ من ودان ، فدعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا (١) .

وقد يزول هذا الأمر المستغرب ، إذا انتهينا إلى احتمال أن يكون بعض كتاب العرب الأوائل ، ممن نقل عنهم الطبرى والمقدسى والمسعودى قد عرفوا هذا الإسم القديم المشترك ، وذكروه في كتبهم في صيغة « القرماطيين » وما أشبه أن يكون تعريفاً للفظ الجرمانتيين .

من المحتمل أن يكون الفاتحون من العرب الأوائل عرفوا هذه الجماعة بإسمها عندما غزوا جرمة وودان ، وربما حملوا معهم أسرى منهم إلى البلاد الإسلامية .

فإذا صح هذا أمكن القول بأن فئات من الجرمانت كانوا من جملة الجماعات التي انتقلت من أفريقيا إلى العراق في تجارة الرقيق أو غيرها ، في عصور الإسلام المبكرة ، قبل أن يعنى الزمن على إسمهم القديم المشترك ثم ظهروا في ثورة الزنج في القرن الثالث الهجرى وكان لهم دور في هذه الثورة .

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (تحقيق عبد المنعم عامر) ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ - وأنظر (جرمة) في معجم البلدان ليا قوت .

أما القرماطيون (الجرمانت) في موطنهم الأصلي ، في أفريقيا ، فمن المحتمل أن سلطنتهم قد استمر - كما قد يفهم من كلام المسعودي - إلى القرن الرابع الهجري ، ولعله لم يستمر كثيراً بعد زمن المسعودي . لعله كان آخذاً في الضعف والانحلال ، مع انقضاء القرن الرابع الهجري .

وعندما أخذ مؤرخو القرون التالية ، « القرن الخامس وما يليه » ، يسجلون شعوب السودان الغربي وممالكهم ، لم يكن للجرمانت أو القرماطيين شأن ولا سلطان في بلادهم فأغفلوا ذكرهم .

عبد المجيد عابدين

تاريخ بناء القرويين . . .

٢٤٥ - ٢٦٣ - ٣٠٦

إن كل أوائلك الذين كتب لهم أن يزاولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيداً أن ابن أبي زرع في كتابه القرطاسين نقلاً عن أبي القاسم ابن جنون في تاريخه لمدينة فاس ، وكذا سائر الذين حدثوا حذوه من أمثال الجزنائي في زهرة الآس ، وابن خلدون في تاريخه : العبر ، وابن القاضي في جذوة الاقتباس وغير هؤلاء يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس شرع في حفر أساسه والأخذ في أمر بنائه أول رمضان من سنة ٢٤٥ (٣٠ نوفمبر ١٨٥٦) بمطالعة العاهل الإدريسي يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوعت ببنائه وظلت صائمة محتسبة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكراً لله ، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمح الباحث لنفسه لإستسلام للشك فيها والتردد أمامها سيما وهي ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب أعنى وقت بني مرين أوائل القرن الثامن الهجري ، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة للإدارة ، أنها لوحة منقوشة عشر عليها — عند أعمال الترميم — في البلاط الأوسط فوق قوس الحراب القديم الذي كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد ، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها — في جملة ما كتب — بخط كوفي إفريقي عتيق : « ... بنى هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتي سنة مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن أدريس أبقاه الله ... ونصره نصراً عزيزاً » .

وما دمنا في استعراض الآراء حول تاريخ بناء القرويين لا بد أن نعرض لرأي ثالث الدكتور أوسكار لانز (١) ، فلقد ساق ترجمة لنقش قيل أنه عشر عليه

فوق « صفيحة فضية » مغروزة في أحد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية : « ... بنى يوم الخميس من سنة ٣٠٦ أول شهر ربيع النبي ... » أي أي في أيام ولاية يحيى الرابع ...

وحتى نرجع إلى حديث فاطمة وداود. نشير إلى أن رواية الدكتور لانز ، لأنها أي وزن من الناحية التاريخية لأنها خالية من كل سند ملموس سيما مع إباحة الطالب إدريس الذي زوده بهذه الوثيقة والذي لم يكتبه أنه وجد وصلوبة في الوصول إلى بقية النقش ، الأمر الذي يقرب إلى « أساطير » السياح أكثر. مما يخدم الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم بأن أول ربيع الأول يوافق — حسابياً — يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس ... وبعد فلنرجع إلى ابن أبي زرع ، واللوحة المنبمثة ولكن قبل أن نفتح الموضوع يجب أن نتعرف في كلمة وجيزة عن عن الإمام داود بن إدريس تاركاً التفصيل للبحث الذي كنت كتبه خصيصاً عن هذه الشخصية (١) :

بالرغم من أن جميع المؤرخين بخلوا على داود هذا بأكثر من كلمة واحدة تتلخص في أنه « لما توفي إدريس الثاني قام بالأمر بعده ابنه محمد ، وأن هذا الأخير قسم بلاد المغرب بين كبار أخوته ترضية لهم وكان من بينهم داود الذي استأثر بإقليم تازة . وقد رددت سائر المصادر صدى « الفتنة » التي نشبت بين بني إدريس على أثر هذه « الترضية » لكنها لم تعد بحال لذكر اسم داود ، وقد كاد هذا الاسم يعد في عداد الضائعين لولا عناصر ثلاثة :

أولها : اليعقوبي (٢) الذي يذكر أن داود بن إدريس كان والياً على عدوة

(١) النازي ، مجلة « دعوة الحق » العدد السابع ، السنة الثالثة إبريل ١٩٦٠ — مجلة « مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد ٣٦ جزء ٢ ص ٢١٢ .

(٢) اليعقوبي ، أخبار البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٠ — ص ١٣٧ Blsohōra Heapēria

الأندلس وأنه كان «يدافع» يحيى صاحب عدة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى ،
ثانياً : الدرهم الموجود بالمسكبة الوطنية بباريز الذي يحمل اسم الإمام داود بن
ابن أدريس (١) .

ثالثاً : هذه اللوحة الأثرية التي يحتفظ بها الآن في المركز الرئيسي لتصلحة الأثر
الآثار بالملك المغربية .

وبعد هذا نرجع إلى الحديث ...

هل القرويين من تأسيس فاطمة ؟ أو من عمل داود ؟ .

لقد كنت كتبت بمجرد وقوفى على اللوحة كلمة في الموضوع نشرت في مختلف
المجلات العلمية سواء بالمغرب (١) أو القاهرة (٢) أو تونس (٣) وأسبانيا (٤) ، وكنت
قصدت كما صرحت بذلك أن أثير انتباه الناس عليهم يساعدون على إضفاء الضوء
على هذا الحقائق ، ومن سوء الحظ أننى إلى الآن لم أقف على « رد فعل » من
طرف الذين يهمهم أمر التاريخ حاشا بعض « الفروض » التي تلقيتها من بعض
الأساتذة الأجلاء الذين جرحوا على أن يجعلوا نقل القرطاس في نجوة من
الشبهة والريب .

ففى الناس من أوصى بنبذ أمر هذه اللوحة لأنها فى نظره تناهض « تواتراً »
متوارثاً عبر الأجيال ، وفيهم من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت من مكان آخر
وغرزت هنا . . . وأن ذلك تم على عهد الوطاسيين فى الفترة القصيرة التى رجح
فيها النفوذ للشرفاء الأدارسة بواسطة محمد بن على الجوطلى (٥) .

(١) التازى — مجلة التربية الوطنية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(٢) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٣) التازى - مجلة الفكر - السنة الخامسة عدد ٦ ، مارس ١٩٦٥ ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(٤) التازى - مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد - المجلد السادس ، ١٩٥٨ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

وفي الناس طائفة ثالثة يصممون على أن يأخذوا بما ورد في مدلول اللوحة نظراً أولاً لكونها « وثيقة معاصرة » ، وثانياً لما أثر في هفوات عن القرطاس ، وثالثاً لكون بعض الرحالة والمؤرخين القدامى من أمثال اليعقوبي والبكري وابن عذارى تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لكنهم لم يرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذي عرف في القرطاس ...

فماذا تكون الحقيقة ؟ .

أما « التوصية » بنبد اللوحة فأمر سلبي لا يسمح به المؤرخ النزيه ، وأما عن أمر نقل اللوحة وخاصة أيام الوطاسيين فإنه يبعده عندي أن التاريخ ظل صامتاً صمتاً مطلقاً عن مؤسسات داود ابن إدريس في مناطق نفوذه فلا يمكن أن ندعى إذن أنه أسس هناك « مسجداً » وأن « اللوحة » التي كانت على ذلك المسجد هي التي نقلت لكن إلا بعدد هو القول بأن عملية النقل تمت على عهد الوطاسيين مع أنها وجدت تحت الجبس الذي ضرب — منذ نهاية دولة المرابطين — على سائر جهات البلاط الأوسط ، ولم يتحدث التاريخ أبداً عن إزاحة « التبليط »^(١) الذي قام به فقهاء فاس والمسؤولون في الدولة الموحدية ، لذا فأمام قوة هذه الوثيقة الناطقة واعتباراً لما نقل عن اليعقوبي وعرف من أمر السكة الداودية واحتراماً لما نقل عن أبي القاسم بن حنون^(٢) ، وأبي محمد عبد الملك بن محمود الوراق^(٣) مما تردد صداه في الأنيس المطرب وانعكس في زهرة الآس والعبر والحدوة ، ونظراً لأننا لم نعتبر لحد الآن علي نصي تاريخي آخر يعزز بناء الإمام داود لجامع القرويين ،

(١) مجلة كلية الآداب — الاسكندرية ، العدد ١٤ سنة ١٩٦٠ ص ٦٠ — ٨٨ —
المؤتمر الثالث للآثار العربية ، نشر الجامعة العربية صفحة ٤٤٥ — ٤٦٥ ، التنازي :
جامعة القرويين في أحد عشر قرناً ، طبعة الحمدية ص ٨ .

(٢) رسالة في نذكر من أسس مدينة فاس (مخطوطة) مجهولة المؤلف بمعهد المخطوطات التابع
لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩١٧٢:٢٢ ح .

(٣) مخطوط في تاريخ البلاد سنة من أكوينها من مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة
الدول العربية .

ونظراً لكون النقش المشار إليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين ، أقول
مراعاة لكل ذلك نجد أنفسنا بين احتمالين :

فإما أن يكون ابتداء البناء كان في رمضان ٢٤٥ في أيام يحيى ولكنه استمر
إلى سنة ٢٦٣ أيام داود بن إدريس وتكون فاطمة استغرقت في صومها كل هذه
المدة ، ويؤيد هذا الرأي أولاً ما استهدفت له البلاد من حالة الجفاف في هذه
الأثناء ، وثانياً ما تعهدت به فاطمة والتزمت من استخراج كل مواد البناء من
نفس البقعة تحريماً ، وثالثاً أن المصادر التاريخية إنما تحدثت عن ابتداء البناء ولم
تتحدث عن انتهائه ، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة .

وأما أن يكون البناء تم في نفس السنة نظراً لكون الجامع — ومساحته
لا تصل إلى ألف متر مربع — لا يمكن التهاون في أمر بنائه طيلة ثمانية عشر
عاماً . . . ويفسر وجود داود بن إدريس هنا بأنه في الفترة التي كان « يدافع »
فيه يحيى ، تمكن في بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتخليداً
لهذا الفوز الذي حصل عليه في عدوة القرويين ورغبة في أن تعرف الأجيال القادمة
أنه « كان هنا » فقد شاء أن ينقش اسمه كنصب تذكاري في هذه الجهة ، ولما
كان الملوك ، والرؤساء يختارون أبرز مكان وأشهره لتخليد أسمائهم ، وكان
أفضل مكان في المسجد وأطهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه « الأرزة » عليه
حتى تظل أمام المتعبدين والقاصدين . بقي أن يتسائل عن اختفاء اسم فاطمة من
اللوحة مع أن النصوص المذكورة تتضافر على أنها المؤسسة ؟

فإننا نعلم أن التقاليد القديمة لا تلج في ذكر أسماء النساء على المباني سيما مع
ما أثر من أن الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقديراً لهم
وتكريماً لمقامهم .

وبعد . . . فهل ستكون هذه كلمتنا الأخيرة حول تاريخ بناء القرويين ؟

عبد الرهمن الثاني

السجاد الاسلامى ومشتقاته فى اسبانيا

لم يحكم المسلمون بلداً من البلدان إلا وكان أثرهم واضحاً فى تطورها وتقدمها . تطورا وتقدماً نلمسهما فى مختلف مظاهر الحضارة والثقافة . فهذه اسبانيا أو الأندلس كما كان يسميها العرب ، كانت على عهدهم منارة للعلم والمعرفة فى الوقت الذى كانت فيه بقية البلاد الأوربية تعيش فى الظلام والجهالة ، وكانت كعبة يهج إليها الراغبون فى التعلم والاستزادة من مناهل العلم والمعرفة بها .

وازدهرت بها الفنون والصناعات فخلبت مظاهر البذخ والترف التى كان عليها بلاط الخلفاء وقصور الأمراء المسلمين انظار من كان يفد إليها من الأوربيين وعرفت اسبانيا إبان هذا العهد أنواعاً من الصناعات لم يكن لها بها عهد من قبل ومن هذه الصناعات صناعة السجاد ، بل إن أوربا نفسها لم تعرفه قبل اسبانيا ، وكان ظهور السجاد الإسبانى فى لندن عام ١٢٥٥ مثار دهشة الانجليز ذلك أنه فى هذا العام احتفل بهذه المدينة بعقد قران ليونور القشتالية إلى ادوارد الأول وغطيت الطرقات والحجرة المخصصة للأميرة بالكنيسة بالسجاد . بل إن كثيراً من السجلات الأوربية وبخاصة فى فرنسا تنسب السجاد إلى اسبانيا(١) .

ومما يبرز القول بأن المسلمين هم أصحاب الفضل فى إدخال صناعة السجاد فى اسبانيا هو أنه لم يصل إلينا من مخلفات الفنون التى ازدهرت فى شبه جزيرة أيبيرية قبل أن يفتحها المسلمون ما يدل على أن أهلها كانوا على علم بصناعة السجاد(٢) . وعن اسبانيا عرفت أوربا السجاد .

ولقد اشتهرت عدة مدن أندلسية بصناعة السجاد وحازت منتجاتها شهرة

(١) José Ferrandis: Alfombras Antiguas Espanolas p. 31.

(٢) F. Castany Saladrigas · Diccionario de Tejados: articulo, Alfombras

عظيمة بين سجاد البلاد الشرقية . ووصف بعض الكتاب العرب سجاد مدينة جنجالة بأنه لم يعلم له نظير وسجاد مدينة بسطة بأنه لا يقدر بثمن^(١) ، ومن البلاد الأخرى التي صنعت السجاد قرطبة^(٢) وبياسة^(٣) وقونكة^(٤) والمرية^(٥) وغرناطة^(٦) ومرسيه^(٧) وينشته^(٨) وبلانة^(٩) وبنية^(١٠) أو تننالة^(١١) التي اختلفت بصناعة تسفر إلى بلاد المشرق .

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسانذة الأسبان حول بنية وتننالة وهي التي يقابلها في اللغة الأسبانية chinchilla (جنجالة) إذ يذهب بعضهم أن مركز صناعة السجاد كان في بنية اعتماداً على ما ورد على لسان ابن سعيد والشقندي في حين يرى البعض الآخر أنها تننالة على حد قول المقرئ ولكن chinchilla (جنجالة)^(١٢) هذه بلدة أخرى خلاف السابقتين وتقع في إقليم البسيطة albacete بينما توجد البلدتان السابقتان في إقليم مرسية فليس لنا أن نخلط بين الاثنين وربما

-
- (١) الحميري : الروض المعطار مادة بسطة (طبعة ليني بروفنسال) .
 (٢) C. Sanchez-Albornoz : La Espana Musulmana vol I p. 332.
 (٣) الحميري : المصدر السابق ص ٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٦٢٤ ؛
 Torres Ballas : Ars Hispaniae vol. IV p. 205 ; Ibid : Alfombras Hispanomoriscas Al-Andalus t. IX, fasc. I, p. 233.
 (٤) الأدريسى : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ٢٣٧ ؛
 Sandchez-Albornoz : op.cit., vol. I p. 332 ;
 J. Ferrandis : Alfombras Moriscas p. 104.
 Torres Balbas : op.cit. Al Andalus, p. 233. (٥)
 Torres Balbas : Ars Hispaniae, vol. IV, p. 205. (٦)
 Simorret : Crestomatia Arabigo. Espinola p. 52. Gloss. 26. (٧)
 (٨) المصدر السابق .
 (٩) Torres Balbas : Ars Hispaniae, vol. IV, p. 387 ; Florence May. Hispano Moresque Rugs, p. 65.
 (١٠) Simonet : Crestomatie, p. 52, 39 Glossario ; Garcia Gomez : Elogia del Islam Espanol Al Suqundi p. 115 ; Lozoya : Historia del Arte Hispanico, vol. III, p. 313.
 (١١) المقرئ : نفح الطيب ص ٢ ص ٩٤ (طبعة القاهرة) .
 (١٢) الحميري : المصدر السابق ص ٨٤ ؛
 J. Ferrandis · Alfombras Hispano Moriscas, p. 103-104 ;

اسم بنيالة وتنتال يدل على بلدة واحدة وأن الخلط نشأ من تصحيف في نشر النصوص الأصلية للكتب العربية الوارد فيها هذا الاسم .

وقد امتدت صناعة السجاد إلى مدن أسبانية أخرى فاشتهرت كل من السكرز (١) ولينور (٢) وإيانور (٣) وبلنسية (٤) وميورقة (٥) بإنتاج أنواع معينة من السجاد ومما يدل على مبالغ الأثر الإسلامي في هذا الشأن استخدام كثير من الألفاظ العربية للدلالة على السجاد في اللغة الأسبانية فقد ظل لفظ القטיפنة والطنفسة (٦) مستخدماً في غرناطة بمعنى السجاد بعد زوال الحكم الإسلامي عنها ، كما اقتبس اسم الحجر (alfombra) وزربية (Garbia) للدلالة على السجاد .

ولقد استخدمت أسبانيا عقدة خاصة في صناعة السجاد اشتهرت بها وأصبحت علماً عليها ونسبت إليها وإن لم تكن قد نشأت أصلاً بها وهي العقدة الأسبانية إحدى العقد الثلاث التي استخدمت في صناعة السجاد الإسلامي . أما العقدتان الأخرى فهما العقدة (سنة) الفارسية والعقدة (جوردينز) التركية (شكل ١) .

وتعقد الخصل في العقدة الأسبانية على خيط واحد من خيوط السداة التي تقسم إلى خيوط فردية وأخرى زوجية ويكون عمل العقد على صف من الخيوط الفردية وعلى الصف التالي له من الخيوط الزوجية (٧) (شكل ٢) الأمر الذي ينتج عنه تعرج الخطوط المكونة للرسم (٨) . أما في العقدة الفارسية أو التركية

J. Ferrandis : op.cit. p. 104 ; ibid : Alfombras Antiguas Espanolas, (١) p. 38.

Florence-May : Hispano-Moresque Rugs, p. 55. (٢)

J. Ferrandis : Alfombras Antiguas Espanolas, p. 48 (٧) المصدر السابق : (٣)

: ibid : Alfombras Moriscas, p. 104 ; Florence May, op.cit., p. 65. (٤)

Florence - May. op.cit., p. 61. (٥)

J. Ferrandis : Alfombras Antiguas Espanolas, p. 29, 62. (٦)

Florence - May. op.cit., p. 24. (٧)

J. Ferrandis : op.cit., p. 19. (٨)

اللتان سادتا في الشرق فتمتد الخصل حول خيطين من خيوط السداة على ما بينهما من خلاف في طريقة عمل العقدة .

ويجب أن نشير هنا إلى أن العقدة الأسبانية ظلت هي العقدة الوحيدة المستخدمة في أسبانيا حتى القرن ١٧ م حيث أقبل الصناع على استخدام العقدة التركية التي قدر لها أن تسود في صناعة السجاد الأسباني ابتداء من هذا التاريخ وبخاصة في كل من قونكة وسلمنكة ومدريد وأقليم بلنسية (١) .

ونعتقد أن الفضل في إدخال صناعة السجاد بالأندلس يرجع إلى المصريين إذ أنهم كانوا يستخدمون هذه العقدة في صناعة السجاد كما يدل على ذلك أقدم ما وصل إلينا من السجاد المصري المنسوب إلى العصر الفاطمي (٢) .

وليس بعيد أن تكون شهرة إقليم مرسية في إنتاج السجاد راجعة إلى إسكان المصريين هذا الإقليم في عهد أبي الخطار حسام الدين بن ضرار الكلبي وذلك عندما قام بتوزيع الجنود على ولايات الأندلس عام ٧٤٢ م وكان من نصيب المصريين إقليم بلنسية (٣) .

والعقدة الأسبانية هي التي نراها مستخدمة في أقدم نماذج السجاد الأسباني التي قدر لها أن تصل إلينا إلا وهي سجادة المعبد ومجموعة سجاد الاميرال وسجاد هولبين .

ويحتمل أنه كانت هناك طريقتان لعمل العقدة الأسبانية تشاهد إحداها

(١) J. Ferrandis : Alfombras Antiguas Espanolas, p. 18 ; Florence - May. A single-warp knot carpet, p. 94 ; Lozoya : op.cit., p. 394

(٢) Dimand : A Handbook of Mohammedan Decorative Art., p. 279, Fig. 186.

(٣) Levy Provençal : Espana Musulmana (Trad. Esp: par Garcia Gomez) p. 31.

في سجادة المعبد والأخرى في سجاد الأميرال وهولبين ، أو لعل الطريقة القديمة التي استخدمت في سجادة المعبد قد أصابها تغير في سجاد الأميرال وهولبين . لأن سجادة المعبد أقدم من سجاد هاتين المجموعتين فهي ترجع إلى القرن ١٤ م في حين أن أقدم ما وصل إلينا من سجاد المجموعتين الأخيرتين يرجع إلى القرن ١٥ م . فنجد في سجادة المعبد أحد طرفي الخصلة يمر أسفل خيط السدى صاعداً إلى الظهور فوق سطح الرقعة ليمر فوق خيط السدى والطرف الآخر للخصلة الملامس له محتضناً إياها معاً من أسفل ليمر من جديد على سطح الرقعة بجوار الخيط من الجانب الآخر (١) . أما في سجاد الأميرال أو هولبين فتمر الخصلة من فوق الخيط غائصاً طرفها إلى قاع الرقعة مارين متقاطعين خلف الخيط ليظهر طرفها على سطح الرقعة فوق الخصلة . هذا ويحتوي السنتيمتر المربع في أقدم السجاجيد على ٢٠ أو ٢٥ عقدة كما في سجادة المعبد (٢) .

وقد شاع استخدام الصوف في صناعة السجاد كما نجد شعر الماعز أيضاً ولكن بدرجة قليلة جداً . أما الحرير فقد ندر استخدامه وإذا استخدم فيكون ذلك عن طريق النسج أو التطريز لا العقد . وفي السجاد الفاخر كان الحرير يتمزج بالصوف (٣) .

أما الألوان فهي الأزرق والأحمر والأصفر والأبيض وكانت كلها ألوان نباتية وذلك فضلاً عن الألوان الطبيعية للصوف . وفي أقدم السجاجيد بقيت خيوط السداة على لونها الأصلي وكذلك اللحمية ثم لونت بعد ذلك باللون الأصفر والأحمر والاكستنائي وقد يصل عدد خيوط اللحمية إلى ست خيوط

(١) Sarre : 14thC Spanish Synagogue Carpet., p. 89.

(٢) زرة المصدر السابق : وفرانديز المصدر السابق ص ١٩ .

(٣) فرانديز : المصدر السابق ص ٢٠ .

بعد كل صف (١) كما نجد خيطاً واحداً (٢) .

هذا وقد سكتت المصادر العربية كما هو شأنها عن ذكر البيانات أو إيراد المعلومات التي تهمننا في دراساتها وتقرير لنا سبيل التعرف على أنواع السجاد وعناصره الزخرفية وتساعدنا على نسبة التحف التي وصلت إلينا إلى مراكزها التي أنتجتها، غير أن بعض المصادر الأوربية وصفت لنا بعض زخارف السجاد الذي كان يصنع في غرناطة فذكرت أنها كانت من عناصر هندسية مثل الدوائر والمعينات وما شابه ذلك (٣) . واعتماداً على هذا نسب البعض قطعتي السجاد المحفوظتين في متحف غرناطة الأثرى إلى أسبانيا معتمدين بصفة خاصة على الأطباق النجمية التي تزخرف إطار القطعتين . ولقد سبق أن أوضحت في بحث لي نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدير يد (٤) أن هاتين القطعتين مصريتان اعتماداً على الصناعة والزخرفة وقلت أن وجود مثل هذه الأطباق النجمية لا ينهض دليلاً على عدم نسبتها إلى مصر وأضيف أن هذه الأطباق النجمية ظهرت على آثار مصرية فنجدها تزخرف منبراً خشبياً يرجع إلى القرن ١٤ م موجود الآن بمسجد الظاهر ببيرس وكان أصلاً في مسجد فرشوط وهو من صناعة بحار مصري اسمه يعقوب بن بركات الهوى كما نجدها منقوشة على الحجر بإحدى واجهات قبة الجلشني بمقابر العباسية وترجع هذه القبة إلى القرن الخامس عشر الميلادي .

ويحتفظ متحف النسيج بواشنطن بأقدم ما وصل إلينا من سجاد إسباني والقطع المحفوظة مصنوعة من الصوف الذي أتخذت منه خيوط السداة أيضاً

(١) فوانرز : نفس المصدر ص ١٧ .

(٢) فلورنس ماى : المصدر السابق ص ٩٥ ، ش ٦ .

(٣) José Ferrandis : Alfombras Antiguas Espanolas, p. 30.

(٤) جمال محرز : سجادتان بملوكيتان بمتحف غرناطة الأثرى (مجلة الدراسات الإسلامية (المجلد الثاني) :

ويصحب العناصر الزخرفية المكونة من رسوم هندسية وأشكال مضلعة بداخلها عناصر أخرى وكتابات كوفية . وهذا التصميم يذكرنا بتصميم مماثل تشاهده في السجاد الملوكي كما نجده فيما بعد في بعض سجاجيد هولبين الأسبانية . وهذا يدل على استمرار الأثر المصري في صناعة السجاد الأسباني .

وقد نسب الأستاذ كونل هذه القطع الموجودة في واشنطن إلى مدينة جنجالة وأرجعها إلى القرن ١٢ - ١٣ م (١) (شكل ٣) .

أما السجاد غير الإسلامي فأنواع وأشهرها سجاد الأميرال وسجاد هولبين .

وقبل أن نتحدث عن هذين النوعين نذكر شيئاً عن أقدم سجادة إسبانية غير إسلامية وصلت إلينا ألا وهي السجادة المعروفة باسم سجادة المعبد وكانت محفوظة بمتحف برلين ويقال أنها كانت في كنيسة بالتيروول ثم آلت إلى تاجر تحف في ميونيخ ثم اشتراها منه متحف برلين (٢) .

وزخرفة هذه السجادة غريبة لا نجد لها مثيلاً في السجاجيد الأخرى وهي عبارة عن عصا طويلة تنتهي بورقة محورة وتحتل هذه العصا منتصف السجادة بطولها فتقسم ساحتها إلى قسمين ويتفرع من هذه العصى ثلاث عصى قصيرة على الجانبين بزوايا قائمة وتحمل ما يشبه بناء مستطيل الشكل له سقف مسنم (جمالوني) وللبناء باب من ضلعتين وكل ضلعة منهما مقسمة إلى أربعة أقسام بكل قسم زخرفة من خطين متقاطعين كأنهما علامة الضرب ويلاو الباب عقد مدبب والواجهة على جانبي الباب مقسمة إلى مربعات صغيرة بها رسوم طيور

(١) Kühnel : Catalogue of Spanish rugs - 12th C to 19th C. Pls 1,3

(٢) زرة : المصدر السابق ص ٨٩ .

ونجوم وعناصر أخرى ويخرج من جانبي المبنى ستة أفرع تنتهي بشكل خطاف وأسفل البناء شكل مثلث ويرين أحد إطارات السجادة زخرفة من حروف كوفية غير مقروءة^(١). وقد لونت الأرضية بلون أحمر والأطار بلون أزرق.

وقد اختلف علماء الآثار في تفسير هذا الرسم ودلالته فمنهم من رأى أن الرسم يمثل شجرة^(٢) في حين ذهب الأستاذ زرة إلى أن هذا الموضوع يمثل موضوعاً يهودياً هو عبارة عن صندوق من ذلك النوع الذي تحفظ به الألواح^(٣) وأن العصا وأفرعها تمثل الشمعدان الذي نجد شبيهاً له على قطعة زجاج^(٤) ويتفق الأستاذ ديمانند مع الأستاذ زرة في هذا الرأي^(٥). ولما كانت هذه الزخرفة شبيهة بزخرفة استخدمت في الفن اليهودي كفسيفساء معبد بيت ألفا^(٦) والأسفار الخمسة المحفوظة بليمنجراد^(٧) فقد استنتج زرة أن السجادة قد صنعت لمعبد يهودي

ونحب أن نضيف هنا أن بعض الشمعدانات والأواني الخاصة بحفظ رفات القديسين كانت تصنع في العصور الوسطى على هيئة مبانٍ فمنها ما يمثل كنائس وكتدرايات وعناصر أخرى^(٨) وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يكون الرسم الذي يزین سجادة برلين هذه من هذا النوع وإن صح هذا الرأي لا تكون السجادة على هذا الأساس قد صنعت لمعبد يهودي.

-
- (١) Thomson: Hispano. Moresque Carpets, p. 100.
وانظر شكل ٧٢٤ من اطلس العنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية للدكتور زكي محمد حسن.
(٢) تومسون، المصدر السابق ص ٤٦.
(٣) زرة: المصدر السابق ٩٥.
(٤) نفس المصدر السابق شكل ١.
(٥) ديمانند: المصدر السابق ص ٣٢٢ والترجمة العربية للأستاذ أحمد عيسى ص ٣٠٦.
(٦) زرة: المصدر السابق S.
(٧) نفس المصدر السابق H.

(٨) انظر مثلاً Gomez-Moreno: Provincia de Leon (Catalogo Monumental de Espana), Figs. 536, 600.

وترجع هذه السجادة إلى القرن الرابع عشر الميلادي وهي المثل الوحيد المعروف لنا إلى الآن من هذا القرن إذ أن المجموعات الأخرى من سجادة الأدميرال وسجادة هولبين متأخرة عن هذا القرن .

وأول هاتين المجموعتين تلك التي تسمى بالأدميرال نسبة إلى أميرال البحر الأسباني القونسو انريكز المتوفى عام ١٤٢٩ م وفرد أسرته لأن هذه السجادة تحمل رنوكهم . فنجد رنك القونسو ورنك نوربك انريكز المتوفى عام ١٤٧٣ م وزوجته ماريا دي أيبالا المتوفاة عام ١٤٦٨ م وخوان دي روخاس وزوجته ماريا انريكز وقد عاشا في عهد خوان الثاني ملك قشتاله (١٤٠٧ — ١٤٥٤) وماريا دي كاستيلاً زوج القونسو الخامس ملك أراجون المتوفى عام ١٤٥٨ م . ويتراوح عدد الرنوك في السجادة الواحدة بين ثلاث رنوك وتسع (١) .

وأهم النماذج التي وصلت إلينا من هذه المجموعة هي التي كانت محفوظة بدير سانتا كلارا بمدينة بلنسية وقد أهدت دونيا خوانا مندوزا بعضاً منها عليه رنك زوجها إلى هذا الدير على ما ذكر وثيقتها المؤرخة في ٢٢ يناير ١٤٣١ م وبدير سانتا ايزابلا بمدينة طليطلة . ونماذج هذا النوع من السجاد موزعة بين متاحف العالم والمجموعات الخاصة فنجد منها في متحف بلنسية دي دون خوان بمدريد ومتحف بنسلفانيا في فيلاديفيا ومتحف شيكاغو ومجموعة الكونتس دي بهاج ومتحف الدولة ببرلين ومتحف مدريد الأثرى والكونت تيلنسك والسيدة لانورا وفي السوق عند تجار العاديات .

ولا يختلف هذا السجاد عن غيره من سجادة القرن ١٥ م من حيث طبيعة خيوط السداة أو اللحمة وألوانها الطبيعية (٢) . ويسود في تلوين هذا السجاد اللون الأزرق

(١) فلورنس ماى : المصدر السابق ص ٣٢ .

(٢) فراندز : المصدر السابق ص ٣٤ .

والأحمر الداكن والأسود القريب من اللون الكستنائي الداكن مع ميل إلى انقراض اللون (١) .

أما المراكز الفنية التي أنتجت هذا السجاد فهي الكرز ولينور وليانور إلا أن اسم المركز الأول طغى على أسماء المراكز الأخرى وبخاصة في القرن ١٦ م . وصناع هذا السجاد من المدجنين والمؤريسكبين (٢) وهم المدجنون الذين اضطروا إلى اعتناق الدين المسيحي بعد أن زال الإسلام عن الأندلس .

وكما هو الشأن دائماً في زخرفة السجاد نجد ساحة تحيط بها أشرطة، والساحة هنا يزخرفها رسم كأنه الشباك مكون من مثلثات ومعينات ونجوم بحيث يخيّل للناظر إليها أنه يرى خلية نحل . وداخل كل عنصر من هذه العناصر وحدات زخرفية مختلفة من رسوم نباتية وحيوانية وأدمية ورمزية (شكل ٤) .

ويحيط بالساحة أشرطة كثيرة العدد تصل أحياناً إلى تسع وقد تشغل سطحاً من السجادة أكبر من سطح الساحة وتملأ هذه الأشرطة بعناصر زخرفية كالتي نراها في الساحة مع إضافة كتابة كوفية غير مقروءة أو هي رسوم تقلد الخط الكوفي (شكل ٥) ومناظر صيد وبخاصة في الأشرطة التي تستعرض السجادة .

ومن العناصر الزخرفية التي تزين هذه السجاجيد الصليب المعقوف والخطاف وهذه تذكرنا بخارف سجاد القوقاز . كذلك نجد الرسوم التي تمثل المياه غير أنها مهذبة . ويسود بين العناصر النباتية رسم شجرة محورة عن الطبيعة أحياناً لها أفرع أفقية متائلة وأوراق هرمية الشكل ونجد ما يماثل شجرة الحياة فثمة عمود يسمى عمود العالم يقف على جانبيه حيوانان من الغريفون وهذا التصميم هو أصلاً تصميم ساساني أخذه المسلمون واستخدموه في زخارفهم . ونشاهد أيضاً جذع شجرة ذات أفرع مائلة في دورين .

(١) فراندز : كتالوج السجاد الأسباني القديم ص ٣٥ .

(٢) فراندز : نفس المصدر : ص ٣٢ .

أما الطيور فنجد منها الحمام والبط والطاووس وهي أما وحيدة وأما منفردة أو في مجموعات . ومن الملاحظ أن جسم الطيور يشبه المراكب (شكل ٦) ومن الحيوانات نجد الأسود الزاحفة التي تشابه ما هو منها على الرنوك ودبيه وجمال وفيلة وثيران وكلاب . وهي وحيدة أو زوجية وقد يصاحبها بعض الطيور . ونلاحظ أحياناً بعض الكلاب واقفة على ظهور حيوانات أخرى (شكل ٧) .

أما الرسوم الآدمية فهي مضحكة هزيلة ضئيلة وقد يرسم الأشخاص رافعي الأيدي يرتدون ملابس ضيقة الأطراف أو واسعة جداً وهم على ظهور جمال قد يقودها خدم وقد يمتطي بعضهم خيولاً .

وتظهر النساء واقفات أو تطل من نوافذ المنازل أو القلاع . والأشخاص في العادة ذور رؤوس كبيرة على عنق غليظ وذوو جسذع قصير وأيد طويلة وشعورهم قصيرهم مرسله أو معقوفة إلى أعلا .

ولا تختلف زخارف الأشرطة عن زخارف الساحة كما قلنا اللهم إلا في الخطوط الكوفية غير المقروءة التي تحتل دائماً الإطار الخارجى كما يزخرف الضلع القصير للأشرطة مناظر الصيد التي تتخلل الأشجار وهي هنا طبيعية أكثر مما هو مرسوم منها في الساحة فنجد في إحدى السجاجيد صيادين بيض الوجوه أو سود مسلحين بالسيوف والحراب يهاجمون دية بيضاء أو سوداء وجر وعلاوة على ذلك نجد الخنازير والكلاب والطيور .

والملاحظ بصفة عامة أن الزخارف محورة عن الطبيعة بدائيه في رسمها بينها وبين سجاد القوقاز شبه كبير في بعض العناصر الهندسية كالمعينات والخطاف والنجوم . كما يظهر في هذا السجاد تأثير قوطى نلاحظه في بعض الرسوم النباتية (شكل ٨) .

والجموعة الثانية من السجاد الموريسكى هي التي أطلق عليها اسم سجاد

هولبين نسبة إلى المصور الألماني هولبين الصغير (١٤٩٧—١٥٤٢م) لرسمه بعض السجاجيد في لوحاته ، ومن الغريب أن اسم هولبين هو الذي ذاع وانتشر في حين أنه لم يكن أول الرسامين الغربيين الذين أظهروا هذه السجاجيد في لوحاتهم . فقد سبقه أكثر من فنان . فمنهم مثلاً جيرلنداجو Gherlandajo (عام ١٤٨٤م) وفيينزنزو فوبا Vinzenzo Foppa (عام ١٤٨٥ م) وكريفلي Crivelli (عام ١٤٨٦م) . ونذكر في هذا الصدد أن اسم هولبين قد أطلق أيضاً على مجموعة أخرى من السجاد العثماني تراها في رسومه ورسوم غيره من الفنانين الغربيين .

والأسلوب الشائع في زخرفة هذا السجاد هو تقسيم السطح إلى أقسام متفاوتة العدد تزين بالرسوم الهندسية من مربعات مثمانات ومتشابهكات ونجوم إلى غير ذلك من العناصر الهندسية التي نراها .

أما الأشرطة التي تحيط بساحة السجادة فزخرفة بعناصر هندسية أو نباتية أو كتابات والألوان الغالبة في هذا السجاد هي الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض (شكل ٨ - ٩) .

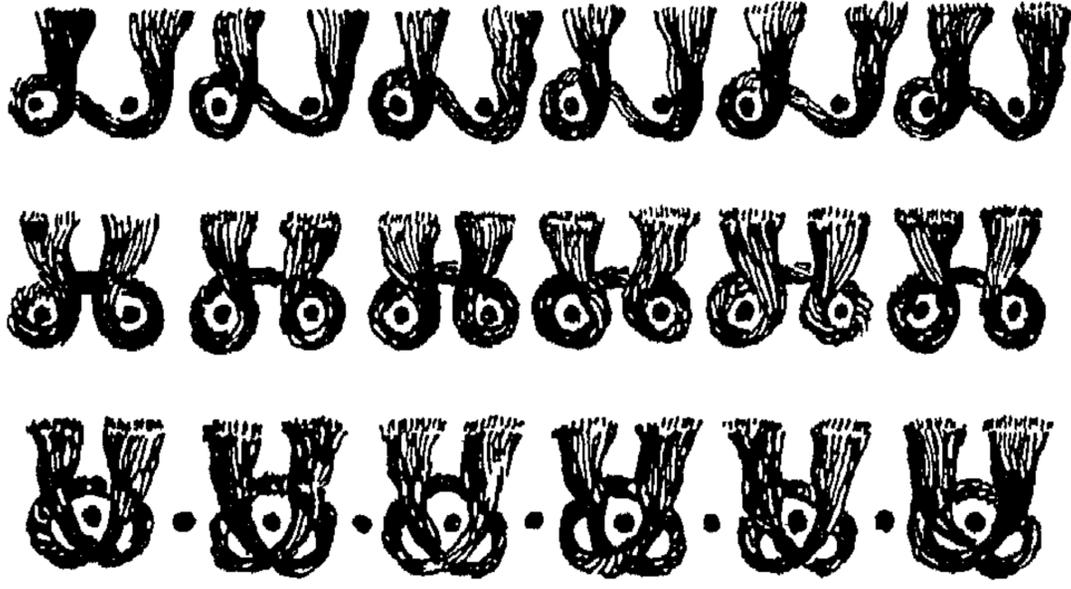
ويمكن تقسيم هذا السجاد من حيث أسلوب زخرفته إلى نوعين رئيسيين الأول هو تقسيم السجادة إلى مربعات كبيرة تزين بالعناصر الهندسية ونوزع هذه للمربعات في أشرطة متفاوتة العدد (شكل ١٠ ، ١١ ، ١٢) والنوع الثاني قريب الشبه من النوع الأول غير أن عدد الأشرطة هنا أكثر والمربعات أقل مساحة فتظهر مساحة السجادة كأنها مزخرفة بعدد من المربعات المزخرفة بالعناصر الهندسية المختلفة (شكل ١٣ ، ١٤) .

وأسلوب زخرفة هذا النوع من السجاد أقرب ما تكون إلى أسلوب زخرفة السجاد الملوكي الذي تملأ مساحته الموضوعات الهندسية (شكل ١٥) .

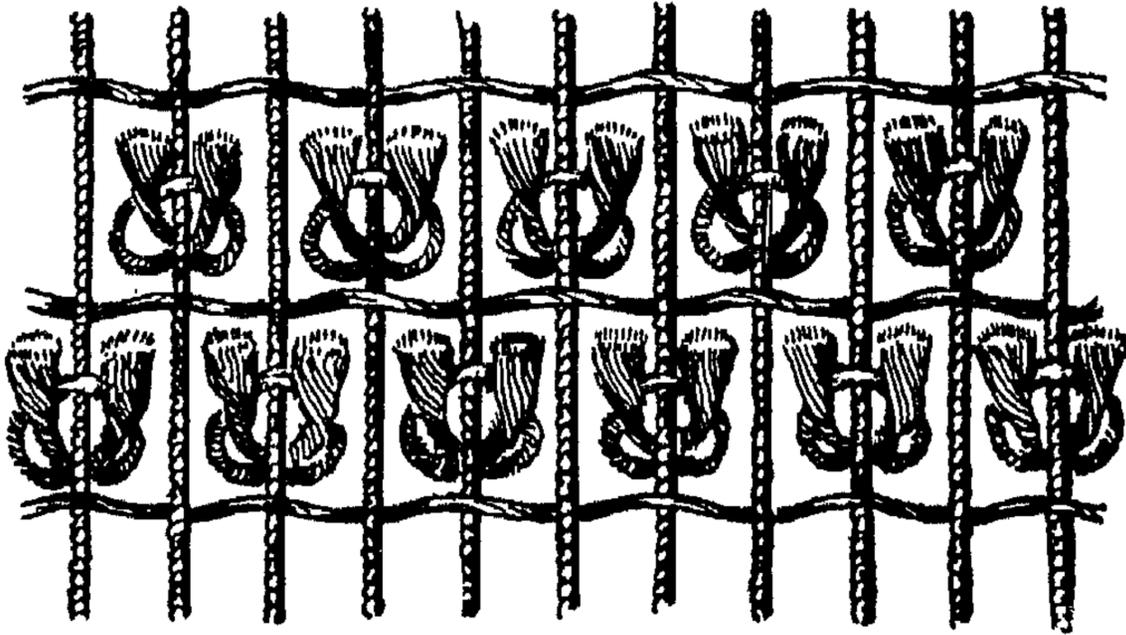
ونلاحظ في هذا النوع من السجاجيد تأثيراً قوطياً يتمثل في الرخارف النباتية ببعض الأشرطة (شكل ١٦) .

وقبل أن نختتم هذا البحث يحسن بنا أن نشير إلى تأثيرات إسلامية أخرى
وقدت من الشرق وتظهر في السجاد الأسباني من القرن ١٧ م ونعني بها استخدام
عناصر زخرفية معينة مأخوذة من السجاد الإيراني والتركي منها ذلك التصميم
الزخرفي المنسوب إلى هراه (شكل ١٧) (١) وثمة سجادة محفوظة بمتحف الآثار
بمدريد لا يشك أحد في نسبتها إلى آسيا الصغرى لولا الرنك الموجود بها.
(شكل ١٨).

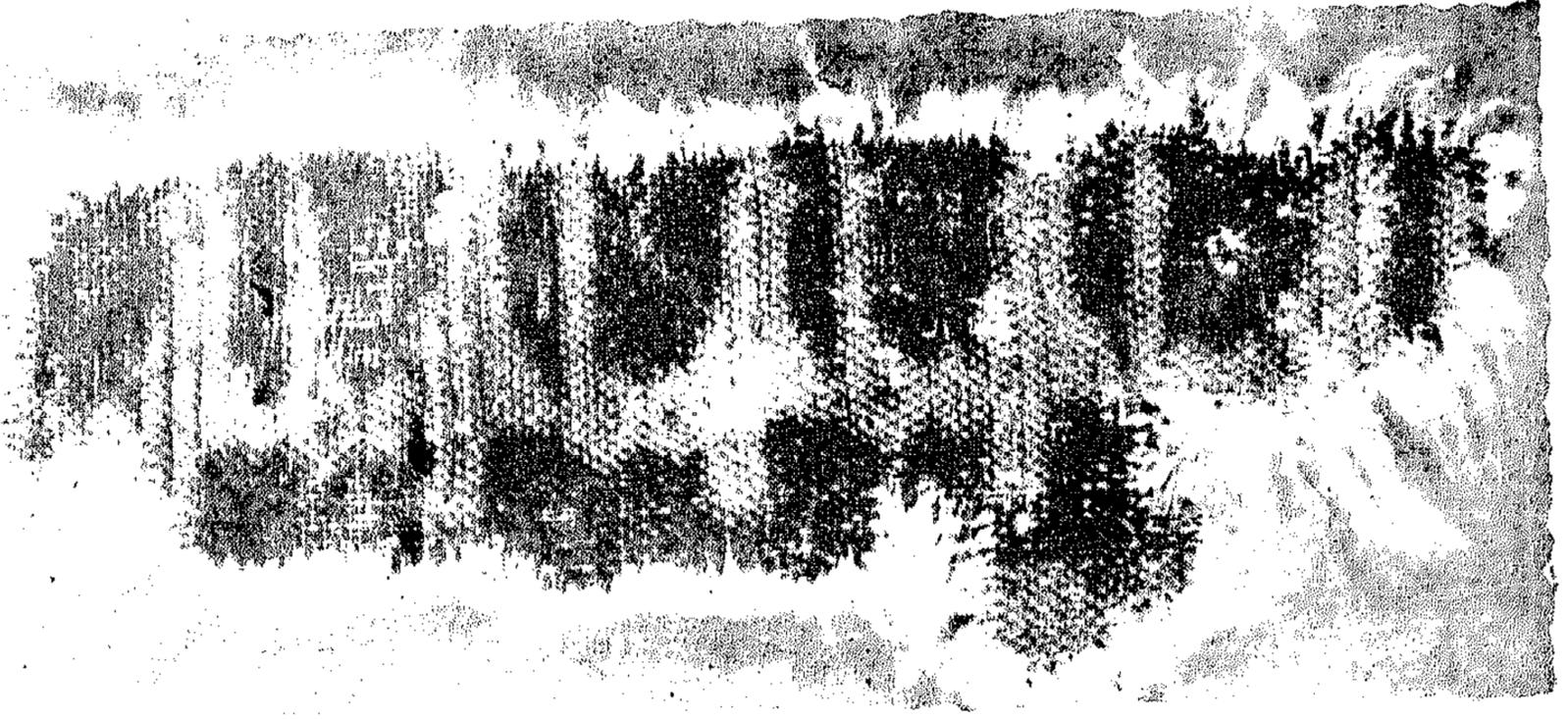
جمال محرز



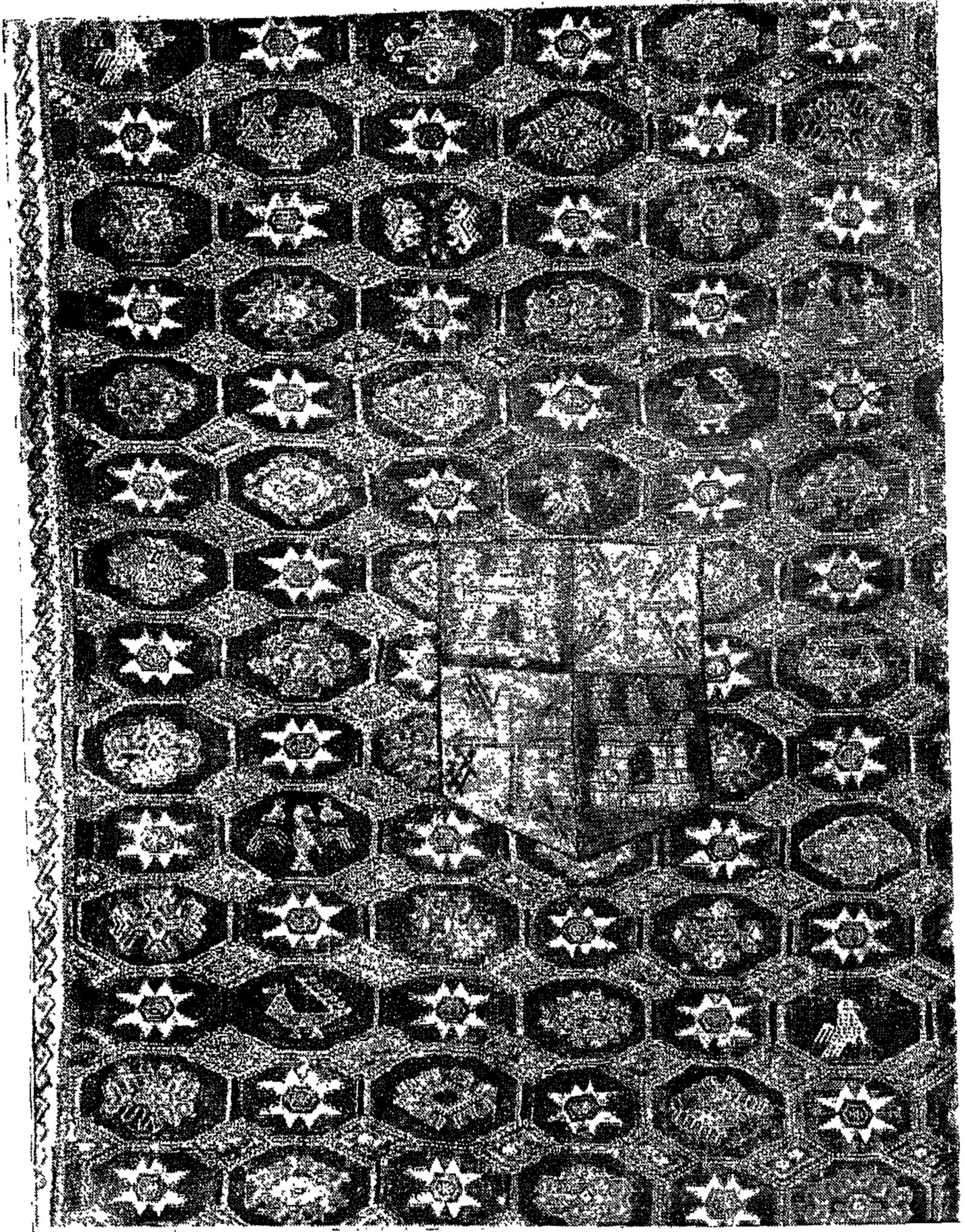
شكل ١ : أنواع العقد في السجاد الإسلامي
 الصف الأعلى : العقدة الفارسية
 الصف الأوسط : العقدة التركية
 الصف الأسفل : العقدة الأسبانية



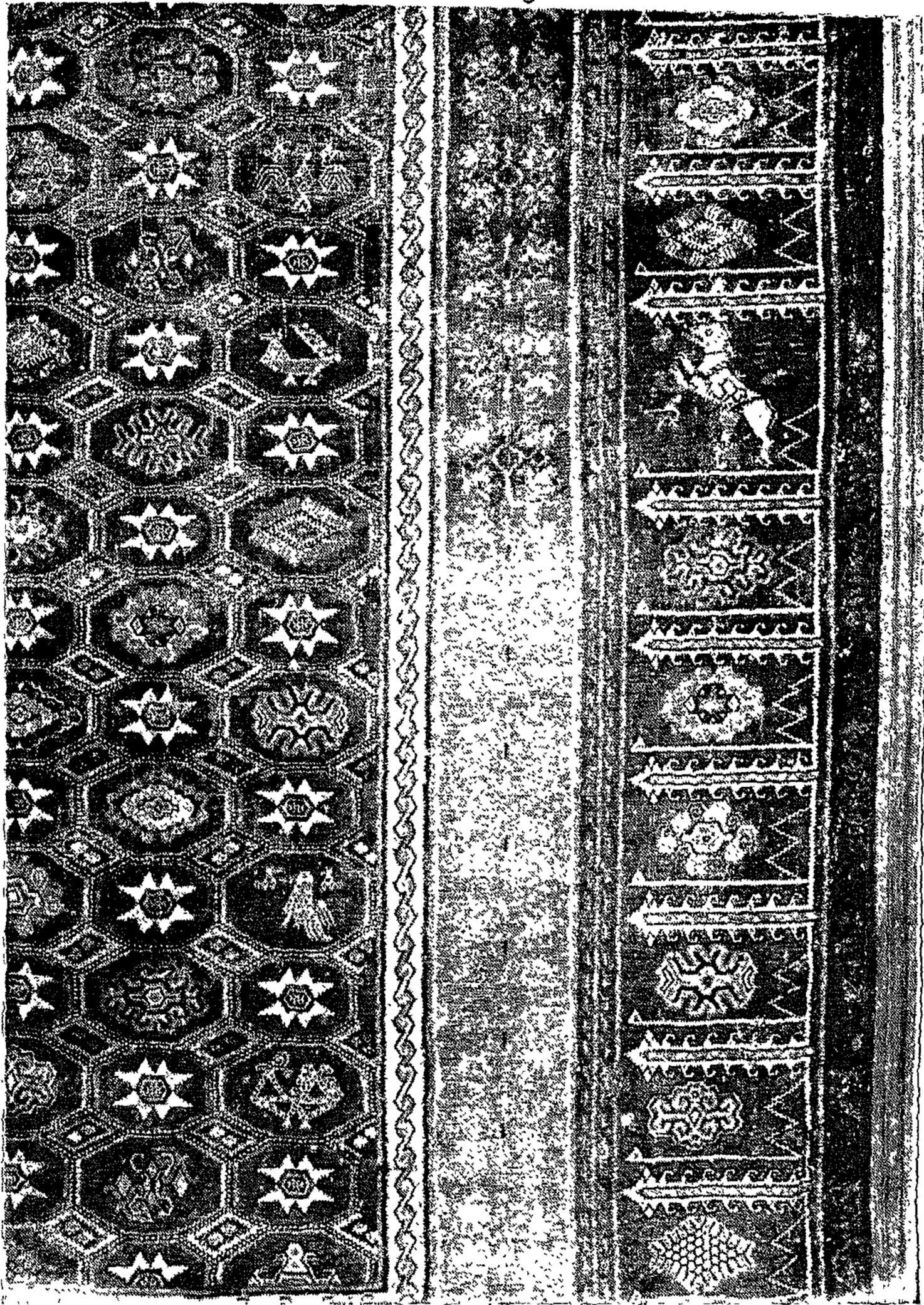
شكل ٢ : العقدة الأسبانية



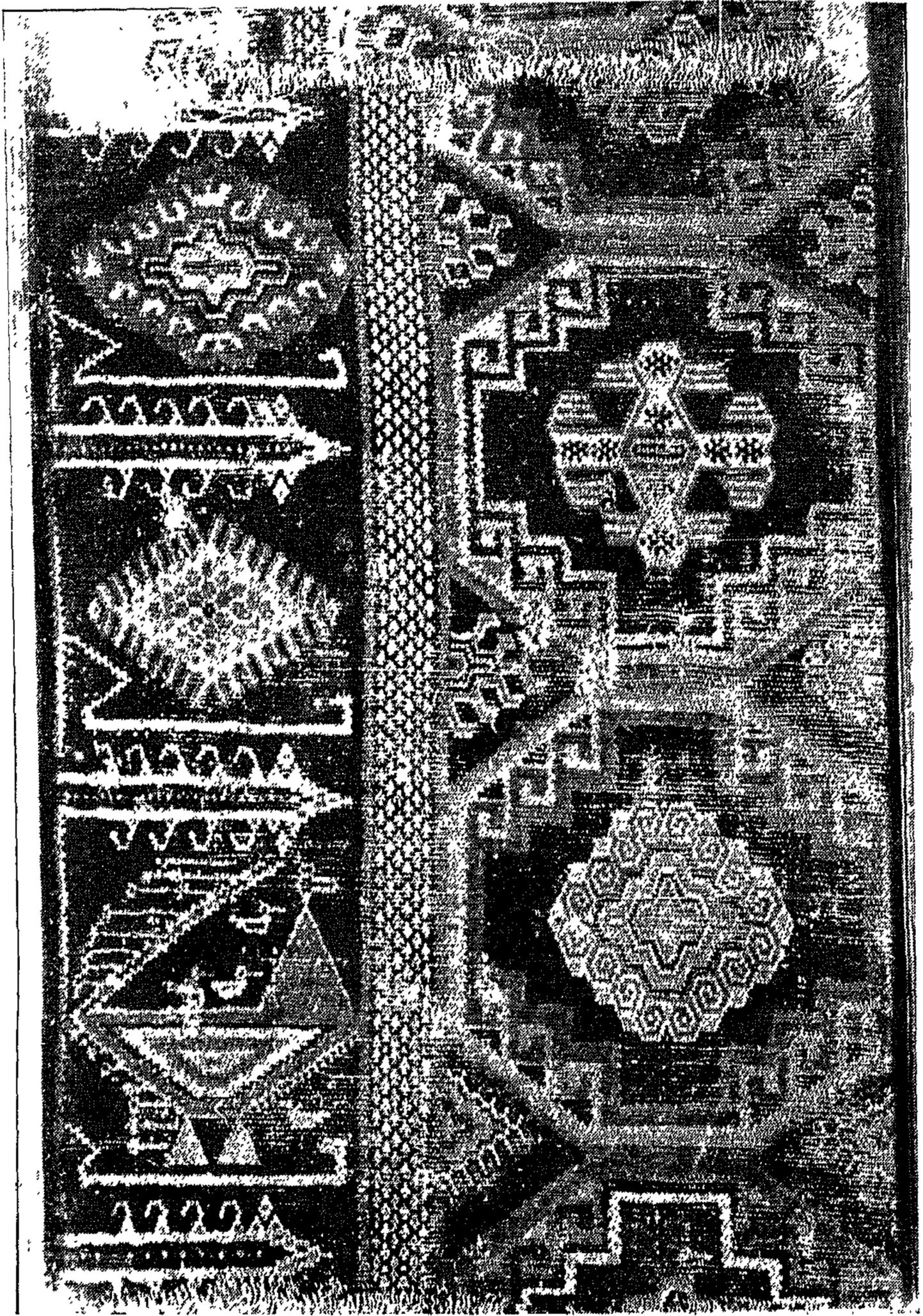
شكل ٣ : جزء من سجادة اندلسية . القرن ١٢ - ١٣ م عليها لفظ اليمن مكرراً



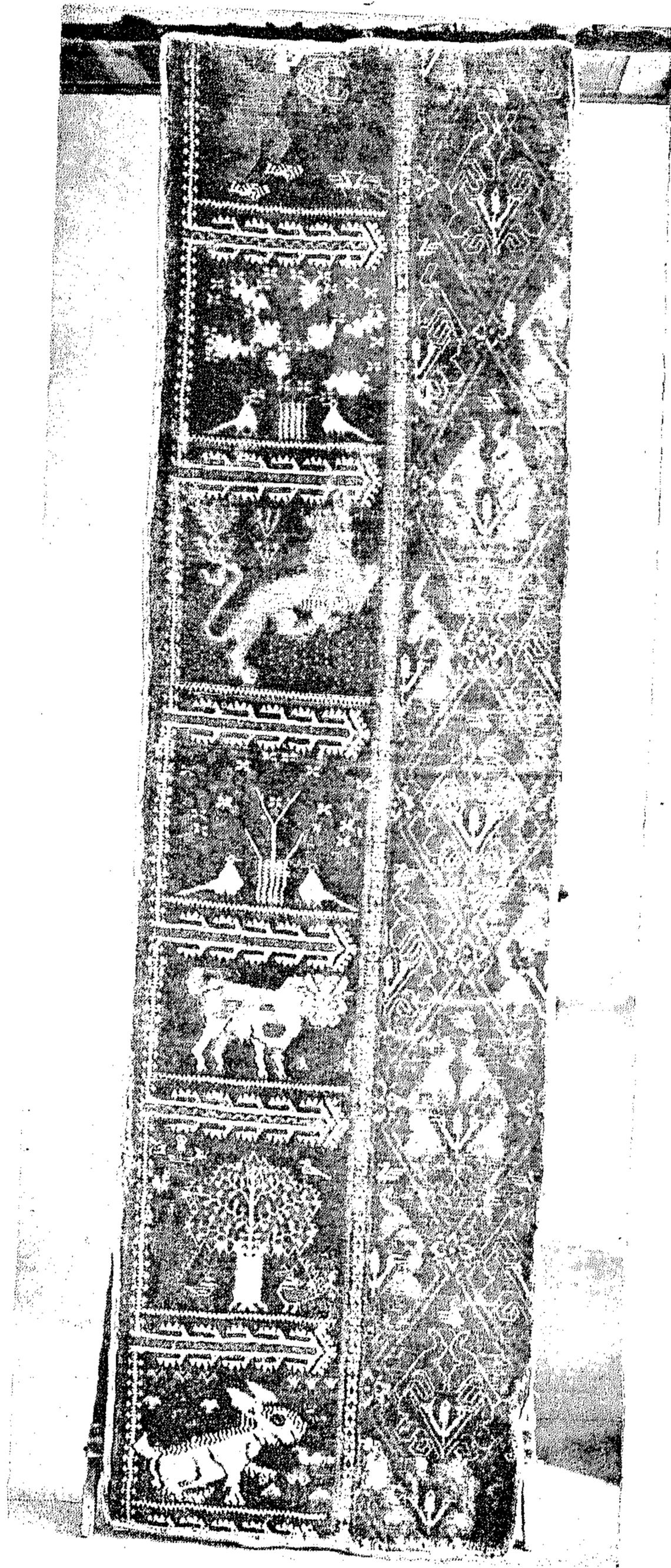
شكل ٤ : جز من سجادة الاميرال . يظهر عليها رنك احد افراد أسرته .
اسبانيا — القرن ١٥ م



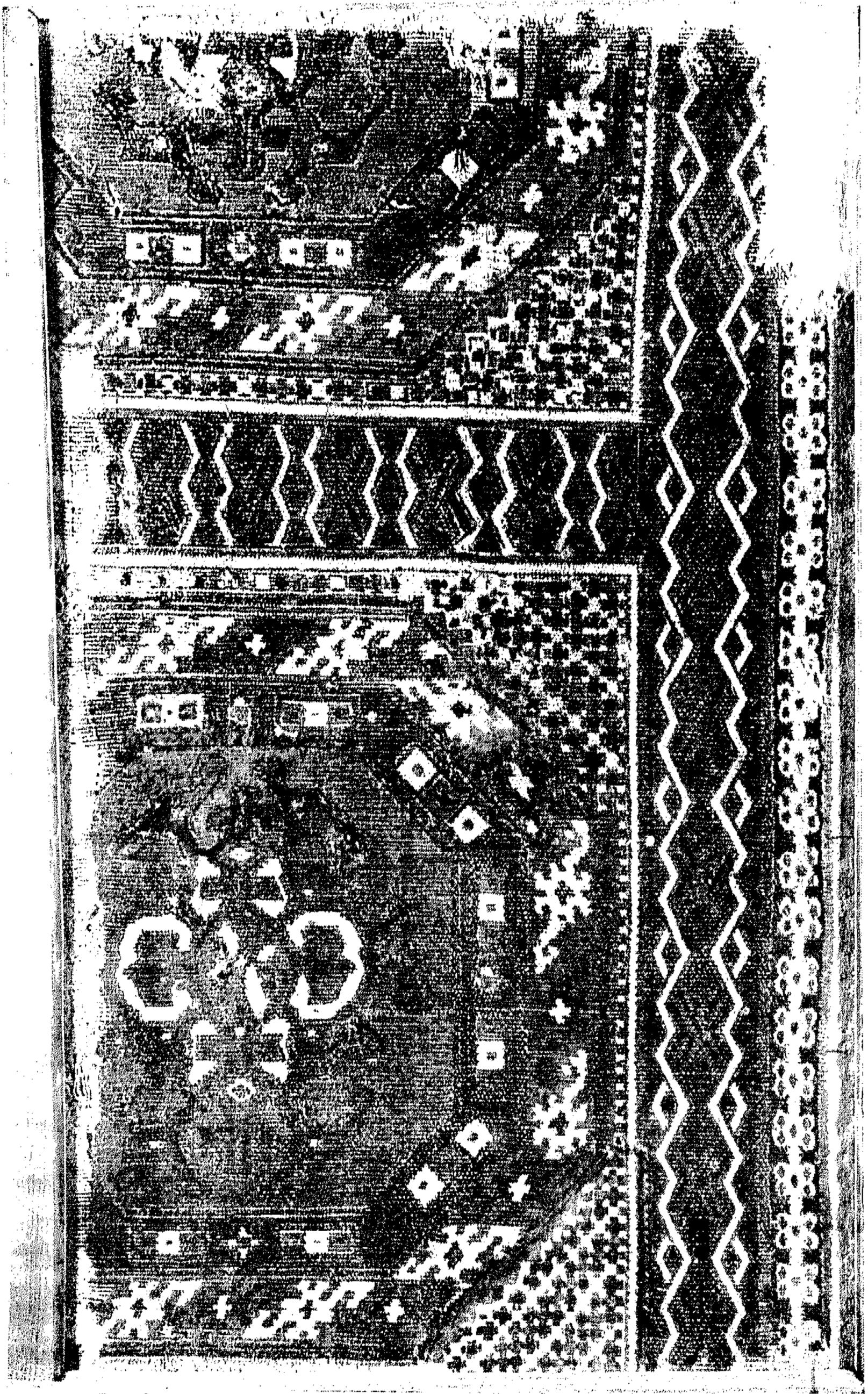
شكل ٥ : جزء من سجادة الأميرال : بالإطار زخرفة تقلد الكتابة الكوفية . أسبانيا
القرن ١٥ م



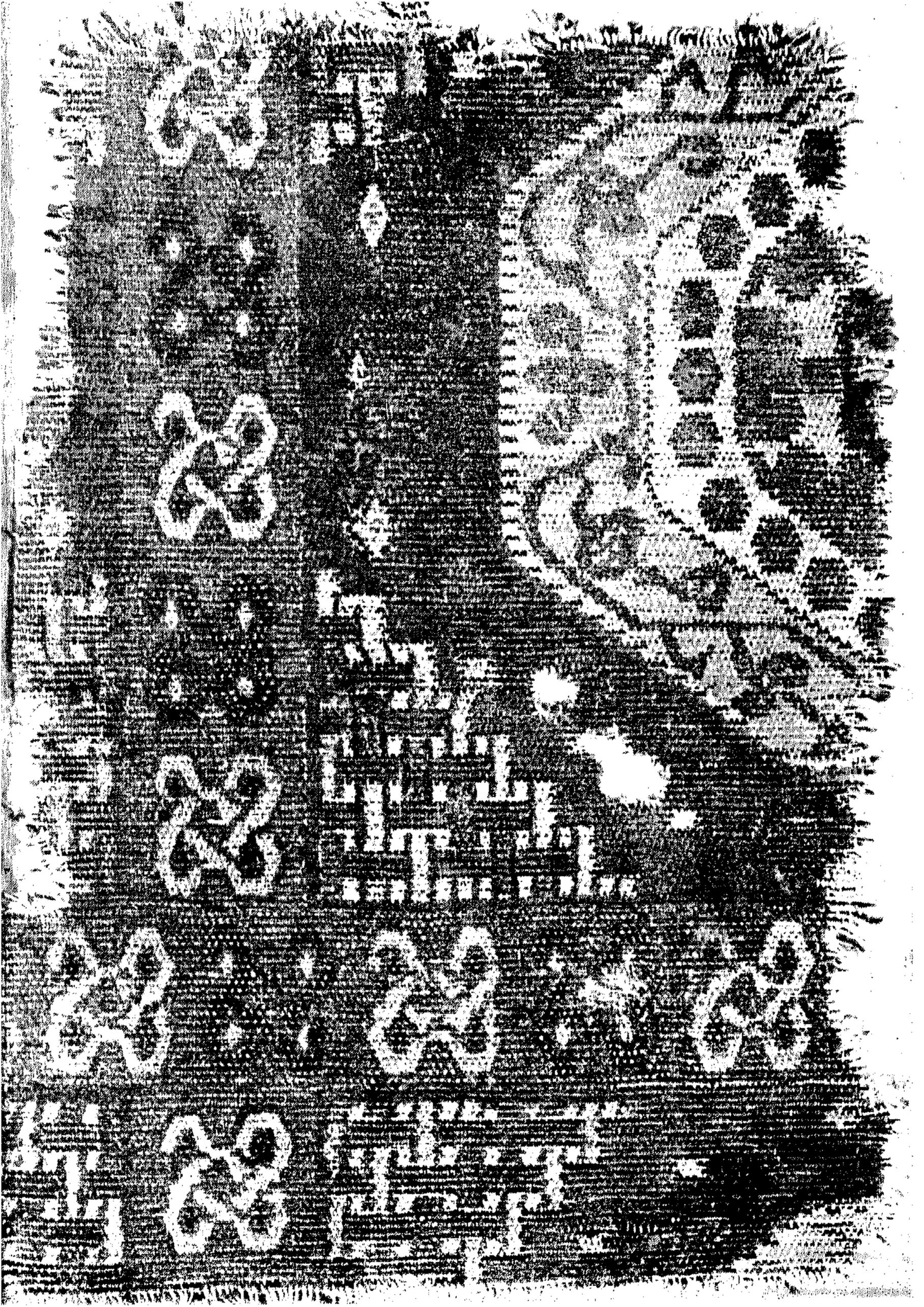
شكل ٦ : جزء من سجادة الأميرال : بالإطار زخرفة تقلد الكتابة الكوفية ، ورسوم للطيور شديدة التحوير . أسبانيا - القرن ١٥ م



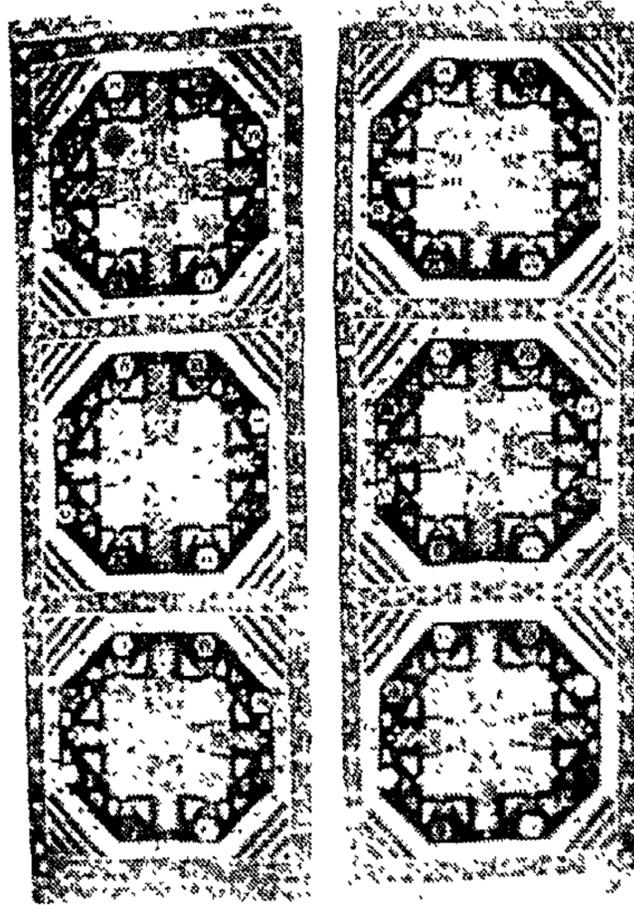
شكل ٧ : إطار إحسدى سجاجيد هولبين . يظهر به التأثير القوطي
ألمانيا - القرن ١٥ م



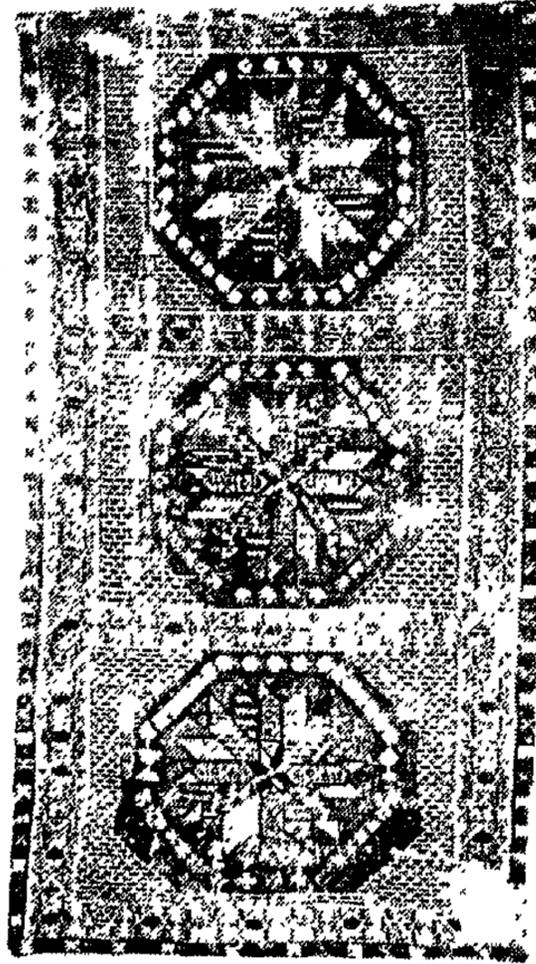
شكلا ۸ : جزء من سجادة من لمين اسبانيا - القرن ۱۵ م



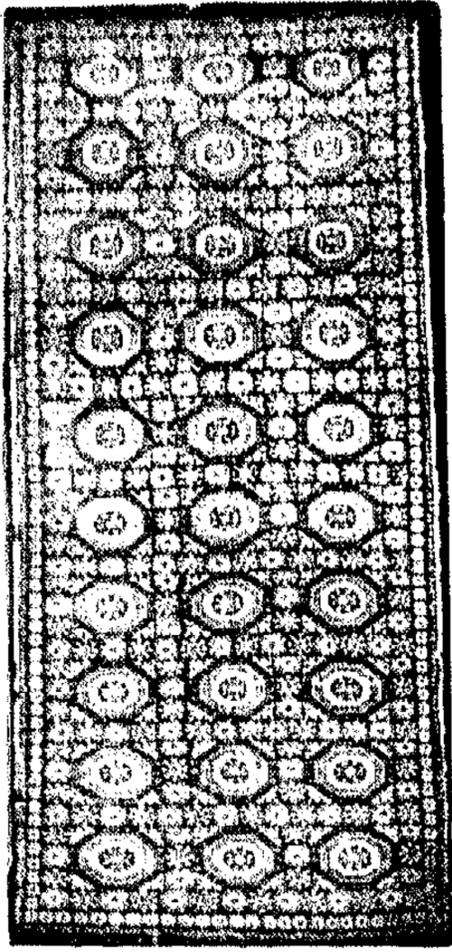
شكل ٩ : جزء من سجادة هولبين . اسبانيا - القرن ١٥ م



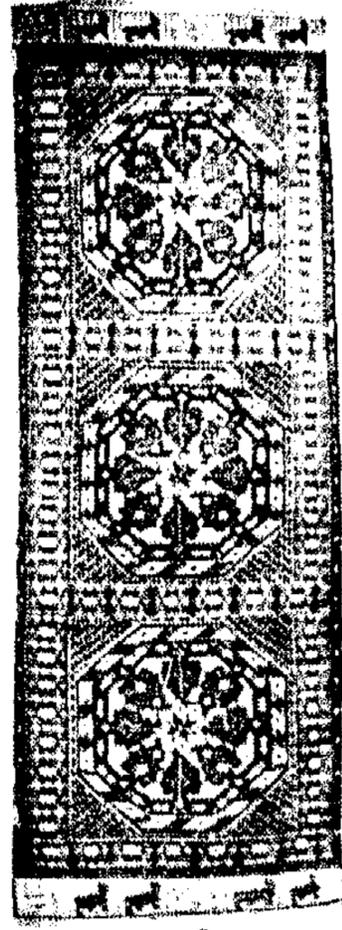
شكل ١٠ : سجادة هوليين
أسبانيا - القرن ١٥ م



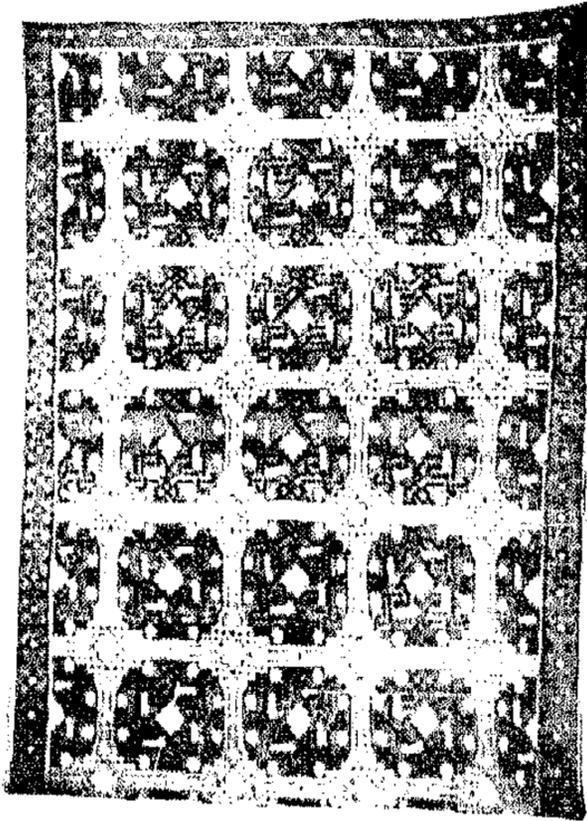
شكل ١١ : جزء من سجادة هوليين
أسبانيا - القرن ١٥ م



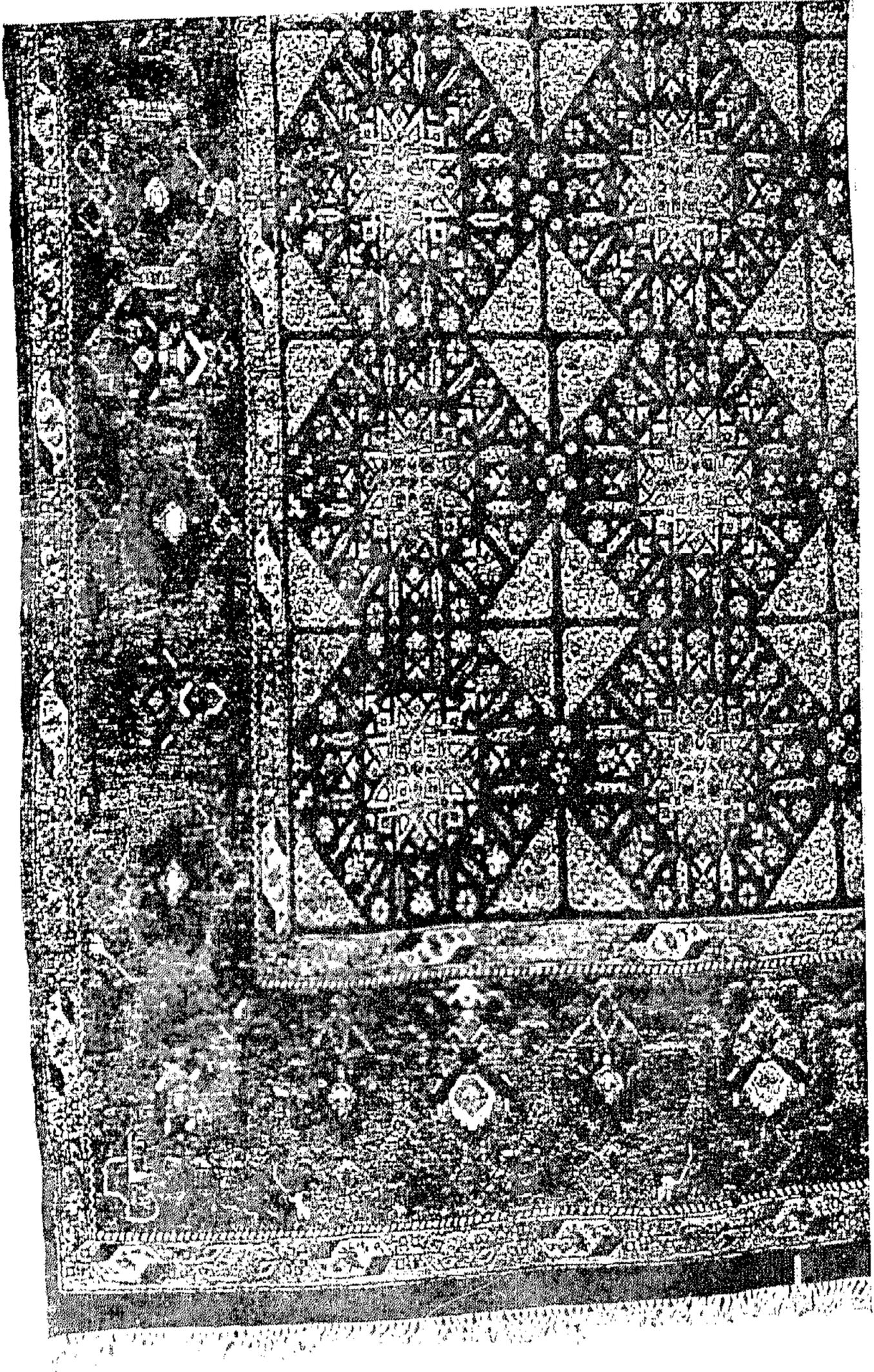
شكل ١٣ : النوع الثاني من سجاجيد هولبين
هولبين أسبانيا - القرن ١٥ م



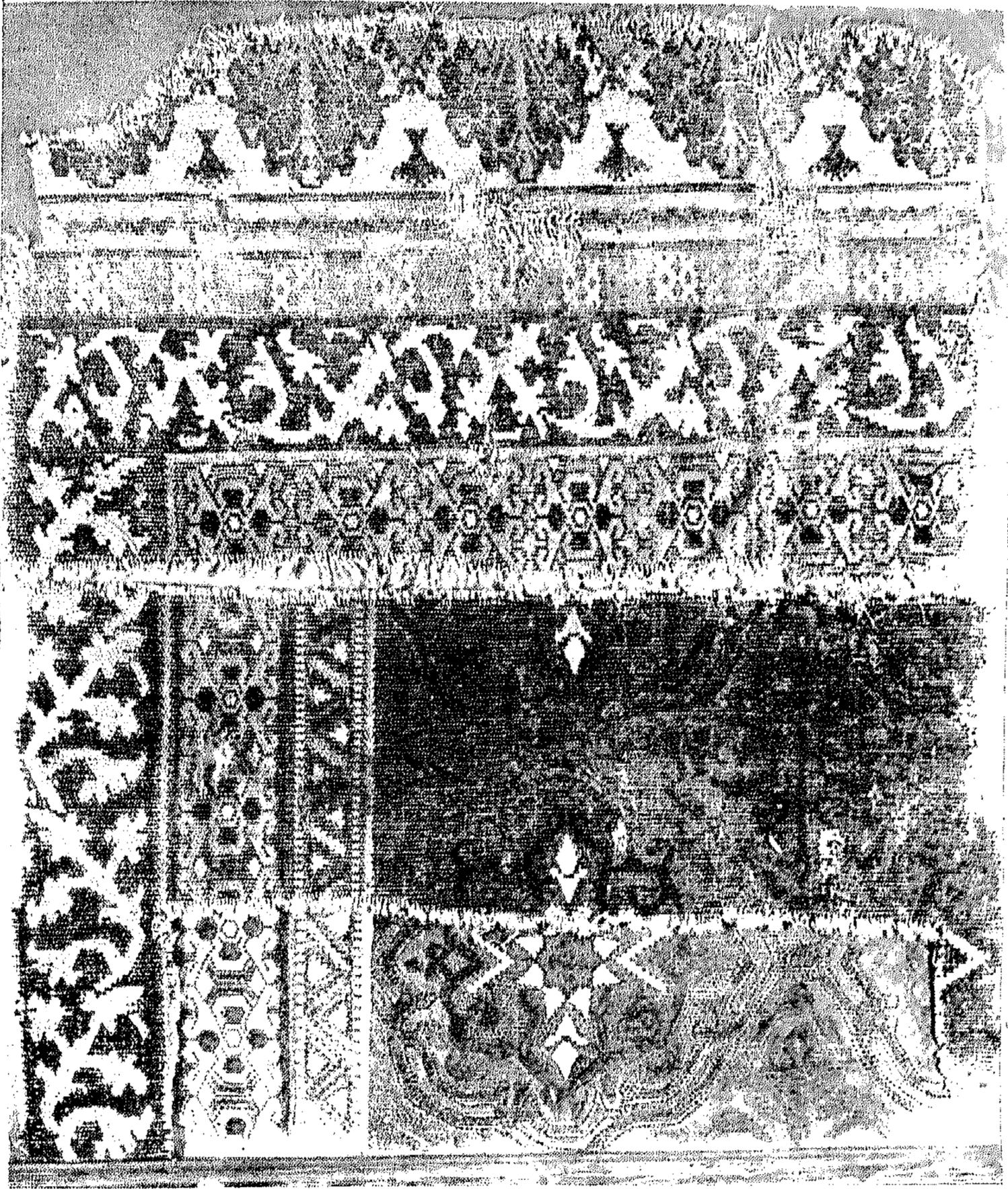
شكل ١٢ : سجادة من سجاجيد هولبين
بها تأثير قوطي في زخارف الإطار.
أسبانيا - القرن ١٥ م



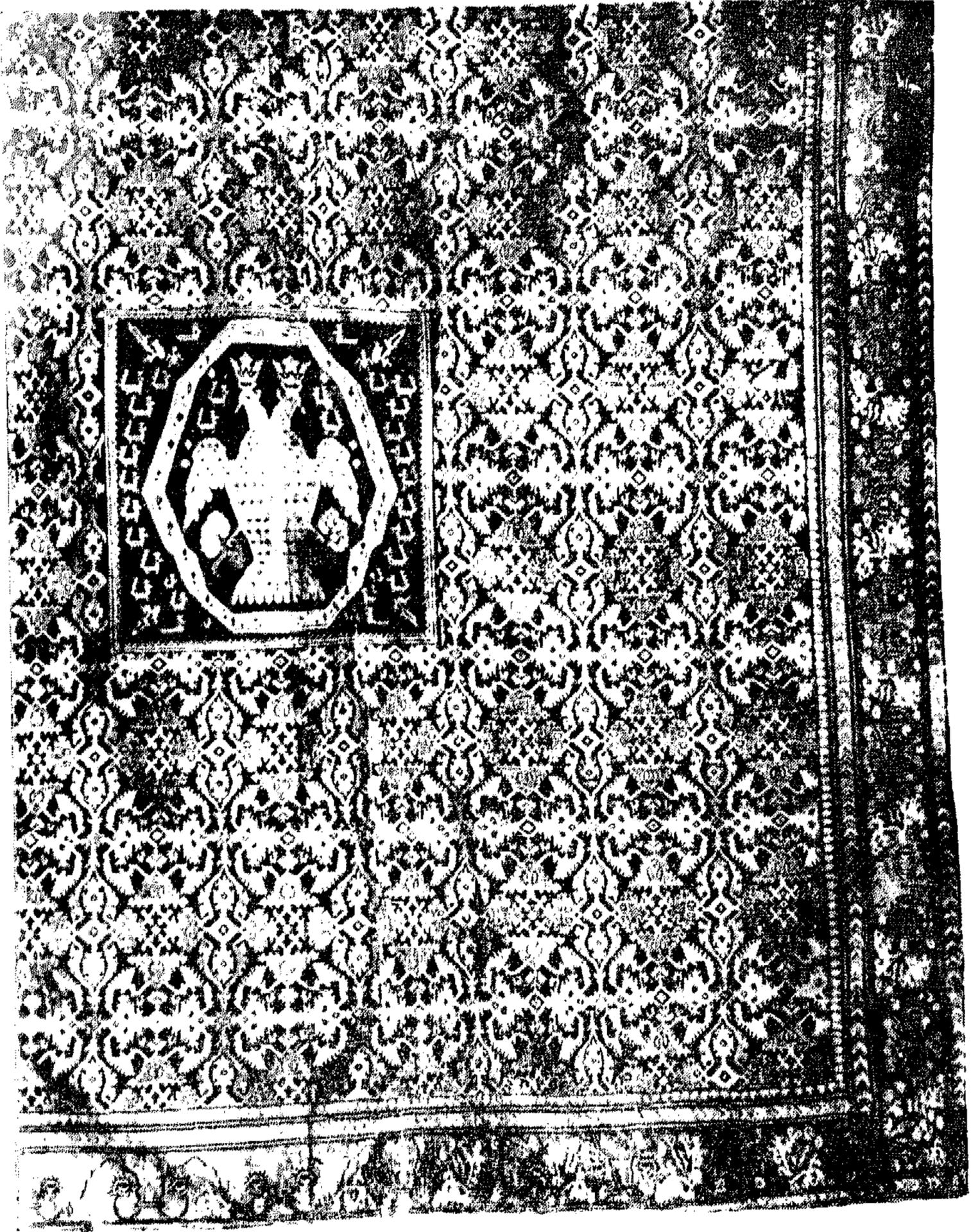
شكل ١٤ : النوع الثاني من سجاجيد هولبين
أسبانيا - القرن ١٥ م



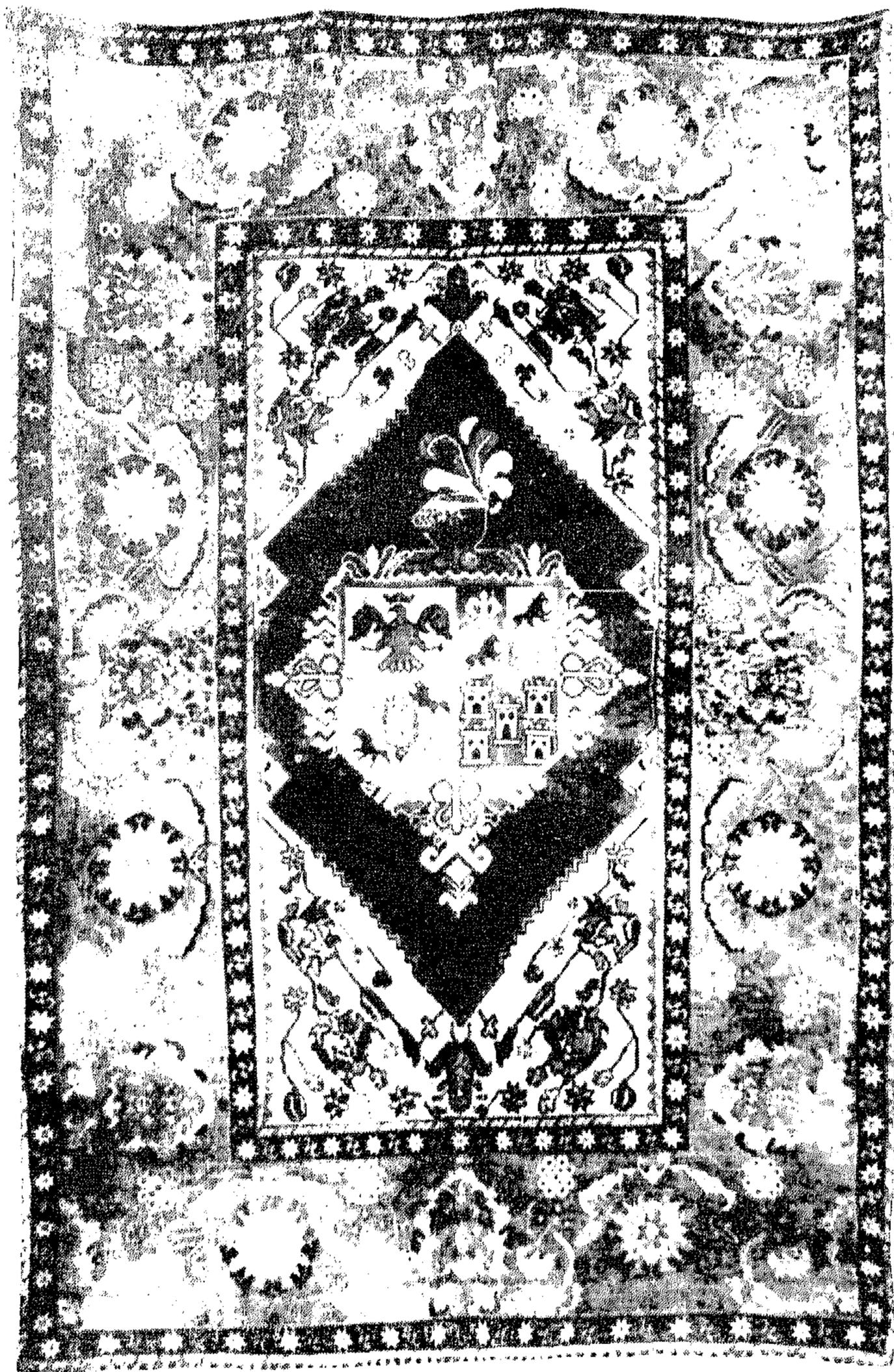
شكل ١٥ : سجادة مملوكية - القرن ١٦ م



شكل ١٦ : سجادة من سجاجيد هولبين . يظهر بها التأثير القوطي في زخارف الإطار
اسبانيا - القرن ١٥ م



شكل ١٧ : سجادة أسبانية من القرن ١٧ م . يتضح بها التأثير الإيراني في الزخرفة



شكل ١٨ : سجادة أسبانية من القرن ١٧ م يظهر بها التأثير التركي في التصميم والزخرفة

الأمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى

ليس أطرف فى دراسة التاريخ من معالجة موضوع يجمع بين الشرق والغرب ؛ وفى الوقت نفسه ليس أخطر فى التاريخ من معالجة مثل هذا الموضوع لأنه يتطلب إلماماً واسعاً بالمراجع الشرقية والغربية سواء ، وقدرأ كبيراً من الحرص عند مقارنة ما يرد فى المراجع الشرقية بما يرد فى المراجع الغربية ؛ وفوق هذا وذاك فإن معالجة هذا النوع من الموضوعات التاريخية يتطلب تقديراً لظروف الشرق وظروف الغرب وعقلية الشرق وعقلية الغرب وطبيعة الشرق وحضارته وطبيعة الغرب وحضارته

وتاريخ الإمبراطور فردريك الثانى مثل بارز لهذا النوع من الموضوعات ، فقد اعتلى عرش الأمبراطورية المقدسة فى النصف الأول من القرن الثالث عشر أى فى عصر مليء بالأحداث بالنسبة للغرب الأوربى وبالنسبة للشرق العربى ثم بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب . ويكفى أن نذكر ذلك العصر بالذات شهد فى غرب أوربا دوراً من أعنف أدوار النزاع بين البابوية والأمبراطورية أو بين السلطين الدينية والعلمانية من أجل سيادة العالم (١) ؛ وشهد فى الشرق العربى التطورات السريعة التى ألمت بمصر والشام عقب وفاة صلاح الدين ؛ كما شهد الاتصال القوى الشديدين الشرق والغرب وهو الاتصال الذى اتخذ طابعاً حربياً عنيفاً فى صورة الحروب الصليبية مثلما اتخذ طابعاً فكرياً سلمياً فى صورة ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب فضلاً عن إقبال الغرب الأوربى على علوم العرب وحضارتهم وامتصاص كل ما أمكن امتصاصه من رحيق الفكر العربى والحضارة العربية عن طريق الترجمة والنقل والمحاكاة .

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٩٨ — ٤٠٩ .

وفي جميع تلك الأوجه المتباينة من النشاط البشري الذي ساد الغرب والشرق جميعاً في القرن الثالث عشر، أسهم الإمبراطور فردريك الثاني بسهم وافر ملحوظ، زاد من وقعه وأثره شخصية ذلك الإمبراطور ونشاطه الفكري وغير الفكري، مما جعل جمهرة الكتب والمؤرخين يجمعون على تلقيبه بلقب واحد مشترك هو Stupor Mundi أعجوبة الدنيا (١)، والحق أن فردريك الثاني كان أعجوبة فعلاً في تصرفاته وسلوكه، أعجوبة في آرائه وأفكاره. وربما كانت مظاهر العجب في ذلك الإمبراطور لا تبدو أشد وضوحاً وجللاء منها في علاقته بالعرب والمسلمين، ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على الظروف التي أحاطت بذلك الإمبراطور في الغرب الأوربي لنستطيع في ضوءها أن نفسر تصرفاته إزاء العرب والحضارة العربية.

ولد فريديريك الثاني من أب ألماني هو هنري السادس وأم إيطالية هي الأميرة كونستانس وريثه صقلية، ونشأ وتربى وتعلم في صقلية، وهي الجزيرة التي كانت في العصور الوسطى بحكم موقعها وتاريخها ملتقى الحضارات العربية الإسلامية والبيزنطية اليونانية والرومانية اللاتينية، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات، يجيد ست لغات منها اللغة العربية، ويتذوق الشعر العربي وغير العربي، هذا كله فضلاً عن مهارته في السياسة والقانون والعلوم الطبيعية (٢). وقد أفاض جمهرة المؤرخين — العرب والأوربيين سواء — في وصف حب فردريك للمسلمين وإعجابهم بحضارتهم وعلومهم وحياتهم وتقريبه لهم، واستخدامهم في حاشيته حتى أن المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون عند موعد كل فرض في معسكره. وذكر المقرئ أن فردريك كان « عالماً متجراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات »، وأنه بعث من صقلية للسلطان الكامل الأيوبي بعدة مسائل مشككة في الهندسة

Bryce: The Holy Roman Empire, pp. 203-204.

(١)

Kantorowicz: Frederiék the Second, pp. 293-295.

(٢)

والحكمة والرياضة ، فعرضها السلطان على الشيخ علم الدين قيصر المنفى — المعروف باسم تعاسيف — وأرسل جوابها إلى الأمبراطور (١) .

ولكن إذا كان فردريك الثانى قد نشأ تلك النشأة الغربية التى ليس لها مثيل فىمن سبقه أو تبعه من أباطرة الدولة الرومانية المقدسة ؛ فإن هناك وجهاً للشبه بينه وبين أسلافه من أباطرة تلك الإمبراطورية فى الغرب ؛ وأعنى بذلك التشابه اشتراك فردريك الثانى فى معركة الصراع بين البابوية والإمبراطورية بل إنه الإمبراطور الذى اختتم قصة النزاع مع البابوية وأسهم فى آخر حلقاتها فى العصور الوسطى . حقيقة إن البابوية ساعدت فردريك الثانى فى الحصول على حقه فى عرش الإمبراطورية وأيدته حتى تم له القضاء على خصمه ومنافسه أوتو الرابع سنة ١٢١٤ وتوجته أمبراطوراً سنة ١٢٢٠ فى روما (٢) . ولكن الأمبراطور الجديد فردريك الثانى سرعان ما نسى كل ذلك ولم يعد يذكر إلا شيئاً واحداً هو أنه خليفة قيصر وأوغسطس وشارلمان وأنه بناءً على ذلك يعتبر الزعيم الأوحيد للعالم بوصفه ممثلاً للسلطة الإمبراطورية العليا ، وأن الكنيسة ورجالها وعلى رأسهم البابا يجب أن يمتدوا له بالسمو والزعامة . وهكذا لم يكتف الأمبراطور فردريك الثانى بتوطيد مركزه فى صقلية وجنوب إيطاليا بل أخذ يعمل على تأكيد سلطانه على المدن البارديّة فى شمال إيطاليا مما هدد بوقوع الأملاك البابوية بين شقي الرعى وجعل البابا ينظر إلى سياسة فردريك الثانى بعين ملؤها الشك والخوف مما سيتمخض عنه المستقبل (١) .

وكان ذلك سنة ١٢١٥ عند تنويجه بمدينة أكس عندما وعد فردريك — لأول مرة — بالقيام على رأس حملة صليبية إلى الشرق ثمناً للمساعدة التى لقيها من البابوية فى الوصول إلى حكم الإمبراطورية وفى سنة ١٢٢٠ جدد

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٢ .

(٢) Barraclough : The Origins of Modern Germany, p. 214 & Tout : The Empire and the Papacy, pp. 364-365.

الأمبراطور وعده الصليبي عند تنويجه أمبراطوراً بمدينة روما ، ولكن السنوات أخذت تمر والأعوام تتوالى دون أن يقوم الإمبراطور بحملته المزعومة ، في وقت كانت البابوية تتوق إلى ارسال حملة صليبية قوية لتحقيق ما أخفقت في تحقيقه الحملات الصليبية السابقة (٢) . على أن مماطلة الأمبراطور فردريك الثانى فى الخروج لمحاربة المسلمين أمر يسترعى الانتباه ولايسعنا تفسيره إلا فى ضوء تخوف الأمبراطور من أن يترك الغرب من ناحية وحرصه على ألا يدخل فى حرب ضد المسلمين من ناحية أخرى . أما عن الجانب الأول فإنه لاينحى علينا أنه كان من المجازفة بالنسبة لفردريك أن يترك أمبراطوريته المقدسة فى ألمانيا وإيطاليا وصقلية فى الوقت الذى اشتدت سطوة كبار أمراء الإقطاع فى ألمانيا وتآلبت المدن المباردية ضد الإمبراطور فى شمال إيطاليا ؛ وتربصت البابوية للأمبراطور وأرادت أن تحمل به السكوارث فى ألمانيا وإيطاليا جميعاً (٣) .

وأما بالنسبة لعدم رغبة فردريك الثانى فى الدخول فى حرب ضد المسلمين فهذا أمر ثابت لا يستبعد على إمبراطور عرف بالتسامح الدينى الشديد فى عصر طفق بروح التعصب الدينى ؛ وعرف بحبه للمسلمين بل للإسلام ، زمن اشتدت كراهية الغرب الأوروبى للعروبة والإسلام . وقد أفاض جهرة المؤرخين العرب والأوربيين فى وصف حرب فردريك الثانى للمسلمين وحضارتهم ، بعدما لمسوه من تصرفاته وأقواله . فالقاضى جمال الدين بن واصل يقول عن فردريك الثانى « وكان مايلاً إلى المسلمين لأن مقامه فى الأصل ومرباه بلاد صقلية . . . وأهل الجزيرة غالبهم المسلمين » (٤) . ثم إن أفعال الإمبراطور نفسه عندما حضر إلى الشام كانت خير دليل على شعوره تجاه الإسلام والمسلمين . من ذلك أن فردريك

Banaclough : op.cit., pp. 222-228. (١)

Cam. Med. Hist. vol., 6, pp. 144-146. (٢)

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ ب (مخطوط) سنة ٦٢٥ هـ .

حرص أثناء وجوده في بيت المقدس على زيارة المسجد الأقصى، وهناك أطلال البقاء حتى يحل موعد الصلاة وبسمع آذان المسلمين، ولكنه لم يسمع شيئاً. ولما استفسر عن السبب في ذلك قيل له أن السلطان الكامل أصدر أوامره إلى المؤذنين في بيت المقدس بعدم إقامة الأذان طيلة وجود الأباطور بالمدينة، وذلك «إعظاما للملك واحتراما له». وعندئذ استاء فردريك والتفت إلى مرافقه شمس الدين قاضي نابلسي وقال له «أخطأت فيما فعلت؛ والله إنه كان أكبر غرضي في البيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم في الليل!» (١).

وهنا يصح أن أضيف سبباً آخر دفع فردريك الثاني إلى التقرب من المسلمين والإسلام، هو كرهه للبابوية والكنيسة الغربية، تلك الكنيسة التي ناصبت آباءه وأسلافه العداوة والتي كرسَتْ جهودها لسحق الإمبراطورية وسلطانها في الغرب. وقد ظهر هذا الشعور أيضاً أثناء وجود فردريك الثاني في الشام، إذ يروي ابن واصل أنه سأل الأمير فخر الدين عن الخلافة الإسلامية وحقيقتها مركز الخليفة عند المسلمين، فأجاب الشيخ فخر الدين بأن الخليفة ينحدر من نسل العباس عم الرسول وأنه بناءً على ذلك يمت إلى الرسول بصلة القرابي، مما يخوله حقاً شرعياً في حكم المسلمين. وعندئذ أجاب فردريك بأن هذا هو المنطق السليم، لا مثل البابا الدجال الذي لا تربطه أية رابطة بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق في حكم المسيحيين. وقد دفع هذا السلوك مؤرخاً مثل العيني إلى القول عن فردريك «الظاهر من كلامه أنه كان دهرياً وإنما كان يتلاعب بالنصرانية» (٢).

وهكذا لا يستبعد أن تكون كراهية فردريك الثاني للبابوية والكنيسة الغربية هي التي دفعته إلى حب الإسلام والمسلمين، وقد قال بهذا الرأي فولتير ومنسكيو (٣).

(١) المقرئزي: السلوك ج ١ ص ٢٣١ سنة ٦٢٦ هـ.

(٢) العيني: عقد الجمان؛ حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

Grousset: Hist. des Croisades, III, p. 280.

(٣)

على أنه إذا كان فردريك الثانى قد أخذ يماطل البابوية طويلا فى تحقيق وعده الصليبي ؛ فإنه لم يستطع أن يستمر حتى النهاية فى تلك المماطلة لا سيما بعد أن استجدت ظروف فى الغرب والشرق شجعت الإمبراطور إلى اتخاذ تلك الخطوة على كره منه . أما فى الغرب فقد سعى البابا هنريوس الثالث إلى إتمام زواج فردريك الثانى من الأميرة يولاندا ابنة حنا برين وهى وريثة مملكة بيت المقدس . وكان أن تزوج فردريك فعلا من تلك الأميرة سنة ٢٢٥ وبذلك ظهر دافع جديد يجعل الإمبراطور يفكر فى الذهاب إلى الشام ليتزوج مع زوجته بتاج مملكة بيت المقدس . ويقال إن الإمبراطور أعلن للمرة الثالثة عند زواجه عزمه على القيام بمشروعه الصليبي ، بل حدد سنة ١٢٢٧ لتنفيذ ذلك المشروع (١) .

وثمة سبب قوى شجع الإمبراطور فردريك الثانى على الخروج إلى الشرق هو أن الكامل الأيوبي صاحب مصر أرسل يستعين به ضد الأخطار التى واجهته من ناحية أخيه المعظم ثم من ناحية الخوارزمية الذين هددوا الجبهة الشرقية للدولة الأيوبية . ذلك أن الاتحاد الذى قام بين أبناء العادل الأيوبي الثلاثة — وهم الكامل صاحب مصر والمعظم صاحب دمشق والأشرف صاحب الجزيرة وخلاط — هذا الاتحاد لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣ بعد أن تم التغلب على الحملة الصليبية الخامسة وطرد الصليبيين من مصر (٢) . ولم يلبث جشع المعظم عيسى صاحب دمشق أن أدى إلى إثارة العداء بينه من جهة وبين أخوية الكامل والأشرف من جهة أخرى ، فى الوقت الذى تحرك الخوارزمية على أطراف الجزيرة ، مما جعل الأشرف يتناسى الخلاف مع أخيه المعظم ويهرع إليه فى دمشق طالبا للعمل بسرعة على توحيد جبهة البيت الأيوبي ضد ذلك الخطر الجديد . ولكل المعظم استغل الفرصة التى أتت له لقبض على أخيه

Kantorowicz ; op.cit., p. 139.

(١)

(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٢٣ .

الأشرف في دمشق ، ولم يطلق سراجه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته في مهاجمة أخيهما الثالث وهو الكامل في مصر . وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم حتى فر إلى أخيه الكامل وأكد تحالفه معه ضد المعظم ، وبذلك وضع الأخوان خطة للتخلص من أخيهما المعظم (١) .

على أن وجه الخطورة في النزاع الذي نشب عندئذ بين أبناء العادل هو أن الفريقين المتنازعين استعانوا بقوى خارجية فاستنجد الملك المعظم بالخوارزمية في حين استنجد الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني . وقد أسرع جلال الدين منكبرتي سلطان الخوارزمية بتلبية نداء المعظم فأرسل إليه « خلعها لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل » (٢) . أما الكامل في مصر فقد أرسل إلى الإمبراطور فردريك الثاني في صقلية مبعوثاً خاصاً هو الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه ليطلب من الإمبراطور « أن يحضر إلى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل » (٣) . وقد أحسن الإمبراطور فردريك الثاني استقبال الأمير فخر الدين مبعوث الملك الكامل ؛ ومن ذلك الوقت نشأت صلة صداقة وطيدة بين فردريك الثاني من ناحية والأمير فخر الدين من ناحية أخرى ، إذ يبدو أن كلاهما أعجب بشخصية الآخر وأخلص له . ثم إن فردريك لم يكتف بأن وعد مبعوث الكامل بالحضور ومساعدته ، بل رد عليه برسالة سفارة ممثلة إلى مصر معها « هدية سنوية وتحف غريبة » فتلقى الكامل رسول الإمبراطور وهديته بالسرور البالغ « وإكرامه إكراماً زائداً » كما اهتم الكامل بإعداد هدية فاخرة للإمبراطور « فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم » (٤) . وجدير بالذكر أن هذه السفارة الإمبراطورية

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) العيني : عقد الجمان سنة ٦٢٤ هـ & المقرئى : : السلوك ج ١ ص ٢٢١-٢٢٢ .

(٣) (2) Wielt : L'Egypte Arabe, pp. 350-351.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢٢ .

اختارت أن تمر في طريق عودتها إلى الغرب بمدينة دمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للإمبراطور؛ ولكن المعظم أساء مقابلة مبعوث الإمبراطور « وأغاظ له وقال : قل لصاحبك (فردريك) ما أنا مثل الغير (الكامل) وماله عندي سوى السيف » (١) .

هذا هو الموقف في الشرق العربي في الوقت الذي أخذت البابوية تضغط على فردريك الثاني للقيام بحملته الصليبية ، على ينجح في إصلاح الموقف الناجم عن فشل حملة حنا برين على مصر وهي الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ — ١٢٢١) . وإذا كان البابا هنريوس الثالث قد توفي سنة ١٢٢٧ فإن خليفته جريجوري التاسع امتاز بإرادة حديدية رغم تقدم سنه ، فأبى قبول الأعذار التي طالما انتحلها فردريك الثاني لتأجيل حملته الصليبية وأصر على ضرورة رحيل الإمبراطور فوراً إلى الشرق (٢) . وكان أن أبحر الإمبراطور فعلا من برنديزي قاصداً بلاد الشام ، ولكنه عاد بعد أيام مدعياً المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضاً ، فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور في أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن توقيع قرار الحرمان على الإمبراطور لم يكن سببه مماثلة فردريك الثاني في الوفاء بعهده الصليبي فحسب ، بل أيضاً تخوف البابوية من سياسة ذلك الإمبراطور في إيطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص (٣) . ومهما كان الأمر فإن هذا الإجراء فتح باب النزاع على مصراعيه من جديد بين البابوية والإمبراطورية . ويبدو أن البابا جريجوري التاسع كان عنيفاً في هجومه على الإمبراطور ، الأمر الذي اضطر فردريك الثاني إلى الخروج قاصداً الشرق في صيف سنة ١٢٢٨ على رأس قوة صغيرة من رجاله ، بعد أن انفض عنه كثيرون نتيجة لقرار الحرمان الصادر ضده (٤) .

(١) العيني : عقد الجمان سنة ٦٢٤ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 6, p. 164.

Creighton : A Hist. of the Papacy, p. 26.

Archer : The Crusades, p. 381 & Setton : A Hist. of the Crusades,

vol. 2, p. 451.

(٢)

(٣)

(٤)

وهكذا شاءت الظروف أن تكون الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٢٨ هي أغرب الحملات وأشدّها طرافة في تاريخ الحركة الصليبية فإذا كانت الحملات الصليبية السابقة واللاحقة قد تزعمها ملوك وأمراء ينعمون بدعاء البابوية وعطف الكنيسة حتى استمد أولئك الزعماء الصليبيون نفوذهم من ذلك العطف والرضاء ، فإن الحملة الصليبية السادسة خرجت إلى الشرق وعلى رأسها إمبراطور ملعون من البابوية مطرود من رحمة الكنيسة منبوذ من المجتمع المسيحي . وإذا كان زعماء الحملات الصليبية قد حرصوا عند خروجهم من الغرب على حشد الجيوش وجمع الجموع الغفيرة استعداداً لمنازلة المسلمين في الشرق ، فإن الإمبراطور فردريك الثاني لم يصطحب معه عند مغادرته الغرب سوى خمسمائة أو ستمائة فارس وهي قوة لا تكفي للصمود في معركة محلية صغيرة ضد المسلمين في الشام . وإذا كانت الحملات الصليبية قد أتت إلى الشرق وهي تفيض بروح الكراهية والتعصب ضد المسلمين والرغبة في الثأر والانتقام منهم ، فإن حملة فردريك الثاني امتازت بمسحة فريدة من التسامح الديني ، بل شعور الود والمجاملة تجاه المسلمين .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريك الثاني أتى إلى الشام ليفاوض لا ليحارب ، معتمداً على وعود السلطان الكامل له وهي الوعود التي نصت على تسليم بيت المقدس للإمبراطور مقابل قيام الأخير « بشغل سر أخيه المعظم (١) » . وهنا نلاحظ أن فردريك الثاني لم يعتمد على وعود الكامل وحده ، وإنما يبدو أنه قام قبل مغادرة الغرب باتصالات واسعة مع غير الكامل من أمراء البيت الأيوبي بالشام بغية إعداد الجول للحصول على بيت المقدس دون عناء . وخير شاهد على ذلك تلك الرسالة التي أوردها القلقشندي وهي عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد أحد أمراء بني أيوب بالشام إلى الإمبراطور فردريك الثاني ردّاً

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

على رسالة كان فردريك قد بعث بها إلى ذلك الملك الأيوبي . وتهمنا الفقرة الأخيرة من رسالة الملك الجواد الأيوبي والتي يقول فيها « وأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الكاملى الناصرى ... من أنه لا فرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده وخالص وده (١) » ... ومن هذا نخرج بنتيجتين هامتين أولهما أن مراسلات فردريك الثانى قبل قيامه بحملته الصليبية لم تقتصر على الكامل وحده وإنما امتدت إلى غيره من ملوك بنى أيوب والنتيجة الثانية هى أن تلك المراسلات حفلت بروح الود والأخاء هى أن الكامل أرسل إلى فردريك يخبره بأنه لا فرق بين المملكتين .

على أن فردريك الثانى لم يكد يصل إلى عكا فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ حتى وجد الموقف فى بلاد الشام غير ما كان ينتظر . ذلك أن البابا — للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ البابوية والحروب الصليبية — أخذ يرسل الرسل إلى ملوك بنى أيوب بوجه عام والسلطان الكامل بوجه خاص محرضاً إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور . ولا عجب فى هذا الموقف الغريب الذى اتخذته البابوية ، إذ كانت المعركة بينها وبين الإمبراطورية أهم فى نظرها من المعركة القائمة بين المسلمين والصليبيين فى الشام . وكان البابا جريجورى التاسع يعلم جيداً أنه إذا قدر لفردريك الانتصار فى مهمته واسترداد بيت المقدس من المسلمين فإن ذلك سيكون فى نظر المعاصرين بمثابة حكم الله للإمبراطور المحروم ، وفى هذا فصل الخطاب بين فردريك وجريجورى أو بين البابوية والإمبراطورية .

ثم إنه إذا كان فردريك الثانى قد أتى إلى الشام بعد أن وضع كل أمله فى وعود السلطان الكامل بتسليم بيت المقدس ، فإن هذا الأمل انهار فجأة لتغير سياسة الكامل . ذلك أن للعظم صاحب دمشق الذى كانت أطباعه

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١١٧ - ١١٨ .

هي السبب في استنجد الكامل بفرديريك ، كان قد توفي في أواخر سنة ١٢٢٧ تاركاً ابنه الناصر داود وهو شاب صغير في العشرين من عمره عديم الخبرة محباً للهو؛ مما مكن الكامل والأشرف من اقتسام أملاك أخيهما المعظم وإعطاء الناصر داود الكرك والشوبك وغيرها من الجهات الثانوية (١) . وما دام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبي على ذلك فإن السلطان الكامل لم يعد في حاجة إلى فرديريك ومعونته . ويصور لنا المؤرخون العرب حيرة السلطان الكامل في ذلك الموقف لأن فرديريك الثاني لم يحضر إلى الشام إلا بناءً على طلب السلطان ؛ وفي ذلك يقول ابن واصل والمقرئزي « تحير الملك الكامل ، ولم يمكنه دفعه ولا محاربتة لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه (٢) . ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبي أنه يصطدم بالصلبيين بالشام في تلك المرحلة التي تعرضت بلاد العراق والشام ومصر لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول؛ وهذا هو السر في ملاطفته للامبراطور فرديريك . وفي الوقت نفسه أحس الكامل أن أي تساهل مع الصليبيين أو تفريط في حقوق المسلمين سيثير ضده الرأي العام في البلدان الإسلامية ، وبخاصة دمشق التي كانت أكثر إحساساً بخطر الصليبيين من غيرها (٣) .

وهكذا ساء موقف فرديريك الثاني في الشرق ، وتذكر أنه خرج من بلاده محروماً من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية ، وأنه اعتمد على وعد الكامل له بإعطائه بيت المقدس في إصلاح مركزه في الغرب الأوربي . ولو كان فرديريك يعلم أن الكامل سينكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلاً ، أو لأستعد استعداداً جدياً لحرب المسلمين وجلب معه جيشاً كبيراً عند خروجه إلى الشرق .

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٢٢٦ & ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٦٢٥ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٥٢ & المقرئزي : السلوك ج ص ٢٢٩ .

Grousset, III, p. 300.

(٣)

ولكن بعد أن جرت الأمور على ذلك الوضع ماذا يفعل فردريك بالخمسائة فارس الذين أحضرهم معه؟ إنه لا يستطيع الاعتماد تماماً على تعاون الصليبيين معه في بلاد الشام، لأن أي مسيحي مخلص كان يأبى أن يتعاون مع رجل محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها حتى ولو كان هذا الرجل أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة. وإذا هورجج فاشلاً إلى الغرب ماذا سيكون موقفه بعد أن أعطى البابوية سلاحاً جديداً للتشهير به والإقلال من شأنه؟ إن المسألة بالنسبة لفردريك الثاني كانت تعنى مستقبل عرشه في الغرب الأوربي ومستقبل معركته ضد البابوية، لأن نجاحه في استرداد بيت المقدس سيكون قبل كل شيء انتصاراً له على البابوية. ويفسر هذا الشعور ما قاله فردريك نفسه في تلك المرحلة لصديقه الأمير فخر الدين من أنه «ماله غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج» (١).

وهكذا لم يبق أمام فردريك الثاني سوى سلاح واحد هو سلاح المفاوضات والاستعطاف واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوربي موضوع الرأس.

لذلك أسرع فردريك الثاني إلى إرسال سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية وأوان ذهبية وفضية، وتطالبه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس. غير أن الكامل أعلنها في صراحة أنه كان سيعطى بيت المقدس للأمبراطور ثمناً للمساعدة التي يقدمها له الأمبراطور ضد أخيه المعظم، أما وقد تبدلت الظروف ومات المعظم واستغنى الكامل عن المساعدة، فلا داعى للتقريب في بيت المقدس. ولم تفلح جهود الأمير فخر الدين يوسف مندوب السلطان في المفاوضات بين الطرفين في الوصول إلى حل يرضى

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

الإمبراطور والسلطان ، فساء موقف فردريك الثاني لاسيما بعد أن جاءت الأخبار من إيطاليا بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته كما أشاع في الغرب بأن الإمبراطور مات في الشام وأنه لا يوجد من يحسن الوصاية على ابن الإمبراطور القاصر سوى البابا نفسه . ولعل هذه الأخبار كانت كافية لدفع فردريك الثاني وهو الإمبراطور العظيم إلى التذلل للسلطان الكامل حتى حكي أنه كان يبكي بكاءً مرأً في مراحل المفاوضات (١) .

ولا أدل على هذا الشعور من رسالة أرسلها الإمبراطور فردريك إلى السلطان الكامل أثناء المفاوضات ، ومع ما لهذه الرسالة من أهمية فإن مرجعاً واحداً من المراجع الأوروبية أو العربية التي عالجت تاريخ فردريك الثاني لم يشر إليها . وقد جاء في هذه الرسالة على لسان الإمبراطور موجهاً خطابه للسلطان « أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تأمره خروج وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر . وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتى بينهم ! وهذا القدس فهي أصل اعتقادهم وضجرهم . فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقه منه ! ويرتفع رأسى بين ملوك البحر » (٢) .

ولم تلبث هذه الاستعطافات أن نجحت في التأثير على السلطان الكامل للتنازل عن بيت المقدس لفردريك . ويبدو أن ما قام به الإمبراطور فردريك أثناء المفاوضات من تحصين يافا جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى اتفاق الإمبراطور وبقية الصليبيين بالشام للقيام بعمل حربي مشترك ضد المسلمين . وقد فسر المقرئى هذا الشعور بقوله إن الكامل « خاف من غائلته عجزاً عن مقاومته » (١) .

Kantorowicz : Fredrick the Second, p. 185.

(١)

(٢) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثاني والسبعين من كتاب الرواني بالوفيات) .

(٣) السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

ولا شك في أن المغامرة في حرب ضد الإمبراطور والصلبيين عندئذ كانت تعنى بالنسبة للكامل وقوعه بين ثلاثة أعداءهم : ابن أخيه الناصر داود من ناحية والصلبيين من ناحية ثانية ثم الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي — الذي استنجد به الناصر داود من ناحية ثالثة . وفي ضوء هذه الحقائق كلها وافق الكامل — تحت تأثير الأمير فخر الدين يوسف — على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثاني في فبراير سنة ١٢٢٩ . وبمقتضى هذه الإتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرية وتبنين وصيدا . وبخصوص بيت المقدس اشترط المسلمون أن تبقى المدينة على ما هي عليه فلا يحدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين وتقام فيه شعائر الإسلام (١) .

وهكذا استطاع فردريك الثاني مع ضعف وسائله وإمكانياته أن يحقق من النتائج ما عجز عنه ريتشارد قلب الأسد بجيوشه الضخمة وإمكانياته الكبيرة، مع ملاحظة أن فردريك حصل على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً . على أن اتفاقية يافا قوبلت بالسخط الشديد من المسلمين والمسيحيين جميعاً . فمن ناحية المسلمين نجد أن تسليم بيت المقدس على ذلك النحو للصلبيين ، وهي المدينة التي استردها صلاح الدين للمسلمين بعد جهاد عنيف ، أثار موجة عامة من السخط والأسى في العالم الإسلامي . وقد أسهب المؤرخون العرب في وصف ألم المسلمين لضياح بيت المقدس وكيف أقيمت المآتم والجنائزات في المدن الكبرى مثل دمشق واشتد بكاء الناس وصرخهم ، كما « اشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار » (٢) . وسرعان ما أحس السلطان الكامل أنه « تورط مع ملك الفرنج » على قول المقرئزي ، فحاول أن يهون

(١) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦٢٦ هـ & المقرئزي : السلوك ج ١

ص ٢٣١ & الذهبي : عقد الجمان سنة ٦٢٦ هـ & أبو الفدا المختصر سنة ٦٢٦ هـ .

من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين ويبرر مسلكه فقال « إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكماً فى الأعمال والضياع » ! . أما الإمبراطور فردريك فقد أحس من جانبه بما سببه من حرج للسلطان الكامل فاعتذر للأمير فخر الدين « بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك (١) » .

ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين أظهروا استياءهم من هذه الإتفاقية ، بل غضب الصليبيون أيضاً فى الشام وفسروا غضبهم بصور شتى . فبعضهم قال إن كرامة المسيحية كانت تتطلب أخذ بيت المقدس بحمد السيف لا عن طريق الاستجداء والاستعطاف مثلما فعل فردريك الثانى ! لا سيما وأنه ترتب على حصول الصليبيين على القدس بالطرق السلمية أن المسلمين احتفظوا بكثير من حقوقهم فيها واستبقوا لأنفسهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وهو ما لا يجب أن يكون ! (٢) والبعض الآخر قال بأنه لا قيمة لحصول المسيحيين على بيت المقدس بدون الأردن والكرك ، وأنه لو أن المسيحيين رأوا أن هذا الحل مقنعاً لرضوا به عندما عرضه الكامل على الصليبيين فى مصر أيام الحملة الصليبية الخامسة ، ولكنهم رفضوه عندئذ لأنهم أدركوا أنه لا بد من إحياء مملكة بيت المقدس كاملة بما فيها أراضى الأردن (٣) . أما الداوية والاسبتارية فقالوا أنه لا قيمة لأى عمل أو نجاح يحققه الأمبراطور ، ما دام ذلك الإمبراطور محروماً من الكنيسة مطروداً من رحمتها ، هذا فضلاً عن غضب الداوية لأن الإمبراطور سمح للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى الذى كان مركزاً للداوية فى القدس حتى عام ١١٨٧ (٤) .

(١) المقرئزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

Stevenson : The Crusades, p. 313. (٢)

Runciman : A History of the Crusades, III, p. 188. (٣)

Setton : op.cit., II, pp. 426-427, (٤)

وعندما علم جيروالد بطرق بيت المقدس أن الإمبراطور فردريك الثاني ينوى زيارة المدينة ، وقع قرار الحرمان على القدس نفسها وعلى كل من يستقبل الإمبراطور فيها من سكانها المسيحيين . ومع ذلك فقد شق الإمبراطور طريقه إلى بيت المقدس ليتسلمها من مندوب السلطان ، وعندما رفض أحد من رجال الكنيسة أن يتوج الإمبراطور في كنيسة القيامة لأنه محروم ؛ أمسك فردريك الثاني التاج بيده ووضع على رأسه . ويرى بعض المؤرخين أن فردريك الثاني قصد أن يتوج نفسه بيده في كنيسة القيامة ، ليعلم في ذلك المكان العالى أنه لم يتسلق التاج الإمبراطورى عن طريق أحد من رجال الدين ، وأن الإمبراطور يتسلم سلطانه من الله مباشرة . دون وساطة مخلوق (١) . وهذا تفسير له دلالة في قصة النزاع بين البابوية والإمبراطورية . وجدير بالذكر أن الإمبراطور فردريك الثاني قام بكثير من الأعمال والتصرفات أثناء إقامته ببيت المقدس التي أثار دهشة المسلمين والمسيحيين سواء . من ذلك أن فردريك الثاني رأى قسيساً بيده الإنجيل يهيم بدخول المسجد الأقصى ، فزجره الإمبراطور وطرده وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنج بغير إذن وقال « إنما نحن ممالك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره ! » (٢) .

ومهما يكن من أمر فإن إقامة الإمبراطور فردريك الثاني لم تطل في بلاد الشام ، لأن مصالحه في الغرب كانت أهم بكثير في نظره من مصالح الصليبيين في الشرق . لذلك أبحر فردريك الثاني من عكا في أول مايو عام ١٢٢٩ قاصداً قبرص حيث قضى عدة أيام ثم بارحها إلى إيطاليا فوصلها في ١٠ يونيو عام ١٢٢٩ . وبذلك انتهت تلك الحملة الصليبية التي اتصفت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها . ومهما

Kantorowicz: Frederick the Second, p. 199.

(١)

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ .

يقال في أمر فردريك وتصرفاته فإنه لا يمكن إنكار الكسب الكبير الذي حققته للسيحية باسترداده بيت المقدس . وهنا نشير إلى نقطة لم تهتم بها المراجع التي عالجت تاريخ فردريك الثاني وحملته الصليبية ، هي أنه ما كان لذلك الإمبراطور أن يصل إلى ما وصل إليه من نجاح في حملته الصليبية لولا أن الظروف شاءت أن يكون على رأس البيت الأيوبي في مصر والشام عندئذ سلطان اتفق مع فردريك الثاني في طباعه وكثير من صفاته . فإذا كانت المراجع قد أجمعت على حب فردريك للعلم والعلماء ، وعلى حرصه على مجالسة رجال العلم واشتغاله بالرياضيات والحكمة فإن ابن واصل والمقریزی يذكران عن السلطان الكامل أنه « كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم ... وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده ... وكانت تبیت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ... فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريريه ليسامروه » (١) . وإذا كانت المراجع قد أسهبت في وصف تسامح فردريك الثاني وعدم تعصبة ، فإن الكامل أيضاً اشتهر بتسامحه المطلق وبعده عن التزمّت ؛ وهو التسامح الذي بلغ حد التفریط في بيت المقدس وإصدار الأوامر المشددة إلى المؤذنين في المسجد الأقصى بعدم إحياء أذان الصلاة طيلة مدة بقاء الإمبراطور في المدينة حرصاً على شعوره (٢) .

وهكذا نستطيع أن نقرر أنه لولا التوافق الشديد بين الكامل وفردريك في الطباع والميول والعقلية لتعذر على الإمبراطور فردريك الثاني أن يصل إلى ما وصل إليه من نتائج بتلك السهولة .

وخير ما يثبت أن العلاقة بين الكامل وفردريك لم تعد علاقة مصالح متبادلة ، وإنما أدى التقارب النفسى والفكرى بين الرجلين إلى نوع من الصداقة ، أن

(١) ابن واصل ج ٢ ورقة ٢٢٦ & المقریزی : السلوك ج ١ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٢) العيني : عقد الجمان ؛ ج ١٨ قسم ١ ص ٨٢ - ٨٣ .

العلاقات بينهما لم تتوقف برحيل فردريك إلى الغرب ، وإنما تمسك كل منهما بصداقة الآخر وظلا حتى النهاية خير مثال للصديقين الوفيين . ويقال إن فردريك بعد عودته إلى الغرب كان لا يفتأ يردد أمام أصدقائه « إن صديقي السلطان المسلم آمن لدى من أى شخص آخر ما عدا ولدى الملك كونراد » كذلك كان من ألقابه التي اعتز بها دائماً « فردريك هو هنشتاوفن صديق الملك المسلم » . ويقال إنه في أخريات أيام حياته كان كلما وقع في ضيق يتنهد قائلاً « آه لو كان صديقي الكامل على قيد الحياة ! » (٢) .

ثم إن هذه الصداقة بين فردريك والكامل استمرت تعبر عن نفسها عملياً بعد عودة فردريك إلى الغرب . من ذلك ما يرويه أبو المحاسن من أن فردريك أرسل إلى السلطان الكامل عام ١٢٣٣ عدة هدايا « فيها دب أبيض وشعره مثل شعر السبع ينزل البحر فيصعد بالسماك فيأكله ومعه أيضاً طاوس أبيض » (٣) .

وقد استمرت الصداقة قائمة بين فردريك الثانى وسلاطين مصر بعد وفاة الكامل . من ذلك ما أشارت إليه المراجع من أن الإمبراطور فردريك حرص على تحذير الصالح أيوب عندما علم بنية لويس التاسع ملك فرنسا بتوجيه الحملة الصليبية السابعة ضد مصر عام ١٢٤٩ . والغريب أن جميع المؤلفات العربية التي صدرت في السنوات الأخيرة عند حروب لويس التاسع في مصر والشرق اكتفت بالإشارة إلى ماردته المراجع الأوربية من أن فردريك حذر الصالح نجم الدين أيوب من نية الملك الفرنسى في مهاجمة مصر ، وخلت جميع هذه المؤلفات من إشارة إلى ورود هذا التحذير في مرجع من المراجع العربية المعاصرة . ويسرنى أن أشير إلى أننى عثرت أخيراً على نصوص صريحة في بعض المراجع العربية المعاصرة تؤيد ماورد في المراجع الأوربية من قيام الإمبراطور فردريك

(١) Kantorowicz : Frederick the Second, p. 192.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٣ .

بتحذير السلطان الصالح . ومن ذلك ما يقوله المقرئى بالحرف الواحد « ونزل (السلطان الصالح نجم أيوب) بقلعة دمشق ، فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر ، وأخبره سرأ بأن بواشن الذى يقال له رواد فرنس (لويس التاسع) عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها ؛ فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى محفة ونزل بأشموه طنح فى الحرم سنة سبع وأربعين « (١) .

ومن الواضح أن هذا النص العربى يؤيد صحة الرواية التى وردت فى الوثائق اللاتينية الغربية من قيام فردريك بتحذير الصالح نجم الدين أيوب فعلاً مما يدل على استمرار الصلات الودية بين الإمبراطور فردريك الثانى وحكام الشرق العربى حتى وفاة ذلك الإمبراطور فى منتصف القرن الثالث عشر .

سمير عبد الفتاح عاشور

(١) المقرئى : المواظ والاعتبار ؛ ج ١ ص ٢١٩ (طبعة بولاق) كذلك ذكر سبط ابن الجوزى ما نصه « إذ كانت الأخبار تتواتر إلى الملك الصالح بحركة ريد افرنس من جهة الانبرور . ملك بلاد الانبردية وانبولية ، فإنه كان مصصافياً للملك الكامل أبيه فكذلك له . (المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥١٧) .

سلطنة دارفور

تاريخها وبعض مظاهر حضارتها

شهد القرن السابع عشر الميلادي ، قيام سلطنة إسلامية في إقليم دارفور ، ولم تلبث هذه السلطنة — التي عرفت باسم هذا الإقليم — أن احتلت مكاناً بارزاً بين مجموعة الممالك السودانية الإسلامية ، الواقعة على طول نطاق السافانا ، بين الصحراء الكبرى ومصر في الشمال ، وبين الغابات الاستوائية في الجنوب . وتمتد من البحر الأحمر شرقاً ، إلى المحيط الأطلنطي غرباً ، وتشمل ممالك سنار ، وكردفان ، ودارفور ، وواداي ، وبجرمي والكانم — أوبرنو ، وممالك الهوسا ، ثم مملكة مالي .

ويتصف الإقليم الذي قامت فيه سلطنة دارفور بصفات طبيعية خاصة ناشئة من الوضع الجغرافي لهذا الإقليم . ففي الشمال ، ينتهي إقليم دارفور عند الصحراء الليبية ، وهذه الصحراء تمتد إلى البحر المتوسط ، في مساحات غير ذات ماء أو زرع ، تمثل حاجزاً مانعاً لامتداد الفور شمالاً ، ماعداً بعض الواحات الجنوبية ، التي استطاع الفور الوصول إليها ، وبسط نفوذهم عليها في بعض الأحيان . وفي شرق إقليم دارفور ، سلسلة عريضة من التلال الرملية تعرف بالأقواز ، وهذه تحجز بينها وبين جارتها كردفان . وفي جنوبي دارفور حاجز من نوع آخر ، هو بحر العرب ، والمنطقة التي ينتشر فيها ذباب تسي تسي ، وهذه المنطقة تمنع الفور من الانتشار في هذا الاتجاه . أما من الناحية الغربية من إقليم دارفور ، فليس بينها وبين المساحات الممتدة غرباً مثل ، واداي ، وبجرمي ، ومنطقة تشاد ، حاجز جغرافية ، ولا فروق جووية أو نباتية ، بل خضعت حدود دارفور من تلك الناحية ، إما لعوامل سياسية أو قبلية (١) .

وينقسم إقليم دارفور من حيث التضاريس إلى ثلاث مناطق عرضية :
ففي الشمال منطقة برارى وسهوب ، تتخللها تلال وأودية ذات أشجار وأعشاب ،
وأهلها من البدو وأشباه البدو ، وقوام حياة هؤلاء وأولئك الجمل . وفي الوسط
منطقة جبلية ، أكثر مطراً ، بالقياس إلى المنطقة الشمالية وتقوم حياة أهلها على
الزراعة . وفي الجنوب منطقة رعوية ، كثيرة الأمطار ، وقوام حياة أهلها تربية
الماشية . ولعل أبرز ظاهرة طبيعية في إقليم دارفور ، هي سلسلة جبال أشهرها جبل
مرة ، وهذه تخرق البلاد من الشمال إلى الجنوب ، وتصل أعلى قممها في الجنوب
إلى عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر (١) .

ويؤدى إلى إقليم دارفور ، طريقان صحراويان : أولهما درب الأربعين من
أسيوط ، وثانيهما الطريق الليبي والطرابلسي ، ويستغرق نيماً وأربعين يوماً .
وظل هذان الطريقان ، وسيلة الاتصال التجاري والحضارى ، فيما بين دارفور
ومصر وطرابلس ، عبر الأجيال والعصور ، حتى العصر الحديث ، حيث امتدت
السكة الحديدية من الخرطوم إلى الأبيض ، وأخيراً إلى نيالا ، فتغيرت وسائل
النقل ، وبطل استعمال هذين الطريقين القديمين (٢) .

ويتصف إقليم دارفور كذلك بصفات بشرية خاصة منشؤها ، تعدد
سلالاته ، واختلاف ثقافات سكانه ، ذلك أن هذا الإقليم تتنازعه سلالات
بشرية مختلفة ، بعضها قديم ، وبعضها الآخر مهاجر إليه من الشمال أو من الشرق
أو من الغرب ، مما أدى إلى تعقيد جنسياً وثقافياً ، ولو أنه شملت جميع سلالاته
تقريباً ، الثقافة العربية ، والديانة الإسلامية . غير أن تأثير سلالاته بالثقافة العربية
والديانة الإسلامية ، تختلف عمقاً وسطحية من سلالة إلى أخرى حسب نشأة كل

Ibid : Op.Cit., p. 178.

C/f. Arkell, A.J. : , "The History of Darfur". S.N.R. XXXII, part I, (١)
pp. 38-39.

Balfour - Paul, H.G. : History and Antiquities of Darfur p. 2. (٢)
Lampen, G.D. Op.Cit., p. 178.

منها ، ومدى قدمها أو قرب عهد هجرتها واختلاطها بالعرب الطارئين . ويبدو مدى التعقيد الجنسي والثقافي في إقليم دارفور ، إذا علمنا ، أنه يشتمل على نحو ثمانى عشرة سلالة غير عربية (١) . تتحدث إثنى عشرة لغة مختلفة ، بالإضافة إلى اللغة العربية ، التي تعرفها الغالبية العظمى من سكان دارفور (٢) .

ومما لا شك فيه أن الفور هم أصحاب البلاد الأصليون ، ويستقون بالمنطقة الجبلية الوسطى ، وبها جبل مرة (٣) . ومنذ حوالى القرن السابع الميلادى ، وقد على هذا الإقليم قبائل من الشمال عن طريق النيل من ناحية ، وعن طريق الصحراء من ناحية أخرى . فمن ناحية النيل جاءت جماعات نوبية من الميذوب والبرقد ، على حين جاءت جماعات ليبية من البدايات والزغادة من شمال إفريقيا . واستطاعت هذه القبائل النوبية والليبية ، بفضل ما امتازت به من الغلبة العقلية ، وما لديها من وسائل حربية جديدة ، أن تطرد جماعات السود إلى الجبال ، وأن تقيم فى هذه المنطقة ممالك خاصة ، وأدت هذه الهجرات الشمالية كذلك إلى ازدياد تجارة الرقيق ، كما يشير إلى ذلك الإدريسي المتوفى سنة ١١٥٣ م (٤) .

أما الهجرات العربية الرئيسية إلى هذا الإقليم ، فيبدو أنها جاءت من مصر وشمال إفريقيا ، عبر السهوب والبرارى الواقعة بين النوبة وإقليم تشاد ، وذلك بعد أن قامت فى مصر وشمال إفريقيا دول إسلامية مستقلة كالطولونيين والإخشيديين ، والأدارسة والفاطميين والماليك ، وبني مرين ، وبني حفص . والمعروف أن القبائل العربية التي هاجرت إلى إقليمى كردفان ودارفور ، كانت تحترف رعى الإبل ، ولما انتقلت جماعات منها إلى الجنوب ، لم تلبث أن استبدلت

MacMichael, H.A. : A History of the Arabs in;the Sudan Vol'I . (١)
pp. 52-89, Lampen, G.D. Op.Cit., p. 181

Arkell, A.J. : Op.Cit., p. 51. (٢)

MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 91. (٣)

Lampen, G.D. : Op .Cit., pp. 181-182. (٤)

C/f. Balfour — Paul, H.G. : Op. Cit., p. 7.

البقر بالإبل ، ومن ثم عرف هؤلاء بالبقارة ، على حين ظل أبناء عمومتهم في الشمال يراعون الإبل (١) .

وعلى الرغم من أن قبائل البقارة والأباله في كردفان ودارفور ، تضم بطوناً من قبائل عربية من غير جهينة ، إلا أنه غلب عليهم جميعاً النسب إلى جهينة (٢) . والمعروف أن الأقاليم التي احتلتها القبائل الجهنية وغيرها لم تسكن خالية من السكان ، بل اشتملت على عناصر حامية في الشمال وعناصر زنجية أو شبه زنجية في الجنوب . ولذا فإن اختلاط القبائل الجهنية من الأباله بالعناصر الحامية في الشمال ، لم يؤثر كثيراً في صفاتها الجسدية ، على حين أن القبائل الجهنية ، التي انتقلت جنوباً ، وهي البقارة ، اكتسب أفرادها بعض الصفات الزنجية ، لا تخاذم زوجات وإماء من الزنجيات . ومع أن البقارة لم يكونوا أقوى عنصر في دارفور فإنهم استطاعوا أن يشطروا هذا الإقليم شطرين ، فاحتلوا السهول الواقعة جنوبي جبال مرة ، وحصروا الفور شمالاً في منطقة الجبال ، حيث بقوا أجيالاً بعد أجيال ، على حين دفعوا قبائل الشط والبنجا والبندا والفروجية جنوباً إلى إقليم المستنقعات شمالي بحر الغزال ، حيث عرفوا بإسم القرثيت (٣) .

وعلى هذا يمكن تقسيم سكان دارفور الحاليين إلى مجموعتين : إحداهما وهي المعروفة بالمجموعة غير العربية ، والأخرى هي المجموعة العربية . أما المجموعة الأولى ، فإنها تضم — فضلاً عن الفور أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المنطقة الجبلية الوسطى — المساليط والإرنجا والقمر في الغرب ، والرغاوة والقرعان والبدديات في الشمال ، والميدوب في الشمال الشرقي ، والبرتي والبرقد في الشرق ، والداجو والبيقو في الجنوب الشرقي ، والفلاتا في الجنوب ، والتنجور في الوسط (٤) .

(١) Lampen, G.D. . Op. Cit., p. 182.

(٢) راجع محمد عوض : السودان الشمالي ، ص ٢٠٩ — ٢٥٠ .

(٣) Lampen, G.D. : Op. Cit., pp. 182-183.

(٤) Balfour-Paul, H.G. : Op. Cit., pp. 7-8.

C/f MacMichael, H.A. : Op. Cit., pp. 52-91.

أما المجموعة العربية فإنها احتلت السهول وتضم الهبانية والرزيقات والمسيرية والتعايشة وبنى هلبة والماليا في الجنوب ، والحجر في الشرق ، والزيادية في الشمال والماهرية والحاميد وبنى حسين في الغرب^(١) .

* * *

أما عن تاريخ هذه البلاد ، فليس لدينا عنه شيء مكتوب ، ومن ثم فإن المعلومات القليلة التي وصلت إلينا خاصة بتاريخها ، تعتمد أساساً على الروايات الشفوية التي حفظها أهل البلاد جيلاً بعد جيل^(٢) . وهي روايات يكتنفها التناقض أحياناً ، والغموض أحياناً أخرى ، ولذا تعين على الباحث في تاريخ دارفور ، الرجوع إلى ما سجله عن تاريخها ومظاهر حضارتها ، الرحالة الذين زاروا هذه البلاد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للهيلاد .

وأول أولئك الرواد الذين زاروا إقليم دارفور ، الرحالة الانجليزى براون W. G. Browne^(٣) . وذلك في عهد سلطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد . وسلك براون في رحلته إلى دارفور طريق درب الأربعين من أسبوط إلى الفاشر ، وظل في دارفور نحو ثلاث سنوات ، من يوليو سنة ١٧٩٣م إلى مارس سنة ١٧٩٦م ، إلا أنه ظل في أثناءها شبه سجين ، فلم يسمح له بالتجول في البلاد ، أو جمع معلومات عنها بسبب ارتياب السلطان في نواياه باعتباره أوربياً مسيحياً ، وفي المهمة التي من أجلها جاء هذا الأوربى المسيحي إلى دارفور . ثم أن براون لم يعثر في دارفور على تاريخ مدون لهذه البلاد ، ولذا جاءت المعلومات التي استطاع الحصول عليها من أهلها قليلة سطحية ، يشوبها الاضطراب وعدم العمق ، وذلك باستثناء بعض ملحوظات خاصة بأحوالها الاقتصادية وقتذاك^(٤) .

(١) محمد عوض محمد : السودان الثمالي ص ٢٣٨ — ٢٥٠ .
(٢) Bath, H. Travels in Central Africa Vol. III, p. 425.
(٣) Browne, W.G.: Travels in Africa, Egypt and Syria.
(٤) Arkell, A.G.: Op. Cit., p. 40.

وبعد حوالي سبع سنوات من رحلة براون إلى دارفور ، أى فى عام ١٨٠٣م زار هذه البلاد رحلة عربى ، هو محمد بن عمر التونسى ، وأتيح للتونسى أن يلم إلماماً واسعاً بأحوال دارفور الاجتماعية والاقتصادية ونظمها السياسية والإدارية والحربية ، وعلاقتها بجيرانها ، فضلاً عن ذكر تاريخها فى كتابه القيم : « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » (١) .

وفى المدة من عام ١٨٤٩م إلى عام ١٨٥٥م قام الرحالة المعروف هنرى بارت Henry Barth برحلته المشهورة من طرابلس الغرب إلى بحيرة تشاد ، وقد ارتاد خلال هذه المدة بلاد السودان ما بين تمبكت وبجرى . والمعروف أن بارت لم يقيم بزيارة دارفور أو واداي ، ولكنه استطاع — أثناء مقامه فى برتو — أن يجمع نتفاً قليلة عن تاريخ هذه الأقاليم ، معتمداً فى ذلك على بعض الروايات الشفوية التى نقلها عن أهل البلاد أنفسهم ، فضلاً عن إشارات قليلة لبعض المؤلفين القدامى من العرب (٢) .

وفى عام ١٨٧٤م ، وصل الرحالة الألمانى جوستاف ناختيجال Gustav Nachtigal إلى دارفور ، بعد أن أنفق ستة أعوام تقريباً فى رحلته التى بدأها من طرابلس الغرب متجهاً إلى دارفور ، عن طريق بحيرة تشاد وبجرى وواداي . وفى مدينة الفاشر عاصمة دارفور وقتذاك ، قضى ناختيجال ستة شهور ، جمع أثناءها كل ما استطاع جمعه من روايات شفوية ومكتوبة ، عن تاريخ دارفور الوسيط ، بمساعدة السلطان إبراهيم بن محمد حسين ، وأحد الأمراء الفوراويين ، واسمه باسى طاهر . وعلى الرغم من هذا فإن ناختيجال لم تتح له القرصة الكاملة لدراسة إقليم دارفور دراسةً كافيةً ، تتفق ومواهبه الفذة . ذلك بأن السلطات

(١) التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .

تحقيق عساكر ومسعد .

(٢) Barth, H.: Travels in Central Africa Vol. III, pp. 528-553.

الحاكمة في دارفور ، لم تسمح له بالتجول في أنحاء البلاد ، فلزم الطريق الرئيسي الذي يقطع دارفور من الغرب إلى الشرق . ثم أنه جمع بياناته عن دارفور في مدينة الفاشر . وقد يكون هذا راجعاً إلى ارتياب السلطان في مهمته ، لاسيما وأن الحكومة المصرية كانت تستعد آنذاك لضم دارفور إلى بقية أقاليم السودان التي كانت تحت إدارتها . وتقع رحلة ناختيجال المسماة Sahara und Sudan في ثلاثة أجزاء ضخمة ، أشرف المؤلف بنفسه على نشر الجزءين الأولين منها ، ومات قبل أن يراجع ما أملاه من مذكرات خاصة بالجزء الثالث ، وهو الجزء المتعلق بواداي ودارفور . فقام أحد أصدقائه بإخراج هذا الجزء من مذكراته . ورغم القصور الذي لازم الجزء الأخير من رحلته إلى واداي ودارفور ، فإنه يعد مصدراً أصيلاً لتاريخ هذين الإقليمين ، ولا سيما ما يتعلق بتاريخ الأسرة الحاكمة في دارفور ، ونظم البلاد السياسية والإدارية في عصره (١) .

هذا عرض موجز للرحلة الذين أسهموا بمجهودهم في محاولة إجلاء بعض ما غمض من تاريخ سلطنة دارفور . وسواء أكان الهدف من هذه الرحلات التي قام بها أولئك الرحالة ، خدمة مصالح استعمارية ، أو البحث عن الحقيقة وخدمة العلم ، فإنهم كانوا جميعاً — باستثناء محمد بن عمر التونسي — موضع ارتياب السلطات الحاكمة في دارفور وقلقها ، فلم يتمكنوا من التنقل بحرية في أنحاء البلاد ، ومن ثم لم يتيسر لهم دراسة أحوال البلاد دراسة كافية .

أما محمد بن عمر التونسي ، فيختلف عن أولئك الرحالة الأوربيين . فهو تونسي الأب والجد ، مصري الأم والتربية . أفادته عروبته في الوصول إلى دارفور موطن كثير من القبائل العربية ، التي تربطه وإياها رابطة الأصل واللغة والدين ، وتربطه بأهلها من السودان — ومعظمهم وقتذاك من المسلمين — العروة الإسلامية

الوثقى . صحيح أن محمد بن عمر التونسي لم يذهب إلى دارفور حياً في الاستطلاع أو الدراسة أو الكشف الجغرافى ، ولكن ذهب للحاق بأبيه عمر التونسي الذى كان رحل إلى سنار ، ثم إلى دارفور ، ومن قبل رحل جده سليمان إلى سنار . وأفاد محمد بن عمر التونسي فى الإلمام بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والتاريخية ، علاقة أبيه وجده من قبل بهذه البلاد ، التى صاهراً أهلها ، وأضحى لمحمد بن عمر التونسي فيها إخوة وأعمام . وقد اشتغل هؤلاء جميعاً بالعالم والتجارة ، وتنقلوا بين تونس ومصر والحجاز وسنار ودارفور وواداي . وصارت لهم مصالح تجارية واسعة ، ومراكز سياسية مرموقة ، ومكانة دينية عظيمة عند ملوكها وفقهائها ، وبما لا شك فيه ، أن خبرة هؤلاء جميعاً تضيف كثيراً إلى ما اكتسبه محمد بن عمر التونسي نفسه من خبرة بأحوال هذه البلاد خلال إقامته بها . وبما يسر للتونسي التعرف على نواحي الحياة فى البلاد ، سهولة التخاطب مع كافة الطبقات باللغة العربية ، التى لا يجهلها سوى القليل من أهل دارفور ، وأتيح للتونسي — بما ناله أبوه عمر من مكانة ، لدى السلطان والأمراء والوزراء والفقهاء وكبار التجار كذلك ، أن يكون من ذوى الحظوة لديهم جميعاً ؛ فحضر مجالس السلطان ، ووقف على كثير من أسرار السياسة ، وتقاليد البلاط ، ونظم الحكم والإدارة والقضاء ، وشهد بنفسه بعض الحوادث السياسية والحربية الهامة . وأتيح للتونسي أن يتجول فى كل أنحاء دارفور فى حرية تامة ، وأن يمر بمدنها وقراها وأسواقها ، وأن يدخل المناطق الجبلية الوعرة ، التى لا يسمح لأحد الدخول فيها إلا بإذن من السلطان ، وهى المناطق التى يسكنها « أعجم الفور » على حد قول التونسي . ولذا تتميز كتابات التونسي عما شهد فى هذه البلاد — رغم حداثة وقتذاك — بالدقة وقوة الملاحظة ، والقدرة على النفاذ إلى أعماق الأمور . وبذا استطاع التونسي ، أن يدرس حياة الناس على اختلاف سلالاتهم وطبقاتهم ولغاتهم دراسة عملية دقيقة .

حاول بعض الباحثين التعرف على مراحل تاريخ دارفور القديم ولكن

جهودهم في هذا الميدان ، لم تأت بنتائج ذات بال . ومن ثم فإننا لا نعرف عن تاريخ دارفور القديم شيئاً على وجه التحقيق ، وربما تكشف الأبحاث الأثرية في المستقبل عما غمض من تاريخ ذلك العصر .

ويظهر أن ثمة علاقة نشأت بين إقليمى كردفان ودارفور من ناحية وبين دولة كوش من ناحية أخرى وربما كان هذا هو السر في أن الجماعات التي تتحدث اللغة النوبية في كردفان ودارفور ، تحاول دائماً أن تستعيد ماضيها وعلاقتها بدولة كوش بتمسكها بأصلها القديم ، باعتبارهم « أهل كوش » ، أو « ناس كوش » أو « كاش » التي تقابل « كاج » . ومن هؤلاء جماعات « كاجدى » Kajiddi في الطرف الجنوبي من جبل « كاجا » في شمال كردفان . ويؤمن هؤلاء الكاجدى أنهم أتوا من ناحية الشرق بقيادة ملكة ، وأن هذه الملكة مدفونة في قبر قريب من جبل كابويجا Kaboija في الطرف الجنوبي الشرقي من جبل ميدوب ، وليس من المستبعد أن تكون الأسرة المالكة في كوش ، أو فروع منها ، لجأت إلى الأقاليم الغربية من دولتهم المنهارة ، عقب سقوط عاصمتهم مروى في منتصف القرن الرابع الميلادى على يد عيزانا ملك أكسوم ، وأن الجماعات التي تتحدث اللغة النوبية في كردفان ودارفور ترجع أولى هجراتها إلى هذا العهد (١) .

وتذكر روايات أهل البلاد أن الدايجو أول من أسس دولة في إقليم دارفور ، ثم تلاهم التنجور ، ثم أسرة كيرا من الفور ، ومن هذا الاسم الأخير جاء اسم سلطنة دارفور .

أما الدايجو فأصلهم غير معروف تماماً ، ويذكر الرحالة بارت ، أنهم كانوا في زمنه (١٨٤٩ — ١٨٥٥ م) يطلقون على أنفسهم « ناس فرعون » ويرى أنهم جاءوا من إقليم فازوغلى جنوبى سنار (٢) ، على حين أن آر كل — اعتماداً

Arkell, A.J.: A History of the Sudan, pp. 174-178.

(١)

Barth, H.: Op. Cit., p. 426.

(٢)

على ما ذكره براون — يرى أنهم من البربر الذين جاءوا من الشمال، من تونس (١) أما التونسي فيجعلهم أحد الشعوب الخمسة القديمة الرئيسية لسكان دارفور (٢) والراجح أن الداجو سلالة سودانية قديمة، غير أنهم مدينون في قيام دولتهم هذه إلى مهاجرين أرقى منهم حضارة، وأنشأ أولئك المهاجرون طبقة حاكمة خضع لها الداجو. وليس من المعروف تماماً مصدر هذه الطبقة الحاكمة، وينتاب على الظن أنها جاءت من الشرق، أي من وادي النيل، فإن توزيع جماعات الداجو. وامتدادهم من الشرق إلى الغرب، قد يساعد على هذا الاستنتاج ذلك أن للداجو مواطن موزعة بين كردفان ودارفور وداصليح، وفي إقليم بحيرة تشاد (٣).

ويذكر كل من Arkel (٤)، Palmer (٥) أن الداجو هم «التاجوين» الذين ورد ذكرهم في مؤلفات الإدريسي وابن سعيد والمقرئزي وابن خلدون، وأنهم كانوا يقطنون في المدة بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، على مقربة من قبيلة الزغاوة وغربي الواحات المصرية، بين النسوبة في الشرق والسكانم في الغرب.

وأشار الإدريسي إلى مدينتين في بلاد التاجوين أو الداجو: إحداهما تاجوه، وهي غير معروفة، والأخرى سمينة. وربما كانت هذه البلدة الأخيرة تقع في تلال سيمييات على بعد عشرين ميلاً شرقي مدينة الفاشر الحالية، حيث يعيش جماعة تعرف بهذا الاسم، ثم انتقلت جماعات سيمييات إلى حدود واداي، وهناك عرفوا باسم سيمييار Simyar ويزعم هؤلاء الانتساب إلى الداجو القدماء. ويذكر

Arkel, A.J.: Op. Cit., pp. 62-70. (١)

(٢) التونسي: تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ١٢٧.

MacMichael, H.A.: Op. Cit., pp. 71-76. (٣)

Palmer, H.R.: Bornu, Sahara and Sudan, p. 212. (٤)

Arkel, A.J.: S.N.R., Vol. XXXII, Part 1, pp. 62-70. (٥)

الإدريسى ، أن أولئك التاجوين — الداجو « مجوس لا يعتقدون شيئاً » (١) .

أما التنجور — الذين تذكر روايات أهل البلاد أنهم خلفوا الداجو في حكم دارفور — فقد اختلفت الآراء حول أصلهم . فقبل إنهم من عرب بني هلال من شمال إفريقيا (٢) ، ورأى آخر يقول إنهم من بقايا العباسيين الذين هاجروا إلى السودان بعد زوال دولتهم (٣) . ويذكر بارت أن التنجور من النوبيين الذين هاجروا من دنقلة إلى دارفور ومدوا نفوذهم على وادى ، وأرغموا الكاثم أحياناً على دفع الجزية (٤) . ويرى آر كل أن التنجور من التبو ، وأنهم هاجروا من إقليم تبستي تحت ضغط بني هلال في شمال إفريقيا ، ومن ثم حدث خلط في النسب بين التنجور وبين بني هلال (٥) . أما ما كيا كل ، فلا ينفى صلة التنجور ببني هلال ، ولا يستبعد أن تكون بعض العناصر النوبية والعربية من بني هلال ، هاجرت من بلاد النوبة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد إلى دارفور ، حيث عرفوا بإسم التنجور . ومما يؤيد صلتهم ببلاد النوبة ، أن إسم تنجور في اللغة النوبية معناها قوس ، وهو الإسم الذى عرفت به بلاد النوبة في العصور القديمة « تاستى » أى بلاد القسسى ثم أنه لا يزال هناك مكان جنوبي وادى حلغا الحالية يحمل إسم تنجور حتى الوقت الحاضر (٦) . وكيفما كان الطريق الذى سلكه التنجور إلى إقليم دارفور ، أو درجة الصحة فى انتمائهم إلى العرب أو النوبيين أو التبو ، فالمعروف أن أولئك التنجور ، لم تكن لهم — فى المائتى سنة الأخيرة — لغة سوى اللغة العربية (٧) ، ومهما قيل فى شأن اللغة التى كانوا يتحدثون بها من قبل ، أو أنهم نسوا اللغة القديمة ، وتمسكوا بالعربية ، فإن هذا

(١) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٢ .

Slatin: Fire and Sword in the Sudan, p. 38. (٢)

C/f Balfour-Paul; H.G.: Op. Cit., p. 10. (٣)

Barth, H.: Op. Cit., pp. 429-430. (٤)

Arkell, A.J.: S.N.R.: Vol. XXXII, pp. 207-218. (٥)

MacMichael, H.A.: Op. Cit.: p. 66. (٦)

Balfour - Paul, H.G.: Op. Cit., p. 10. (٧)

لا ينفى — على الأقل — صلتهم بالعناصر العربية ، التي كانت فيما يبدو — تمثل طبقة حاكمة تعتمد على قاعدة من العناصر غير العربية ، قد تكون من النوبة أو من البدايات .

ومعظم الآثار التي عثر عليها في مدينتي أورى وعين فرح شمال دارفور تنسب إلى التنجور ، ويدل هذا على أن التنجور بسطوا نفوذهم على شمال دارفور ، ولم يمتد إلى جنوبها . ومن المحتمل أن مملكتي الداجو والتنجور قامتتا جنباً إلى جنب ، حتى القرن السادس عشر للميلادى . وتدل بقايا آثار المساجد والقصور الملكية المبنية بالطوب الأحمر على أن الإسلام امتد إلى دارفور على عهد التنجور . غير أن سلطان التنجور لم يستمر على ما تغلبوا عليه في دارفور طويلاً . وربما كان مرجع ذلك إلى أن ضغطاً وقع عليهم من الشمال ، أو إلى أنهم توسعوا في بسط نفوذهم ، حتى وصلوا غرباً إلى وادى ، وبدا تخليخل سلطانهم على دارفور بعد مضي قرنين من مقدمهم إليها (٢) .

وعلى الرغم من أن الإسلام أخذ يشق طريقه إلى هذه البلاد ، منذ حوالى القرن الثالث عشر للميلادى على الأقل ، حيث أخذت تنهال عليه الهجرات العربية من الشمال والشرق والغرب ، فإن الإسلام لم يصبح الدين الرسمى للبلاد إلا حين تولى سليمان سولونج من أسرة كبرى عرش سلطنة دارفور حوالى عام ١٦٤٠ م . أما كيف انتقل الملك من التنجور إلى أسرة كبرى من الفور ، فهذا موضوع اختلفت فيه الآراء كذلك .

يذكر التونسي أن الفور — سكان جبل مرة الأصليين ينقسمون إلى ثلاث شعب هي : الكنجارة والتموركة والكرى كريت (٣) . لكن الكنجارة

Ibid : Op. Cit., p. 11:

(١)

Lampen, G.D. : Op. Cit., p. 183.

(٢)

(٣) التونسي : نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

يمتازون على غيرهم من القور بوجود الدماء العربية في عروقهم^(١) . وتذكر روايات أهل البلاد أنه وفد على بلاد دارفور قبل القرن السابع عشر الميلادي ، جماعة من عرب بني هلال بقيادة أحمد المعقور من نسل أبي زيد الهلالي ، وصاهروا الكنجارة ، ونشأ في الكنجارة أسرة تسمى أسرة كيرا ، استطاعت بقيادة زعيمها سليمان سولونج أن تؤسس سلطنة دارفور^(٢) . وثم رواية تقول إن سليمان سولونج عربي من قبيلة بني هلال ، وتزوج أميرة من القور^(٣) . ورواية ثالثة تقول إنه ابن أحمد المعقور من بني هلال ؛ أو من سلانته^(٤) . ورواية رابعة تقول ، إنه سبق حكم سليمان هذا أربعة عشر سلطاناً يحملون أسماء عربية^(٥) . ومما زاد هذه الروايات اضطراباً ، إدعاء كل من الكنجارة والتنجور الانتساب إلى بني هلال^(٦) .

والراجع أن الكنجارة ، — وهم خليط من العرب والقور — صاهروا التنجور ، ونشأ عن هذه المصاهرة ، ظهور أسرة كيرا ، وهي الأسرة التي انتزعت حكم دارفور من التنجور . ويبدو أن السلطان دالي أول سلاطين هذه الأسرة ، ثم خلفه ابنه كورو ، ثم سليمان سولونج . وظلت هذه الأسرة تحكم دارفور حتى نهاية حكم علي دينار عام ١٩١٦ .

السلطان سليمان سولونج (١٦١٠ — ١٦٧٠م) :

ينحسب على الظن أن سليمان كان من أب أجنبي وأم من كيرا وعلى كل حال فإن لقب سولونج — الذي عرف به سليمان — معناه في لغة القور « العربي »

MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 91. (١)

Balfour-Paul, H.G. : Op. Cit., p. 92. (٢)

(٣) شفيحة : (نفس المصدر ٢ ، ص ١١٢) .

Nachtigal, G. : Op. Cit. : Vol. III, pp. 256-360. (٤)

MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 92 n. (٥)

أو من يتكلم العربية أو من يدين بالإسلام دين العرب (١) . وفي هذا دليل على اتصال سليمان بالنسب العربي .

نشأت أسرة كبيرة هذه في ترة على مقربة من جبل مرة بأواسط دارفور . وفي هذه المنطقة ، عثر على بقايا قصور حصينة ترجع إلى عهد أولئك السلاطين الثلاثة الذين بدأ بهم بيت كيرا ، وإلى الشرق من ترة ، توجد بقايا قصر آخر ينسب إلى زعيم اسمه توتسام (٢) . وتذكر روايات الفور أن توتسام هذا كان أخاً لسليمان ، ويبدو أنه كان يريد السلطنة لنفسه ، فخاربه سليمان سولونج وهزمه وطرده من دارفور . فلجأ هذا الزعيم الطريد إلى كردفان ، وهناك أسس سلطنة المسبعات (٣) . ويقال إن المسبعات في لغة الفور معناها « الناس الذين ذهبوا إلى الشرق » (٤) .

اتخذ سليمان سولونج بلدة نامي في إقليم ترة عاصمة لدولته ومن هذه المنطقة قام سليمان بعدة حملات حربية على ما جاوره من أقاليم . واستطاع سليمان بعد معارك بلغ عددها ثلاثاً وثلاثين ، أن يحقق للبلاد وحدتها ، وأن تخضع لسلطانه جماعات البرقد والزغاوة والبرقي والبيقو وبعض المساليط ، كما قضى على محاولة قام بها التنجور لاسترداد ملكهم المسلوب . ثم تفرغ سليمان لبناء سلطنته على أسس سلمية باستئناف حركة نشر الإسلام ، التي يحتمل أن يكون أصابها الركود أثناء فترة الحروب الأهلية (٥) .

وفيا يلي قائمة بأسماء سلاطين دارفور . من سليمان سولونج فصاعداً :

(١) سليمان سولونج (١٦١٠ — ١٦٧٠ م) .

Lampen, G.D. : Op. Cit., p. 185, MacMichael, H.A., Op. Cit., p. 92. (١)

MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 93. (٢)

Ibid : Op. Cit., κ/f. Arkell, A.G. : S.N.R., Vol. XXXII, Part I, p. 46. (٣)

Ibid : Op. Cit., p. 46. (٤)

Lampen, G.D. : Op. Cit., pp. 184-185. (٥)

- ٢ (موسى بن سليمان سولونج (١٦٧٠ - ١٦٨٢ م) .
- ٣ (أحمد بكر بن موسى (١٦٨٢ - ١٧٢٢ م) .
- ٤ (محمد دورا بن أحمد بكر (١٧٢٢ - ١٧٣٢ م) .
- ٥ (عمر ليل بن محمد دورا (١٧٣٢ - ١٧٣٩ م) .
- ٦ (أبو القاسم بن أحمد بكر (١٧٣٩ - ١٧٥٢ م) .
- ٧ (محمد تيراب بن أحمد بكر (١٧٥٢ - ١٧٨٧ م) .
- ٨ (عبد الرحمن الرشيد بن أحمد بكر (١٧٨٧ - ١٨٠٢ م) .
- ٩ (محمد فضل بن عبد الرحمن الرشيد (١٨٠٢ - ١٨٣٩ م) .
- ١٠ (محمد حسين بن محمد فضل (١٨٣٩ - ١٨٧٤ م) .
- ١١ (إبراهيم بن محمد حسين (١٨٧٤ - ١٨٧٥ م) .

دارفور تحت حكم الإدارة المصرية

في السودان (١٨٧٥ - ١٨٨٣ م) .

السلطان موسى : (١٦٧٠ - ١٦٨٢ م) لم تذكر عنه روايات الفور شيئاً يستحق الاهتمام . ويبدو أن هذا السلطان كان ميالاً إلى ، على عكس أبيه سليمان ، غير أنه اضطر مع هذا إلى أن يحارب جماعات القمر والمسبمات (١) .

السلطان أحمد بكر (١٦٨٢ - ١٧٢٢ م) حكم هذا السلطان بلاد دارفور أربعين عاماً ، وأحبته رعيته لما اشتهر عنه من الحزم ، وإليه يرجع الفضل في تعميم الإسلام في بلاد دارفور . ويبدو أن الإسلام في عهد سلفه لم يتعد الأسر المالكة أو الأسر الكبيرة ، التي اتصلت بالنسب العربي . ولذلك اعتنى

هذا السلطان ببناء المساجد والمدارس ، واستقدم عدداً من المشايخ من مختلف البلاد الإسلامية ، ومنحهم أراض وأعمام من الضرائب . عاش السلطان أحمد بكر مدة في بلدة قرلي في دار كرنة ، ثم تنقل ببلاطه وحاشيته إلى بلدة مرة في دارفيا ، ثم إلى أبوعسل في منطقة ترة . ولم يخل حكم هذا السلطان من حروب ، أولها حرب دامت سبع سنوات لإخضاع جماعات القهر ، واستعان أحمد بكر بأمرأه الماليك في مصر لإمداده بالأسلحة لدفع إغارات أهل واداي بقيادة ملكهم عاروسي على حدود دولته ، فأحرز عليهم نصراً عند كبكائية (١) . ويبدو أن اسم كبكائية مستمد من اسم هذه المعركة . وذلك أن لفظ كبكائية - في لغة الفور - مركب من كلمتين كبي - كابية، ومعناها « ألقوا دروعهم هارين » (٢) .

محمد دورا (١٧٢٢ - ١٧٣٢ م) ورث هذا السلطان عن أبيه أحمد بكر شجاعته وحزمه ، لكنه أضاف إلى هاتين الصفتين صلة القسوة والوحشية ، بدليل قتله كثيراً من أخوته (٣) ، وشنه الحرب على ابنه موسى عنجريب . وتوفي محمد دورا هذا بعد مرض طويل بداء البرص (٤) .

عمر ليل (١٧٣٢ - ١٧٣٩ م) خلف أباه السلطان محمد دورا على عرش دارفور . ويقول شقير، إنه من أعدل سلاطين دارفور وأشدهم محافظة على الكتاب والسنة (٥) . ونقل عمر فاشرة إلى بلدة كوجورما على بعد عشرين ميلاً غربى كبكائية . ويذكر لامبين "Lampen" أنه لقب بعمر ليل ، أى عمر الحمار لأنه كان قاسياً ، فضلاً عن أطاعه الحربية التوسعية في إقليم واداي

Nachtigal, G.: Op. Cit., p. 367. (١)

C/f El Tounsi: Voyage au Ouday, pp. 77-82.

Lampen G.D.: Op. Cit., p. 185. (٢)

(٣) شقير : نفس المصدر ص ١١٥ .

Lampen, G.D.: Op. Cit., p. 185. (٤)

(٥) شقير : نفس المصدر ص ١١٥ .

إلى ضيجر أهل دارفور من حكمه ، ومات السلطان عمر أسيراً في واداي (١) .

أبو القاسم (١٧٣٩ - ١٧٥٢ م) هو ابن السلطان أحمد بكر . خلف ابن أخيه عمر ليل في حكم دارفور ، وبدأ عهده بمحاربة طبقة الأرقاء دون الأحرار ، وامنلات وظائف الإدارة والحكم بالعبيد ، فكره الناس حكمه . وعزم على الانتقام لسلفه عمر ليل من أهل واداي . وأدى اختفاؤه وإشاعة قتله في المعركة إلى تنصيب أخيه محمد تيراب عرش السلطنة .

ولما ظهر أبو القاسم ، بعد شفائه على أيدي بعض الأعراب الذين آووه ، أبي كبار رجال الدولة أن يتنازل تيراب لأخيه عن السلطنة ، وما زالوا به حتى وافق على خنقه (٢) .

محمد تيراب (١٦٥٢ - ١٧٥٧ م) برهن السلطان محمد تيراب على أنه سلطان ممتاز ، فاستحق من أجل ذلك الاحترام في الداخل والخارج . غير أنه أثار غضب بعض رؤساء القبائل في دولته لميله إلى جماعات الزغاوة التي كانت منها أمه ، فعين خاله سلطاناً على فرع من فروع الزغاوة ، كما عين عدداً من أفراد هذه القبيلة في المناصب العليا في دولته . وتنقل السلطان تيراب بفاشرة بين قرلي وكوجورما وشوبا ، وكلها تقع بالقرب من مدينة كيكابية . وربما كان الدافع له على ذلك ، مراقبة حركات أهل واداي بالقرب من الحدود الغربية لدولته . ثم نقل السلطان تيراب فاشرة مرة رابعة إلى الريل جنوب شرقي دارفور ، وذلك على أثر ثورة قامت بها جماعات البرقد ضده . ويرجع سبب هذه الثورة إلى ماشاع بين البرقد ، من أن السلطان تيراب يقوم ببيع بناتهم اللاتي كان مفروضاً إلحاقهن بحريم السلطان وجواريه وخدمته (٣) . وسواء أكان انتقال السلطان بفاشرة

Lampen, G.D.: Op. Cit., 00. 185-186.

(١)

Nachtigal, G.: Op. Cit., 00. 373-374.

(٢)

(٣) أنظر التونسي : تشحيذ الأذهان ص ٦٩ ، ٧٠ .

Lampen, G.D.: Op. Cit., p. 186.

إلى الناحية الجنوبية الشرقية من دولته بسبب ضغط هذه الثورة عليه أو الاستعداد لحرب الرزيقات والمسبعات ، فالمعروف أنه قام بهذه الغزوات على هاتين الجماعتين ، بعد القضاء على ثورة البرقد .

أما عن حرب المسبعات ، فإن التونسي شرح في كتابه علاقة سلاطين دارفور بسلاطين المسبعات شرحاً وافياً ، وتعرض لتفاصيل هذه الحرب أسبابها ونتائجها . فيذكر التونسي أن سليمان سولونج الجسد الأول لسلاطين دارفور ، كان له أخ اسمه المسبع^(١) . واتفق الأخوان على تقسيم إقليم دارفور وكردفان فيما بينهما . فكانت دارفور من نصيب سليمان ، وكردفان من نصيب المسبع . وتعاهد الأخوان أن لا يخون أحدهما الآخر . وظل الأمر على هذه الحال في أعقابهما من بعدها . ولما تولى السلطان تيراب عرش دارفور ، كان يلي كردفان من نسل مسبع السلطان هاشم المسبعاوى . فقام السلطان هاشم بشن الإغارات على أطراف سلطنة دارفور أملاً في غزوها . فبعث السلطان تيراب إلى قريبه السلطان هاشم ، رسالة جاء فيها : « بعد السلام : يا ابن عمي ، أرسلت سراياك على أطراف بلادى ، وأنت تعلم ما بيننا من المودة ، ولم يقع منا ما يخالف المودة ، مع أنك تعلم أن الدين أخذت أموالهم مسلمون ، والذين قتلوا موحدون ، وهذا الفعل لم يبيحه (كذا) أحد ، ولا يفعله عاقل ، فإذا وصلت كتابي هذا ، فانتبه ، وإلا سيلقى الباغى مصرعه والسلام » . غير أن السلطان هاشم لم يستجب لهذا النداء ، وواصل عدوانه على دارفور . فاستعد السلطان تيراب لملاقاته بجيش كثيف ، وعهد إلى ابنه إسحاق أن يقوم مقامه في حكم دارفور أثناء غيابه عنها . وسار تيراب بجيشه قاصداً كردفان^(٢) .

(١) لفظ المسبع هنا لقب لتوتسام أخى سليمان سولونج ، ومعناها في لغة الفور : الذى اتجه نحو الشرق .

(٢) التونسي : تشعيد الأذهان ، ص ٧٨ — ٨٦ .

أما السلطان هاشم فإنه لما علم بقدم تيراب بجيش لا قبل له بمواجهته فر بحاشيته وأسرتة إلى ملك سنار بعد أن فارقة أكثر رجاله (١) . وأخذ السلطان تيراب يطارد السلطان هاشم حتى وصل إلى قرب موضع أم درمان الحالية . وهناك التقى بجيش العبد اللاب من قبل ملك سنار . ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة العبد اللاب وفرارهم وظفر تيراب بنحاسهم المعروف بالمنصورة (٢) . وكان لاستيلاء الفور على نحاس العبد اللاب — حلفاء الفرنج بسنار — مغزى سياسى وحرى عظيم الأثر . واحتفظ سلاطين الفور بهذا النحاس من بعد ، وغدا تجليد هذا النحاس والاحتفال به سنوياً ، عيداً من أعياد الفور ، القومية (٣) .

أما السلطان تيراب ، فإنه عزم على الزحف إلى سنار ، لكنه لم يستطع عبور النيل ، ومن ثم ظل فى أم درمان مدة يدبر خلالها الوسائل لاجتياز النهر ، فلم يفلح ، فسئمت نفوس رجاله الانتظار ، وسألوه العودة إلى بلادهم ، فلم يستجب لندائهم ، وأقسم ألا يرجع إلى دارفور إلا برأس هاشم (٤) . وهنا أخذ بعض رجال دولته يدبرون المؤامرات للتخلص منه . واشترك فى هذه المؤامرات والد إحدى زوجاته ويدعى على ورد برقو . غير أن خبر هذه المؤامرة وصل إلى تيراب ، فتخلص من المتآمرين (٥) . وظل السلطان تيراب مدة فى أم درمان ، حتى مرض مرضاً شديداً ، فحمله رجاله وعادوا به إلى دارفور ، واسكنه مات فى بارة ، فحفظوه وحملوه إلى جبل مرة ودفن فى مقابر السلاطين بتره .

وعلى الرغم من أن السلطان تيراب كان رجلاً متنوراً ومثقفاً ، وأنه كان دائب السعى إلى استيراد الكتب من مصر وتونس ، إلا أنه أخذ عليه الميل إلى

(١) التونسى : نفس المصدر ص ٨٠ .

(٢) شقيرة : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٣) التونسى : نفس المصدر ١٥٦ — ١٥٩ .

(٤) شقير : نفس المصدر ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٥) التونسى : نفس المصدر ، ٨١ — ٨٣ .

النساء والخمر ، فضلاً عن حب الحروب ذات المجهود الضائع ، وعدم المبالاة بشعور قومه وكرامتهم . من ذلك ما يروى عن استهتار أولاده بشعور الناس . فقد كان الواحد منهم لا يسافر إلا راكباً على ظهور الرجال بدلاً من الدواب ، حتى ضاقت نفوس أهل دارفور منهم . ولما تقدم الناس بالشكاوى إلى تيراب ، لم يلتفت إليها وقال « إني لأعجب كيف أن رعيتي لا تصبر على أولادي ، فإذا أتوا أقل شيء لا يرضيهم شكوهم إلى . فامتنع الناس عن الشكوى وسلموا أمرهم إلى الله . وربما كان هذا الضيق هو الذي جعل أهل دارفور يترددون في إقامة ابنه اسحاق في السلطنة من بعده ، وذلك على الرغم من أنه أوصى بأن يؤول إلى اسحاق هذا ملك دارفور من بعده ولقبه بالخليفة . ولما توفي تيراب^(١) ، كان بدارفور وقتذاك ثلاثة من أبناء السلطان أحمد بكر . ورأى كل منهم أنه أحق من غيره ومن اسحاق بملك دارفور . واستغل هذه الحالة خصى يدعى محمد كرا ليتمكن لنفسه ، وكان من المقربين في البلاط السلطاني . وكانت أولى خطواته في هذا السبيل أنه ساعد على تفضيل أصغر أبناء السلطان أحمد بكر ، وهو عبد الرحمن الرشيد^(٢) . فلما نجحت هذه الخطوة ، زحف هذا الخصي الماهر نحو البلاد التي أعتمهم فيها اسحاق وهزمه تبادلية وتلدوا ، وطارده إلى شمال دارفور ، ثم لحقت بإسحاق الهزيمة الهائية غربى كيكابية . بذنا صفا الجواللسلطان الجديد^(٣) .

ويعتبر عصر عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٧ — ١٨٠٢ م) صفحة جديدة

في تاريخ دارفور . إذ شجع هذا السلطان الجلابة الأجانب (التجار) على دخول دارفور ، فازدهرت التجارة في عهده ، ونشأت عدة مدن تجارية تضم وكالات

(١) التونسي : نفس المصدر ص ٧٩ — ٨٠ .

عرف السلطان عبد الرحمن الرشيد باسم اليتيم كذلك .

(٢) أنظر التونسي : ص ٩٢ ، شقير : نفس المصدر ، ص ١٢١ .

(٣) التونسي : نفس المصدر ص ٨٦ — ٩٢ .

للتجار (١) كما نشطت تجارة القوافل مع مصر عن طريق درب الأربعين (٢) .
ثم أن عبد الرحمن الرشيد شجع الفقهاء وأغدق عليهم . وكان عمر التونسي —
أبو الرحالة العربي المشهور محمد بن عمر التونسي — ممن ظفروا بعطف السلطان
ورعايته ، فمنحه إقطاعاً كبيراً في منطقة أبي الجدول (٣) . وفي عهده زار الرحالة
الإنجليزي براون دارفور ، ثم زارها في عهد سلفه السلطان محمد فضل ، الرحالة
العربي محمد بن عمر التونسي ، كما سبق أن ذكرنا . وسجل هذان الرجلان
ملاحظتهما عن أحوال البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقتذاك . ولذا
كان عهد عبد الرحمن الرشيد أوضح عهود سلاطين دارفور .

جعل السلطان عبد الرحمن الرشيد فاشرة في تندلتي (٤) ، وظلت تندلتي
هذه — التي اشتهرت فيما بعد بإسم الفاشر — عاصمة السلطنة في عهده وعهد
خلفه لتكون قريبة من إقليم كردفان وهو الإقليم الذي أصبح مجالاً لتوسع
سلطنة دارفور وامتدادها شرقاً .

وأهم حادثة سياسية في عهد عبد الرحمن الرشيد ، حربه ضد السلطان هاشم
في كردفان ، وهو السلطان الذي كاد أن يمحو سلطنة دارفور بما أحرزه
من انتصارات على جيوشها ، لولا مهارة محمد كرا الذي جعله السلطان نائباً عنه
في حكم كردفان بعد انتصاره على السلطان هاشم (٥) .

ويبدو أن السلطان عبد الرحيم الرشيد كان شديد الحرص على استمرار سير القوافل
التجارية بين مصر ودارفور . غير أن بعض أمراء الممالك في مصر دأبوا على التعرض

(١) Browne, W.G.: Op. Cit., pp. 234-236.

(٢) التونسي : نفس المصدر ص ٣٨ — ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٤) التونسي : نفس المصدر ص ٦٠ — ١٠٧ .

(٥) التونسي : نفس المصدر ص ٢١ — ١٢٢ .

لهذه القوافل وتعطيل سيرها . ولذا فإن عبد الرحمن الرشيد بادر بتهنئة نابليون عقب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر وانتصاره على أمراء المماليك ، وذلك حرصاً من عبد الرحمن الرشيد على استمرار سير هذه القوافل ، ولا سيما بعد أن أعلن نابليون احترامه للدين الإسلامي . فرد عليه نابليون بكتاب يطمئنه فيه على استمرار سير القوافل ويطلب منه إرسال ألفي عبد من العبيد الأشداء^(١) .

وعلى الرغم من السلطان عبد الرحمن الرشيد كان موتورا من سلوك بعض أمراء المماليك ، فإنه رحب بمقدم أحد أولئك الأمراء واسمه زوانا كاشف ، وذلك حين هرب هذا المملوك من وجه الفرنسيين ، وطلب من السلطان حمايته . فمنحه السلطان إقطاعاً ، وسمح له ببناء قصر إلى جوار قصره . غير أن زوانا كاشف هذا فكر في إقامة نفسه سلطاناً على دارفور ، وجمع حوله الأنصار ، واستعد لحرب عبد الرحمن الرشيدى . لكن السلطان تمكن من القبض عليه وقتله قبل أن يشرع هذا المملوك في تنفيذ ما دبر من خيانة وعدر^(٢) .

وفي هذا العصر لمع نجم شخصية فوراوية ، لم تلبث أن احتلت مكاناً بارزاً في تاريخ دارفور على عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد وابنه السلطان محمد فضل من بعده . وإسم هذه الشخصية محمد كرا^(٣) .

التحق محمد كرا هذا — أول الأمر — بحرس السلطان تيراب ، ثم غدا مشرفاً على تربية أولاده في القصر السلطاني^(٤) . ويقال إنه خصى نفسه بيده ليدفع عن نفسه تهمة خيانة سيده^(٥) . فألحقه السلطان تيراب بخدمة أحد وزرائه ،

(١) شقير : نفس المصدر ، ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) التونسى : نفس المصدر ، ص ١١١ — ١٩٥ .

(٣) لفظ كرا معناه في اللغة الفواروية « الطويل » التونسى ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٧٤ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٥ .

فأظهر محمد كرا كفاية ممتازة ، وتمكن بمهارته أن يساعد السلطان عبد الرحمن الرشيد في الوصول إلى عرش دارفور بعد وفاة أخيه السلطان تيراب (١) . فعينه والياً على إقليم كردفان بعد الاستيلاء على هذا الإقليم من هاشم المسبعاوى . ولقد اتهم محمد كرا أثناء ولايته على كردفان بعدم الولاء للسلطان عبد الرحمن الرشيد ، والسعى لانتزاع السلطنة منه . فأرسل السلطان حملة إلى كردفان لإحضاره حياً أو ميتاً . ولما علم محمد كرا بما أمر به السلطان عبد الرحمن ، أحضر سلاسل ووضعها في يديه ورجليه وطلب إلى رجال الحملة أن يقودوه مقيداً إلى تندلتي الفاشر حيث يقيم السلطان . وبذا اقتنع السلطان عبد الرحمن بولاء محمد كرا له فرفعه وقربه ، وعينه في منصب الأب شيخ وهو أعظم المناصب قدراً في دارفور ، بعد منصب السلطان (٢) . وكان من عادة الخصيان في دارفور ، أن يتزوجوا من أرامل ذوات أولاد ، فيتبنى أولئك الخصيان هؤلاء الأولاد ، لينتفي عنهم مذلة الخصاء ولو ظاهراً . ولم يشذ الأب شيخ محمد كرا عن هذه القاعدة ، فتزوج من امرأة لها ابن اسمه شيلفوت (ومعناه في لغة الفور « خذ واذهب ») وكان شيلفوت هذا من الفرسان المعدودين ، فاعتمد عليه الأب شيخ محمد كرا اعتماداً كبيراً في توطيد سلطانه (٣) .

توفي السلطان عبد الرحمن الرشيد سنة ١٨٠٢ م تاركاً ابناً صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، وإسمه محمد فضل . وقد نجح الأب شيخ محمد كرا مرة ثانية في إقامة محمد فضل مقام السلطان المتوفى ، وذلك على الرغم من كثرة عدد المطالبين بعرش دارفور وقتذاك . وأعقب الأب شيخ هذا العمل بالقبض على المطالبين بعرش السلطنة وأنصارهم . ويقال إن عدد من قبض عليهم وقتلهم بلغ نحو ستين رجلاً . ولم يبق من أولئك المطالبين بعرش دارفور وأنصارهم سوى

(١) المصدر السابق ص ٨٧ — ٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٨ — ٢٣٩ .

عدد قليل ، رأى الأب شيخ أن يسجنهم في جبل مرة (١) . وبذا أصبح الأب شيخ محمد كرا الحاكم المطلق في دارفور ، وطغى نفوذه على نفوذ السلطان وظل الأب شيخ على هذه الحال حتى دلالات السلطان محمد فضل يفكر في التخلص من وصايته عليه . فاعتصم الأب شيخ في ناحية من نواحي تندلتي — الفاشر . ولم يلبث أن صار سجيناً في تلك الناحية ، ثم منع السلطان عنه الماء ، وشن عليه هجوماً انتهى بقتله وقتل ربيبة شيلفوت كذلك (٢) .

أما السلطان محمد فضل (١٨٠٢ — ١٨٣٩ م) فإنه استفتح عهده بتحرير قبيلة البيقو ، التي كانت أمه منها ، وحرّم أخذ الرقيق وبيعه من هذه القبيلة . بيد أن السلطان محمد فضل اتصف من ناحية أخرى بالمغالاة في معظم نواحي حياته وأخلاقه ، من حيث الانغماس في اللهو ، والتطرف في معاداة الناس . وازدادت هذه الصفات عمقاً في نفسه كلما تقدمت به الأيام ، حتى صار أواخر عهده رجلاً قاسياً محباً للانتقام . وعرف عنه التطرف في معاملة القبائل العربية بالقسوة ، وكاد أن يقضى على بني هلبة على العريقات والرزيقات كذلك (٣) .

وفي عهده استؤنفت الحرب بين دارفور وواداي ، وانتهت هذه الحرب بصلح اشترك محمد بن عمر التونسي في المفاوضات التي أدت إلى عقده .

أما في الناحية الشرقية من سلطنة دارفور ، وتقصّد بها إقليم كردفان ، فقد جرت فيها المقادير على عكس ما يشتهي السلطان محمد فضل . إذ ارتبط مصير هذه الولاية بمصير بقية أقاليم السودان الأخرى التي فتحها إسماعيل بن محمد على سنة ١٨٢٠ — ١٨٢١ م . فلم تكد حملة إسماعيل تغادر دنقلة في طريقها إلى بربر

(١) التونسي : المصدر نفسه ص ١٢٣ — ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ — ٦٨ .

(٣) Lampen, G.D.: Op. Cit., pp. 187-188.

(٣)

ثم إلى سنار عاصمة مملكة الفوننج ، حتى قام قسم من الحملة الرئيسية بقيادة محمد بك الدفتردار صهر محمد علي — لفتح كردفان . ولما علم المقدم مسلم ، وإلى كردفان من قبل السلطان محمد فضل بأمر هذه الحملة ، عقد العزم على مقاومتها ، وتمادى في ذلك على خيالة كردفان ومشاة دارفور . وتبادل الدفتردار والمقدم مسلم الرسائل . فالأول يطالب بالتسليم صلحاً ، على حين أن الثاني يصر على المقاومة مهما كلفه الأمر . وبذا لم يكن بد من الحرب والقتال . والتقى الفريقان بالقرب من باره ، حيث نشبت معركة بين قوتين غير متكافئتين من حيث نوع الأسلحة . فالقوات المصرية كانت تعتمد على الأسلحة النارية التي لم تكن معروفة في السودان حتى ذلك الحين . وبذا حلت بالمقدم مسلم الهزيمة (١) .

وحاول السلطان محمد فضل استرداد كردفان . فلم يقدر له النجاح . وبذا غدا همه محصوراً وقتذاك في الدفاع عن دارفور ، ضد أي قوة يحتمل مجيئها من ناحية الشرق ، ولا سيما بعد خروج أخيه الأمير أبي مدين عليه وهروبه إلى مصر (٢) .

حاول هذا الأمير إقناع ولاية الأمور في مصر بفتح دارفور وتعيينه سلطاناً عليها ، على أن يكون خاضعاً للحكومة المصرية ، ويؤدي إليها الخراج سنوياً . ولكن رؤى إرجاع الفتح مدة تستكمل خلال أعمال الاستطلاع والاستعداد . وإذا كانت حوادث الشرق أخرت التفكير في فتح دارفور وقتذاك ، فإن هذا لم يمنع محمد علي من استعمال وسائل التهديد والترغيب لضم دارفور إلى بقية أقاليم السودان التي تديرها مصر . فبعث برسالة في عام ١٨٣٠م إلى السلطان محمد فضل ، يدعوها فيها إلى التسليم . فأجابه السلطان برسالة فيها تصميم على الدفاع عن بلاده . مهما كان الثمن . وبذا نام مشروع فتح دارفور مؤقتاً حتى يحين الوقت المناسب (٣) .

(١) شقير : نفس المصدر ج ٣ ص ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣١ — ١٣٢ .

توفي السلطان محمد فضل عام ١٨٣٩ م ، فخلفه على عرش دارفور ابنه السلطان محمد حسين (١٨٣٩ — ١٨٧٤ م) وليس لدينا من سيرة هذا السلطان ما يستحق الاهتمام سوى شدة حرصه على المحافظة على استقلال بلاده . فيقال أنه أنشأ جيشاً قوياً سلحه — لأول مرة في تاريخ دارفور — بالأسلحة النارية ، بدلاً من السيوف والحرايب الدرق والسكاكين والنشاب (١) .

وتم حادثة مشهورة وقعت في عهد السلطان محمد حسين ، وهي الحادثة المعروفة بواقعة القرطاس . فيقال إن السلطان محمد حسين ساءه اعتداء عربان المعاليا على قافلة قادمة من مصر ، فاستغل السلطان ما عرف من عداوة قديم بين عربان المعاليا وعربان حمر ، وأوعز إلى شيخ قبيلة حمر بشن الحرب على المعاليا ، وأباح لهم دماؤهم وأموالهم . ونشبت بين القبيلتين معركة شديدة ، انتهت بهزيمة المعاليا ، وسميت هذه الواقعة بالقرطاس بسبب امتلاء الصحراء بقرطيس السكر والأنسجة التي كان عربان المعاليا نهبوها من تجار القافلة (٢) .

أما عن علاقة السلطان محمد حسين بمصر فإنها كانت على كل حال — طيبة ، ولو أنه كان دائم الشك في نوايا حكامها . واكتفى السلطان بتبادل الهدايا مع الخديو سعيد ثم اسماعيل .

أما خلفه السلطان ابراهيم (١٨٧٤ — ١٨٧٥ م) فإنه كان آخر سلاطين دارفور . ولم يتعد حكمه القصير سنة وسبعة أشهر ، انتهى بعدها عصر سلاطين دارفور . وغدت هذه البلاد جزءاً من الأقاليم السودانية الخاضعة لمصر . وقدر لرجل لم يعهد إليه بفتح دارفور القيام بهذا العمل . أما هذا الرجل فهو الزبير رحمت العباس . تفصيل ذلك أن الخديو اسماعيل كان قد أصدر قراراً بتعيين

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ .

الزبير حاكماً على إقليم بحر الغزال . ولكي يبرهن الزبير على ولائه للخديو ، بعد ما أشبع عنه عكس ذلك ، فإنه اعتزم السفر من بحر الغزال إلى الخرطوم لإعلان هذا الولاء ، والبحث مع حكامدار السودان — إسماعيل أيوب — فيما تتطلبه إدارة هذا الإقليم من وسائل تكفل توطيد سلطان الحكومة فيه . غير أن الزبير بلغه — قبل أن يغادر بحر الغزال إلى الخرطوم — أن عرب الرزيقات وغيرهم أغاروا على حدود مديريته وقطعوا الطريق بين بحر الغزال وبين دارفور . فرأى الزبير أن يقوم أولاً بتأديب أولئك العربان ، ثم يواصل سيره إلى الخرطوم عن طريق كردفان وأعد الزبير لهذا الغرض حملة تقدم بها شمالاً إلى مواطن الرزيقات .

ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار الزبير ودخوله شكاً . ثم هرب إثنان من مشايخ الرزيقات إلى دارفور ، وطلبوا من السلطان ابراهيم حمايتهما من الزبير وجنوده ، وعاهداه على الخضوع والطاعة بعد أن أعلن الرزيقات استقلالهم عن سلطنة دارفور من ٣٠ سنة مضت . ومن الطبيعي أن يرحب السلطان بحماية هذين الشيخين ، لما يترتب على حمايتهما من استرداد ما فقدته سلطنة دارفور من أقاليم (١) .

حاول الزبير إقناع السلطان ابراهيم بعدم الاهتمام بأمر هذين الشيخين للحفاظ على حسن العلاقات والمودة التي ربطت بين والده وبين الحكومة المصرية . وشرح له كيف أفسد الرزيقات الطريق الذي يربط بحر الغزال ببقية أقاليم السودان عن طريق دارفور . وختم الزبير رسالته إلى السلطان ابراهيم بأن هذين الشيخين فتنة ، ولا يليق بمثله أن يستمع إليهما . وظل الزبير يرسل السلطان عساه يقبل النصيح ، ولكن السلطان لم يوافق على تسليمهما . واستعد الطرفان للحرب ، وأدى انتصار الزبير على تجريده للسلطان قرب شكاً ، إلى تقدم قوات

(١) مكي شبكة : السودان في قرن ص ٨٦ — ٨٧ .

الزبير شمالا ، مكتسحا في طريقه كل أثر للمقاومة من جانب السلطان ، ولما رأى السلطان ابراهيم ، عدم جدوى هذه التجريدات التي بعث بها ضد الزبير ، قام بنفسه على رأس حملة أخيرة لمباغثة الزبير في بارة . بيد أن جيش السلطان لم يستطع اقتحام حصون بارة التي اعتمهم بها الزبير ، ومن ثم تراجع عنها ، فتعقبه الزبير وأدركه عند بلدة منواشى ، حيث دارت الدائرة على جيوش السلطان وانتهى الأمر بقلته ، وضياع ملكه سنة ١٨٧٥ (١) .

ظلت دافور تحت الإدارة المصرية في السودان من سنة ١٨٧٥م وهي السنة التي دخل فيها الزبير دارفور حتى سنة ١٨٨٣ وهي السنة التي امتد فيها نفوذ المهديّة إلى دارفور . ولم يخل عهد الحكم المصري في دافور من محاولات ، من جانب بعض الأمراء القوراويين لاسترداد ملكهم . كما لم يخل حكم المهديّة في دافور من حركات بعض الأمراء لتحقيق هذا الغرض كذلك . واستطاع أحد أولئك الأمراء ، وهو على دينار ، أن يظفر بحكم دارفور بعد استرداد السودان سنة ١٨٩٦ ، بشرط دفع الضرائب المقررة لحكومة السودان . وتلقب على دينار بلقب سلطان ، وظل على حكم دارفور حتى سنة ١٩١٦ . وفي هذه السنة جردت عليه حكومة السودان حملة انتهت بحكم سلالة سلاطين دارفور ، وأمسّت دارفور مديريةية من مديريات السودان الحديث .

(١) شقير : نفس المصدر ج ٣ ، ص ٦٨ — ٨٣ .

نظام الحكم في سلطنة دارفور

جرى حكم دارفور على أساس الحكم الملكي المطلق . فالسلطان هو الرئيس الأعلى للدولة ، وكنيته نافذة في رقاب الناس وأموالهم ، ولأراد لحكمه فيهم إلا عن طريق الشفاعة . ويصل السلطان إلى العرش عن طريق الوراثة . ويتم اختياره من بين أفراد البيت المالكي في دارفور بواسطة مجلس خاص يوم وفاة السلطان الراحل . ويظل السلطان الجديد مدة سبعة أيام لا يباشر فيها أى عمل رسمى ، حتى إذا جاء اليوم الثامن ، أقيم لتتصيه حفل ضخم يحضره الخاصة والعامة من أهل دارفور . أما عن سلطته المطلقة ، فربما كان مبعثها ما قر في نفوس الناس من أن السلطان شخصية مقدسة يجب طاعتها طاعة عمياء . يبدو ذلك واضحاً من وصف التونسي لمجلس السلطان . من ذلك أنه إذا جلس السلطان في ديوانه للحكم ، وقف خلفه الحرس الخاص المسمون كوركوا ، وجلس القضاة والفقهاء عن يمينه ويساره ، ووقف أمامه اثنان من الأمناء (الوزراء) ثم سبعة من المترجمين ليكونوا واسطة بين السلطان وأصحاب الدعاوى . ثم يدخل أصحاب الدعاوى جاثين على ركبهم ، وإذا حياهم السلطان مسحوا التراب بأيديهم . وإذا تكلم أحد في مجلسه لا يبدأ الكلام إلا بقوله « سلم على سيدنا » إن كان المتكلم عربياً إن كان فوراوياً قال :

«أبا كورى دونجاني» ومعناها كذلك وإذا طال مجلس السلطان روح عليه خدمه بمراوح من ريش النعام ، وإذا خرج للصيد ، ظللوه بشمسية وأربع مراوح . وإذا وقع السلطان من على ظهر جواده ، وجب على من معه كائناً من كانوا ، أن يلقوا بأنفسهم من على ظهور الخيل . ومن خالف ذلك عوقب بأشد أنواع العقاب (١) .

أما عن نرى السلطان وشاراته فيذكر التونسي : أن السلطان يلبس قميصين من القماش الأبيض أو الأسود الرفيع المجلوب من مصر ، ويضع على رأسه كشميراً ويتلثم بلثام من القماش الأبيض ، ويضع على رأسه من هذا اللثام طيات ، وعلى أنفه وفمه لثاماً منه وكذلك على جبينه ، بحيث لا يظهر منه سوى عيناه ، ويضع السلطان في جنبه سيقماً وحجاباً مذهبين . وإذا سار رفعت أمامه سجاده (١) .

وعرف مجلس السلطان أو البلاط السلطاني باسم فاشر . ولما كان هذا المجلس يعقد عادة في الخلاء أو في الميدان الواسع أمام قصر السلطان ، فقد أطلق على هذا الميدان اسم فاشر . ولم يلبث هذا الاسم أن أطلق على قصر السلطان أو العاصمة التي يستقر فيه السلطان (٢) . وقد دأب السلاطين على التنقل بفاشرهم من منطقة إلى أخرى حسبما تقضى سياسة حفظ الأمن في الداخل ، أو الدفاع عن حدود البلاد ، ضد أي معتد من الخارج ، حتى إذا كان عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد ، اتخذ فاشره في تندلتي (٣) . ولم تلبث تندلتي هذه أن خلع عليها اسم الفاشر ، وهي مدينة الفاشر الحالية .

لا نعرف عن قصور السلاطين القدامى شيئاً ، وأول وصف للقصر السلطاني هو الذي ذكره التونسي خاصة بقصر السلطان عبد الرحمن الرشيد وإبنه السلطان محمد فضل . ويبدو من الوصف أنه كان يقع على شاطئ خور تندلتي ، ومن حوله منازل أمراء البيت المالك والوزراء والفقهاء وكبار رجال الدولة . ولهذا القصر سور به بابان كبيران ، خصص أحدهما للرجال ويعرف باسم وزيديا ، وخصص ثانيهما للنساء ويعرف باسم وريبايا ويحتوى القصر من الداخل على ديوان للسلطان وخزائنه ، ومساكن نسائه وجواريه وحرسه الخاص (كوركوا)

(١) المصدر : السابق : ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) Barth, H.: Op. Cit., pp. 552-553.

(٤) التونسي : نفس المصدر ص ٦٠ — ١٢٧ — ١٢٩ .

وسواس خيله (الكوريات) ومحل النحاس . ويعرف كل من هذه المساكن باسم اللقدايه . وخصص لكل فئة من هذه الفئات أبواب خاصة للدخول والخروج بلغ عددها جميعاً ثمانية ، منها أربعة لأهل وريديا وأربعة لأهل وريبايا (١) .

وتتقضى التقاليد أن يحافظ كل ذى منصب على موضع سكنه بالنسبة لقصر السلطان خلفاً عن سلف . فكل من تولى منصباً ، عليه أن يبني بيته في محل صاحب المنصب الأول أو قريباً منه ، ويحافظ هؤلاء على هذا النظام أثناء السفر كذلك (٢) .

ويحق للسلطان أن يقتني من النساء عشرات ، أربعاً منهن شرعيات والباقيات محظيات .

عرف أفراد الأسرة المالكة من الذكور بالأمرء ، عليهم رئيس منهم يحمل لقب باسى ، وهو المسئول عن سلوك أفراد الأسرة المالكة ، وترتيب زواج الأميرات (٣) . أما الأميرات فعرفن بإسم ميارم ، مفردة ميرم ، كما عرفت الأميرة الأولى بإسم إياباسى أما العجائز منهن فكن يعرفن بالحبوبات أما السيدة الأولى بالقصر السلطاني فإنها كانت تحمل لقب إيا كورى ، أى الملكة . وقد تكون الإيا كورى إحدى زوجات السلطان أو أمه أو أخته الكبرى . وتتمتع الإيا كورى بنفوذ واسع كذلك (٤) .

ويساعد السلطان في تصريف الأمور في الحكومة المركزية مجلس الأمناء ، أى الوزراء ، وعددهم أربعة ، رئيسهم الأب شيخ ، وهو الوزير الأعظم ، أى

(١) المصدر السابق : ص ١٧٣ — ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٨٧ .

(٣) Arkell, A.J.: S.N.R., Vol. XXXII, Part 1, p. 44 n.

(٤) التونسى : نفس المصدر ص ٨٦ .

رئيس الوزراء . ويتكون من هؤلاء وقاضى القضاة مجلس السلطان أوفاشره .
ويبدو أنه كان لكل من أولئك الأمناء الأربعة عمل خاص فى الحكومة المركزية .
فأمين على شئون العسكر (كوركوا) وأمين على خزائن وأموال الدولة ، وأمين
على شئون الخيل والدواب السلطانية ، وأمين على الأسلحة . ويقوم مجلس
الأمناء — فضلاً عن مساعدة السلطان فى تصريف شئون الدولة — باختيار
السلطان الجديد عقب وفاة السلطان بعد استشارة وجوه القوم حسبما يقضى الرسم
فى وراثة عرش السلطنة ، وللأمين مجلس وحرس وأمناء على مصالحه الخاصة
مثل السلطان ، ما عدا شارات الملك . ولكل منهم إقطاع خاص وحرس
خاص كذلك (١) .

أما منصب الأب شيخ ، فهو منصب الوزير الأعظم ، أى رئيس الوزراء ،
والقائد العام للجيش السلطاني ، فضلاً عن أنه كان يتولى حكم الولاية الشرقية
من مقره فى عاصمة السلطنة . والمعروف أن الرسم جرى فى دارفور ألا يتولى
منصب الأب شيخ سوى عبد خصى ، ومع هذا تولاه محمد كرا على الرغم من أنه
حر . والمعروف أن محمد كرا خصى نفسه ، ويبدو أن هذا كان كافياً فى نظر
السلطان عبد الرحمن الرشيد لتوليته هذا المنصب الخطير . ثم أن الأب شيخ كان
المرجع الأعلى لتفسير القانون المعروف باسم « قانون دالى » .

ومن مناصب الإدارة المركزية ، منصب الكامنة ، ويطلق عليه الفور اسم
« أبا فورى » . ويذكر التونسى ، أنه كان لصاحب هذا المنصب إقطاع كبيرة
وعساكر كثيرة ويفعل مثلما يفعل السلطان . ويبدو أن صاحب هذا المنصب
من سلالة ملوك الفور القدماء . وقد احتفظ بهذا المنصب الشرعى فى نظر الفور
إلى جانب صاحب النفوذ الفعلى فى البلاد وهو السلطان ويضيف التونسى :
« إن من عادة الفور أن السلطان إذا قتل فى الحرب وسلم الكامنة ، حتى رجع

إلى محل الأمن ، يقتلونه ، لكي يخنقونه سراً ، ويولون غيره للسلطان المتولى .
وإذا مات السلطان على فراشه لا يقتل الكامنة (١) .

ومن مناصب الإدارة المركزية كذلك منصب « أرونولوج » وصاحبه يقوم بعمل الحاجب في القصر السلطاني ، وهو الحاكم العام للعاصمة والمستول عن حفظ الأمن فيها (٢) .

ومن المناصب الهامة كذلك منصب السوميندقلة ، وصاحب هذا المنصب مستول عن شئون الحريم السلطاني وتربية أبناء السلطان ، فضلاً عن أنه كاتم أسراره ، ومبعوثه الخاص . ولجماعة السوميندقلة رئيس يعرف بملك السوميندقلة وهو « منصب عظيم القدر ذو أبهة عظيمة وأقطاع » على قول التونسي (٣) .

وللسلطان حرس خاص من حاملي الخراب يعرفون بالكوركوا . ومن هذا الحرس توجد فرقة للموسيقى ، وفرقة المغنين وحاملي القيثارات والطبول ومن إليهم (٤) .

واختص ملك الموجيه بإدخال السرور على قلب السلطان وتسليته (٥)
ويشرف على خيل السلطان جماعة الكورايات (٦) .

وتم منصب هام هو منصب ور يبايه ، ويختص بالإشراف على جميع الخصيان الموكل إليهم خدمة حريم السلطان ، ولذا فإن هذا المنصب لا يتولاه إلا خصي وهو الذي يتولى منصب الأب شيخ بعد وفاته ، وهو فضلاً عن ذلك صاحب

(١) التونسي : نفس المصدر ص ١٦٢ .

(٢) MacMichael, H.A. : Op. Cit., p. 105.

(٣) التونسي : نفس المصدر ص ٧٤ — ٧٥ — ١٦٣ — ١٦٤ .

(٤) Voyage au Darfour, pp. 62, 161, 178.

(٥) التونسي : نفس المصدر ، ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٦) المصدر السابق : ص ٧٧ .

غضب السلطان ، ورئيس سجنه ، فإذا غضب السلطان على شخص ، عهد إلى وريثه يزرجه في هذا السجن (١) .

ويلى هذا المنصب منصب ملك العبيدية ، وهو الحاكم على جميع عبيد السلطان خارج القصر السلطاني وفي الأقاليم ، والمسئول عن مواشى السلطان وآلات السفر من خيم وقرب وغيرها (٢) . ولقد جرت عادة سلاطين دارفور على جلب عدد من الأرقاء للعمل في خدمة السلطنة . ومن هؤلاء يمكن أن نميز بين مجموعتين ، الأولى الأرقاء الذين جلبهم السلاطين ، ولا سيما السلطان تيراب ، أواخر القرن الثامن عشر من جبال نوبا بكردقان ، ومن هؤلاء العبيدية الذين يعيشون حول كبكايية ، وكتم وكذلك اسادنجا الذين جلبوا من إقليم برنو . أما المجموعة الثانية فهي التي كانت في أقصى الجنوب ، وكانت موزعة بين جنوب دارفور ، وشمال بحر الغزال ، وإقليم واداي ، وأطلق على هذه المجموعة زمن التونسي اسم فرتيت ، وهو اسم أطلقه العرب على القبائل الزنجية التي تعرضت لغزو العرب واسترقاقهم .

ويلى ملك العبيدية ، ملك القوارين ، أى المكاسين ، ويتبع صاحب هذا المنصب عدد من جباة الضرائب على التجارة الصادرة والواردة . ثم ملك الجبايين ويتبعه عدد من الجباة الذين يقومون على جباية الضرائب عيناً من غلال وحبوب ، وغيرها . ثم ملك الحدادين (٣) .

أما عن حكم الأقاليم ، فيبدو مما ذكره التونسي أن سلطنة دارفور حتى عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد ، وإبنة السلطان محمد فضل ، كانت تنقسم من الناحية الإدارية إلى أربع ولايات ، عرفت الواحدة منها باسم دارفور ، ويلى الحكم فيها

(١) المصدر السابق : ص ١٦٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

وال من قبل السلطان ، كان بمثابة ملك "Vice-roy" وهم « أباديما » على ولاية جنوب غرب دارفور ، والتكتياوى على الولاية الشمالية و« أباومانج » على ولاية جنوب شرق دارفور ، والأب شيخ على الولاية الشرقية بالإضافة إلى عمله الأصلي الذى سبقت الإشارة إليه .

ويذكر التونسي ، أنه أطلق على كل واحد من أولئك الولاة لقب خاص يدل على علاقته بالسلطان ، وهى ألقاب مشتقة من جسم السلطان . غير أن ناخيتيجال لا يوافق التونسي على ذلك ، ويرى أن مناصب الولاة الثلاثة أباديما ، والتكتياوى ، وأباوما ، كانت وراثية ، وأن كلا منهم ينتمى إلى بطن من بطون الفور . أما الولاية الشرقية التى كان يليها الأب شيخ ، فإنها لم تكن كذلك . لأن واليها خصى .

وتذكر المراجع أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر أو بداية القرن التاسع عشر تعدل هذا النظام ، وتحولت الولايات الأربع الكبرى فيما بعد إلى مقدمات مفردتها مقدمية ، على كل منها مقدم . يلى منصبه بطريق التعيين ، حتى لا يزداد نفوذ الولاة القدامى على حساب السلطان . كما ألغى منصب الأب شيخ بعد النزاع الذى نشب بين الأب شيخ محمد كرا ، والسلطان محمد فضل . وأبقى النظام الجديد على مناصب أباديما والتكتياوى وأباوما إلى جانب المقاديم ، وهو ما يعرف بالنظام المزدوج . واختلفت طبيعة نفوذ كل من الولاة القدامى قوة وضعفاً من مقدمية إلى أخرى . مثال ذلك أن أباوما (أو منجاوى) لم يتعد نفوذه منطقته صغيرة فى جنوب شرق جبل مرة ، على حين أن أباديما (ديماجاوى) ظل قوة لها خطرهما فى جنوب غرب دارفور . أما التكتياوى فإنه خضع خضوعاً تاماً لمقدم الشمال . وظل هذا النظام حتى نهاية حكم على دينار سنة ١٩١٦ م .

أما عن سلطة الوالى أو المقدم ، فإنها كانت مطلقة ، فله على الناس الخاضعين لسلطانه حق الحياة أو الموت ، ما عدا بعض الحالات الخاصة التى يرجع فيها

إلى السلطان . ويتمتع الوالى أو المقدم فى إقليمه بكل ما يتمتع به السلطان فى بلاطه من مظاهر ، مثال ذلك أن له حاجباً (أرولندولنج) وحرساً خاصاً (كوركوا) وجيشاً خاصاً كذلك .

وتنقسم كل ولاية أو مقدومية إلى اثنتا عشرة شرتايه ، على رأس كل منها حاكم يعرف بالشرتاي ، والجمع شراتى ، وتنقسم الشرتايايات إلى عدد من الدمليجات ، على رأس كل منها حاكم يعرف بالدمليج ، وهو شيخ القبيلة . ويبدو أن لفظ دملج ، لفظ عامى معرب معناه « أسورة تلبس فوق المرفق » ويطلق على الدمليج فى لغة الفور اسم دلمنج "Dilmong" ويتبع الدمليج عدد من مشايخ القرى يعرفون عادة بالملوك ، ويطلق الفور عليهم إسم سجالا Sagala مفردة سجال Sagal .

ويبدو أن لقب ملك من الألقاب الشائعة فى دارفور وقد استعاره الفور من العرب وأطلقوه دون تمييز على كل ذى سلطة أو نفوذ ، من شيخ القرية إلى سلطان دارفور نفسه . أما العربان سواء من البقارة أو من الأباله ، فكان على كل قبيلة منها رئيس ، ويعرف هؤلاء الرؤساء بالسلطين الصغار وذلك للتفريق بينهم وبين سلطان دارفور . ويتم تعيين هؤلاء السلطين الصغار بفرمان من السلطان ، ويتبعون واحداً من الولاة أو المقاديم السابق ذكرهم .

وجرت عادة حكام الأقاليم فى دارفور أن يرسلوا أولياء عهدهم إلى قصر السلطان ليظلوا رهائن عنده . وبذا يضمن السلطان ولاء آبائهم له من ناحية ، ويضمن من ناحية أخرى ولاء هؤلاء عندما يتقلدون حكم بلادهم . ولذا خصص السلطان لأولياء العهد وأبنائه وأبناء الأمراء منزلاً خاصاً ملحقاتاً بقصره ، وعهد إلى سوميندقلة بالإشراف على تربيتهم . وتعليمهم القراءة والكتابة . وقد يكون من بين هؤلاء دادات السلطان مستقبلاً .

والدادات هم الذين تربوا ونشأوا مع السلطان منذ نعومة أظفارهم .

أما عن نظام الملكية في سلطنة دارفور ، فالمراجع تشير دائماً إلى أن الأرض ومن عليها ملك للسلطان ، يقطعها لمن يشاء من رعاياه . وقد قسم سلاطين دارفور الأراضي الزراعية إلى حوا كبير (مفردها حاكورة ، أى إقطاع) وأقطعوها لأفراد البيت المالک وخاصتهم وكذلك الفقهاء وكبار رجال الدولة ، بمقتضى حجج مخرومة بأختامهم . فماش هؤلاء والقائمون على زراعتها ما تنتجها هذه الحوا كبير من محاصيل . كما قسم السلاطين قبائل البادية على الأمراء . وفيما يلي نص وثيقة إقطاع كتبها السلطان عبد الرحمن الرشيد للفقير عمر التونسي ، أبي الرحالة المشهور محمد بن عمر التونسي (١) : « من حضرة السلطان الأعظم والملاذ الأتم ، سلطان العرب والعجم ، ومالك رقاب الأمم ، سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين ، الواثق بعناية الملك المبدى المعين ، السلطان عبد الرحمن الرشيد . إلى حضرة الملوك والحكام والشراطي والدمالج وأولاد السلاطين ، والجبايين ، وأهل دولة السلطان من العرب والسودان أما بعد : فإن السلطان المذكور المبرر ، المؤيد المظفر ، المنصور تفضل وأمد بمعونته وأعطى العلامة السيد الشريف عمر التونسي ، قطعة من الأرض كائنة بأبي الجدول ، حاوية لثلاث حقل من حلة جولتو والدبة وأم بعوضة ، بمحدودها المعروفة ، واتخامها الموصوفة حسبما حدده الملك جوهر للملك خميس عرفان . لا يعارضه فيها معارض ولا ينازعه منازع من أهل المملوكة خصوصاً جبابي العيش . يتصرف فيها بأى نوع من وجوه التصرفات شاء ، هبة لوجه الله تعالى ، وطلباً للثواب في المثاب ، والحذر ثم الحذر من الخلاف ، والتعرض من الخصاص أو العام » .

ويذكر التونسي أن الحكام يسخرون رعاياهم في زراعة حوا كبيرهم ، دخناً وذرة وسمماً وفولاً وقطناً ، ثم يصدونها ويدرسونها لهم قهراً عليهم . ويقوم أولئك الحكام ببيع هذه المحاصيل وشراء ما يلزم لجيوشهم من خيل وأسلحة .

(١) التونسي : نفس المصدر ، ص ٦٤ — ٦٥ .

ولهؤلاء الحكام - فضلاً عما تنتجه حواكيرهم من محاصيل - مصادر أخرى للدخل منها، الهامل، أى الضال من رقيق وبقر وغنم وحمير، ومنها التقدام، وهى الهدية التى تقدمها إليه الرعية حين قدومه عليهم من عند السلطان حاملاً فرمان التولية. ومنها: الخطية، أو الحكم وهى الغرامة التى تحصل ممن تثبت إدانته فى قضية من القضايا المعروضة عليهم للفصل فيها.

أما الإيرادات التى ينفق منها السلطان على قصره وحاشيته وجيشه، فإن لها مصادر مختلفة منها عشر الحبوب التى يجبها ملك الجبايين ومساعدوه من الحضر. ويقال إن نصيب السلطان من هذه الحبوب يحفظ فى مطامير أو مخازن خاصة لحين الحاجة إليها. أما البدو فتجبى منهم زكاة الماشية. وللسلطان عشر قيمة المتاجر الصادرة أو الواردة، كما أن له نصيباً من الأسلحة التى تنتجها جماعة الحدادين، هذا فضلاً عما يدخل خزينة السلطان من هدايا أصحاب الحواكير، والتجار، والحكام على مختلف طبقاتهم. ذلك أن العرف جرى فى دارفور، ألا يدخل أحد من هؤلاء على السلطان إلا ومعه هدية تعرف «بالسلام» وتشتمل هذه الهدية فى الغالب على رقيق وإبل وخيل وبقر وغنم وتكاكى وعسل وسمن وسن ريش.

أما القضاء فى دارفور فكان يتمشى مع أحكام الشريعة الإسلامية ولا سيما فى المناطق التى غلب عليها الطابع العربى الإسلامى، ويتولى النظر فى القضايا فى هذه الأقاليم قضاة تابعون لقاضى القضاة فى العاصمة.

أما المناطق التى لم يتخذ سكانها عن عاداتهم وتقاليدهم القديمة، فكانت تطبق عليهم أحكام القانون المعروف بإسم «قانون دالى»^(١) ولفظ دالى هذا معناه فى لغة الفرر «لسان» وقد يكون المقصود به (لسان السلطان أو أوامره)

(١) راجع شقير، ج ٢، ص ١٣٧ - ١٣٨

وتذكر بعض الروايات أن هذا القانون ينسب إلى السلطان دالي وهو الذي جمعه وسجله في كتاب عرف بكتاب دالي . وكيفما كان الأمر فإن هذا القانون استمد أحكامه من عادت أهل البلاد وتقاليدهم . ويقوم على تنفيذ أحكامه وتطبيقها الولاة والشراة وأصحاب الحواكير . ومن أحكام هذا القانون على سبيل المثال :

(١) أن يكون الملك وراثياً للابن الأكبر ، إلا إذا كان غير لائق للأحكام فيولون غيره ممن يتمتع باللياقة من أفراد الأسرة المالكة .

(٢) قصاص السارق غرامة ست بقرات أو ما هو بثمنها ، فإذا لم يقدمها حبس إلى أن يفتديه أهله .

(٣) قصاص القاتل ، القتل ، إذا كان القتل عمداً ، وإلا فدفن الدية : مائة بقرة إذا كان من البقارة ، أو مائة إبل إذا كان من الأباله .

(٤) أما الزاني ، فإن زنى بمحضنة فغرامته ٦ بقرات ، أو بايثم فبقرة واحدة ، أو بيكر فكل منهما يغرم بقرة .

(٥) وقصاص الضارب . فإن كان في الضرب جرح فغرامة ثوب من الدمور ، وإن لم يكن جرح ، فنصف ثوب . وهكذا جزاء الشاتم .

ويلاحظ أن كل هذه الغرامات يتقاضاها الحكام ، ويتقاسمونها مع السلطان ، ولذلك ما عدا دية القتل ، فإنهم يشاركون فيها أهل القتل .

مصطفى محمد صبر

شفيق غربال مؤرخاً

« محاضرة أقيمت في الجمعية المصرية
للدراستات التاريخية في ٣/١٢/١٩٦٢ »

يمثل محمد شفيق غربال طرازاً قائماً بذاته في قائمة من تصدوا للكتابة التاريخية في مصر، وربما في العالم العربي بأسره. وهو ينتمي إلى جيل بذاته، له سماته الخاصة ونظراته الخاصة إلى العلم والمعرفة؛ وهو الجيل العملاق الذي أسهم في إعادة تشكيل الحياة الفكرية في مصر حين نقل إليها طرائق البحث العلمي التي عرفها العالم الغربي المتطور، وتمثلها وهضمها ثم عاد يتبجحها في تناول التراث العربي الإسلامي. وبعد - فغربال تلميذ أرنولد توينبي الذي بدأ مؤرخاً بالمعنى الحرفي للكلمة لينتهي مؤرخاً للحضارة ومفلسفاً لها. وأهميته في حركة التفكير التاريخي في مصر أنه يمثل نقلة لها وزنها، وأنه ترك انطباعات حية في تفكير ونهج من تتلمذوا عليه... وهي انطباعات اختلفت قوة وضعفاً باختلاف المدارك والآفاق. فغربال في حد ذاته يمثل ثورة في المنهج التاريخي في المشرق العربي؛ فهو يتميز - وفقاً لما قاله عنه الدكتور منصور فهمي - بذهن ذكي غني بثقافة المعلومات، وقدرة على التركيز والتلخيص وعلى التركيب والتحليل... إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية ساطعة ودقة في النقد. وليس ذلك بغريب على من يرى أن المؤرخ المبدع لا بد أن « يجمع إلى الدراية التامة بأصول النقد براعة الفنان المتمكن من الحذف والإثبات، وأن يكون ناقدًا فنانًا يقهر المادة الغفل ليستخرج منها التاريخ الحي (١) ». وهو بعيد كل البعد عن المنهج الكلاسيكي الذي درج عليه كتاب السيرة والتواريخ والمغازي والخطط والآثار والتراجم في العالم الإسلامي: منذ دراساته بتفهمه لطبيعة علمه ومدارسه في المشرق

(١) في تقديمه للجزء الأول من ترجمة كتاب هربرت فشر عن « تاريخ أوروبا ».

والعرب ، وطعمه بشيء من التذوق الأدبي — الفنى ، مع توسيع لقاعدة المعرفة التاريخية بالأدب والفلسفة وعلوم النفس والاجتماع . وهنا يصدق عليه ما دعا إليه بعض المفكرين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر من المهتمين بتاريخ الحضارة Kulturgeschichte من حيث جعل التاريخ محوراً للدراسات الإنسانية قاطبة . ولقد عاش غربال ومات مؤرخاً . حقيقة لقد تعرض لما تعرض له أمثاله من مناصب قيادية تسعى إليه ولا يسعى إليها . ولكنه كان يأخذ ذلك بشيء من الرفق ، ولم ينس أو يتناس جذوة المؤرخ الكامنة فيه . كما لم يشغله شيء عن قراءاته الشاسعة فى كل مجال ، وهى القراءات التى مكنته من القدرة على الإفادة وأضفت عليه وضعه البارز ليس فقط فى حقل الدراسات التاريخية وحدها ، بل فى حقل المعرفة بمناها الواسع . وحتى فى حقل تخصصه ، أو احترافه — إن شئنا الدقة — أى التاريخ ، نجد غربال لا ينتمى لمصر أو تخصص معين ، وإن لمع فى مجالات التاريخ الحديث .

والآن نحاول أن نضع غربال فى موضعه الحق فى تاريخ الدراسات التاريخية فى مصر . وهذا يستلزم منا مدخلاً إلى طبيعة التاريخ والمؤرخ وإلى طبيعة الفترة التاريخية التى عاش فيها غربال وأنتج .

كتب وليم ميتلاند (William Maitland) الذى كان أستاذاً للقوانين الإنجليزية : « إن وحدة التاريخ فى مجموعته تدفع كل من يتصدى لكتابة ناحية من نواحيه إلى الشعور بأن جملته الأولى إنما تقطع خيوطاً غير منتظمة » . وضرب لذلك مثلاً بأن جذور القانون الإنگليزى تكمن فى بلاد الإغريق وأن أصول القانون الرومانى تكمن فى بابل . ثم حين قرر وجوب تقطيع خيوط العنكبوت أضاف قائلاً : « وحين تقطع [هذه الخيوط] ، علينا أن نلاحظ مصدر ومصير عدد من الخيوط المنفصلة المعقدة المتداخلة ، وهى الخيوط التى كانت توفر أنموذجاً كبيراً جداً بالنسبة إلى عين أى إنسان » .

وليس أصدق من ذلك ولا أكثر حيوية في تجسيم طبيعة إحدى المشكلات الرئيسية التي تواجه المؤرخ . فهو — شأنه شأن عالم الطبيعة — تواجهه كمية ضخمة من الحقائق يطلق عليها في التاريخ اسم الوقائع . وسواء أكانت هذه الوقائع تتكشف من ثنايا عدد لا حصر له من الوثائق ، أو ما إذا كانت بعيدة عن متناول التحقيق العلمي وسط ضباب العصور البدائية أو في ثنايا غيوم التأمير الحديث في المجالين السياسي والاقتصادي ، فإننا — على كل حال — نجد نشاط المؤرخ وقد حدث منه غزارة مادته . يضاف إلى ذلك أن المؤرخ يختلف عن عالم الطبيعة الذي بإمكانه أن يستعيد تجربته ؛ فمن المستحيل استعادة الحادثة التاريخية . فنحن — مثلاً — لا نستطيع أن نستدعي الملك أحس ليذكر لنا بنفسه كيف طرد الهكسوس . ولا نستطيع استعادة معركة ووترلو لكي تبين أسباب انتصار ولنجتون وانهرام نابليون . ونتائج اكتشاف كولبس لأريكا بالنسبة إلى الحياة في أوروبا لا بد أنها كانت بعيدة عن مجال التحليل حتى في الوقت الذي كانت فيه أنباء هذا الاكتشاف أمراً جديداً . ويمكن القول بأن المؤرخ الحديث الذي يجمع ما يستطيع جمعه من أنباء الماضي قد يعرف عن هذه الأنباء أكثر مما كان يعرفه معاصروها .

فهمة المؤرخ إذن ليست بالمهمة الهينة . والذي يفرق مؤرخاً عن آخر أن أحدهما تتشعب به الدروب جريباً وراء السرد والتفاصيل التي تسيطر على المادة وبين آخر يجمع ما يمكنه جمعه من المادة ، ثم يعيد صياغتها وفقاً لخطة مرنة تربط أطراف الموضوع بعضها ببعض ، فيخرج في نهاية الأمر بوحدة عضوية مترابطة متفاعلة لا يبدها شيء من التكرار أو التفكك . والعبرة هنا بالكيف لا بالكم . وفرق بين المؤرخ الحقيقي وبين راوي الأحداث أو جامع المادة وناشرها .

ونحن إنما نشكل جزءاً من الحضارة العربية التي نستلمهم تراثها ؛ كما أننا — من ناحية أخرى — ننتمى إلى المجتمع العالمي المتطور . والتاريخ عند العرب —

مع بعض الاستثناءات الطفيفة — إنما هو عملية من السرد تمنع في التفاصيل ولا تدقق أو تحقق ، بل تعتمد على الرواية والنقل والخيال في كثير من الأحيان . والتاريخ حتى وقت قريب — وحتى الوقت الحاضر — إنما هو من ملحقات الأدب القائم على الخيال . ولقد أسرف الكثيرون في هذه الناحية ، بل امتد كثير من الأدباء إلى التاريخ وطبقوا عليه مناهجهم — إن كانت لهم مناهج — واختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يميزون : أين ينتهي الأدب وأين يبدأ التاريخ ! وامتد فريق آخر من المهتمين بالسياسة إلى الدراسات التاريخية التي جعلوها في كثير من الأحيان مطية لدوافع محددة . لست في هذا المقام من المتزمتين الداعين إلى الموضوعية المطلقة (١) ؛ إذ أنها خرافة طالما أن من يكتب في الدراسات النظرية كائن حتى لا بد له ميوله واتجاهاته وانفعالاته . إلا أن المؤرخ المستقل يضع كل ذلك في إطار الحد الأدنى إلا أن تدفعه الوقائع العارية إلى انفعال معين رضى أم لم يرض . وحتى الآن لم يتحقق للتاريخ والدراسات التاريخية الاستقلال الذاتي عن دنيا أولية سديمية تكثفها أهواء ومصالح لا بد لها من عاصم .

ومن الطبيعي أن تحاول الحركات القومية أن تسند اندفاعاتها بأن تستخرج من اللاشعور القومي فترات عني عليها الزمن كانت فيها الأمة المعنية تتبوأ مكانة سامقة سواء في الحيز السياسي أو الفكري أو الحضارى بوجه عام . والتاريخ هو ذاكرة الشعوب الحية ، وهو قنطرة العبور من جيل إلى جيل جيئة وذهاباً . ولكن ثمة خيط رفيع على دارسى التاريخ أن يتبينوه : ففرق كبير بين الأجداد الحقيقية التي لا يخلو منها تاريخ أى شعب حتى ، وبين الأجداد المختلقة . فرق بين إزاحة الغبار عن الفترات الزاهية في تاريخ الأمة وبين التزييف والتجديف .

(١) انظر مناقشة هذه القضية مناقشة بارعة في :

Howard Fast, Literature and Reality

وملخص ماذهب إليه المؤلف أن « الحقيقة » لا تكمن في فراغ ؛ بل لا بد لها أن « تنحاز » .

وحيث بدأت نهضتنا الفكرية لم يكن ثمة تخصص بالمعنى الضيق ، بل كان هنالك رواد يتميزون بسعة الأفق والثقافة ؛ وعلى رأس هؤلاء رجال من طراز أحمد لطفى السيد وطه حسين وشفيق غربال . وقد كون هؤلاء ما يمكن أن نسميه « بالأرستقراطية الفكرية » . فشعورهم بذواتهم وبجدة نوع ثقافتهم ومناهجهم وبخطر دورهم القيادى فى المجتمع المصرى ، وقلة أعدادهم — كل هذا مما خلع عليهم أهمية خاصة وسلط عليهم الأضواء فى مجالات الفكر والتوجيه . على أن نشاطهم قد اقتصر على دائرة ضيقة : فى قاعات التدريس — مثلاً — وفى حلقات الدراسة . وهذا هو دورهم الطبيعى . ولكن بعضهم — كأحمد لطفى السيد ، وطه حسين ومحمد حسين هيكل — اشتغلوا بالصحافة وتقادفتهم عواصف السياسة بجلوها ومرها ، فتعرضوا لخبرات لا يرضى عنها كل مفكر ؛ ولم يجدوا التجاوب اللازم من رأى العام الذى كان لا يزال مشدوداً إلى قيم وتصورات وزعامات تنزل إليه دون أن تعلية ، وتدغدغ أوهامه ولا تصارحه ، وتستثير خياله بأحلام رومانسية غير واقعية . لهذا كسفت أضواء هؤلاء الرواد أنماط أخرى من الرجال أكثر شهرة وأشد جلبة : الساسة ومن فى ركبهم من الصحفيين والمرترقة الذين غلبتهم الأطماع والمكاسب الوقتية فلم يربوا فى الشعب قياً جديدة وسلطوا سهامهم على من ليس على شاكلتهم . ولم تكن تقلبات السياسة المصرية فى فترة ما بين الثورتين مما يغرى مفكراً جاداً بالانزلاق إلى مهاوئها : فطابعها العام ديماجوجى بأنفه المفكر الحر ، ووسائلها تحارب المنطق العلمى الجاد والنقد البناء . هذا هو السرفىما أطلق عليه اسم « البرج العاجى » .

وهكذا انزل غربال وأمثاله ، أو فرضت عليهم العزلة فى جو عام لا يحكمه منطق معقول . جماهير حظها من الثقافة العامة قليل ، تغريها عبادة البطولة بالسير منقاداً وراء بعض الزعامات التى ليست فى مجموعها زعامات مثالية تحس بالمسئولية القومية . لهذا لا ندهش إذا ما وجدنا عدداً من مفكرينا الجادين ، رغم إيمانهم النظرى بالحرية وبالديمقراطية ، لا يهضمون الاتجاهات الجماهيرية فى ذلك الوقت

كما كانت عليه . لهذا اتجه الإيمان بالفرد المبرز إلى الحلول محل الإيمان بالجماعة والأمة والبشرية عامة . وقد قوى هذه النكسة شعور كثير من المفكرين بأن الزيادة في عدد الملمين بالقراءة ورخص المطبوعات بدلا من أن تؤدي إلى تنوير الجماهير شجعت على ظهور الكتب التي انعدم فيها التركيز واعوج فيها الفكر وخلت من الفن . ولم يشأ معظم الكتاب البارعين أن ينحنوا لتلبية مطالب التجارة الفكرية ، وتمسكوا بمستويات صعبة المنال في عالم الفن والفكر . وبلغ ازدياد الذوق الشعبي غايته في مذهب الفن للفن الذي نادى به توفيق الحكيم ومدرسة أبوللو . وكره الكثيرون الحاضر ورؤية الجماهير الجاهلة يخدمها الساسة والأثرياء ، فولوا وجههم شطر الماضي يحتمون به وينتعضون .

وغربال في أعماقه مفكر فنان . ومن سمات المفكر الأصيل أنه مرآة لعصره الذي هو استمرار لتراث الماضي . حقيقة إنه في معظم حياته الفكرية يركز على القلة الموجهة والزعامات الفردية ، وبخاصة في المجال الفكري (يتضح ذلك من اختياره لكتاب المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر ، لكارل بيكر لكي يترجمه — وهو الكتاب الوحيد — على ما أعلم — الذي ترجمه غربال ، وإن يكن قد أشرف على مراجعة الكثير من الترجمات وتقديم عدد كبير من الكتاب والمؤرخين والمترجمين . كما يتضح من بعض الشخصيات التي عرض لها في أحاديثه الإذاعية كسقراط والحسن البصري وأبي العلاء المعري والغزالي وابن تيمية وتولستوى وجمال الدين الأفغاني — وقد خلع على هؤلاء صفة أنهم غيروا وجه التاريخ ، ومن بعض موضوعات محاضراته في هذه الجمعية : ألكسيس دي توكفيل وتولستوى وأرنولد توينبي) . إلا أن من سمات الفنان الأصيل حبه للشعب : الشعب لا باعتباره مجموعة من الأفراد لها ما يسميه بعض علماء الاجتماع بالعقلية الجماعية ، بل باعتباره وحدة ميتافيزيقية تعكس الصورة التي يتخيلها المفكر الفنان لمفهوم الشعب والجماهير . وجيل غربال رغم كونه قد شهد اندفاع الجماهير المصرية في إبان ثورة ١٩١٩ ، تلك الاندفاع العملاقة التي ألهمت توفيق الحكيم

في « عودة الروح » ، كما ألهمت سيد درويش في أنشوداته الشعبية ، وكانت من وراء معظم إنتاج المثال الكبير محمود مختار ، إلا أنه شهد كذلك نكسة الثورة ، وفشل الجماهير الشعبية — لأسباب خارجة عن طاقاتها — في متابعة أهدافها الثورية في المجالين القومي والاجتماعي .

وغربال لم يكن من ساكني الأبراج العاجية . ولكنه كان يرى أن نظرة المؤرخ تختلف عن نظرة الرجل الذي يعيش في غمرة الأحداث وحى الكفاح . وهو يحب الناس ، وإن لم يكن يرتاح إلى كل الناس . وهو يحب المعرفة ، ولكنه — كما سبق أن قلنا — يعشق التاريخ الذي كان ينظر إليه نظرة الناقد ، وربما الناقد الذي يرى الأحداث من بعيد . ولم يشأ غربال أن يتخصص بالمعنى الضيق ، وإنما كان موسوعى التكوين الثقافي ؛ وربما كانت سعة ثقافته مسئولة عن القلة النسبية في إنتاجه . والتاريخ — آخر الأمر — يقوم على منهج صارم لا يفتقر الشطط والفروض والخيال ، ومن ثم كان الجهد الكبير الذي يستلزمه التأليف في التاريخ . ولما كان غربال رائداً في حقل تأسيس الدراسات التاريخية بشكلها الحديث ، ولما كان لا يبخل بوقته على طلبته ومريديه ، فإنه أسهم في أكثر من مجال إسهاماً يمليه عليه وضعه في الحياة الفكرية المصرية ، فأشرف على مراجعة ونشر مؤلفات طلبته وتقديمها ، وأعطى الكثير من وقته لهذه الجمعية منذ أن ترأسها في عام ١٩٥٠ ، ولذا ينبغي ألا نسرف في مطالبته بالكثير . ومع ذلك فإنه أشار إلى الخطوط العريضة التي على المؤرخين الجدد أن يتهجوها . ولم يكن جامداً ، كما سنراه خلال الترتيب الزمني لمؤلفاته الرائدة : فهو يبدأ عثمانياً من حيث الاهتمام ، ثم يرتاد مصر الحديثة في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، مؤرخاً لمحمد علي الذي لا شك كان له أثره في تحويل مجرى تاريخ مصر الحديث ؛ ثم يكتب عن « تونس الخضراء » — موطن أجداده الأول — في سلسلة دائرة المعارف الإسلامية . توجيهه الأصلي ، وقاعدة تفكيره الأساسية : العالم الإسلامي في ماضيه وحاضره ؛ ومصر جزء منه .

ورويداً رويداً نجده يخص مصر باهتمامه الكبير ، وبخاصة حين تعود مصر منتفضة في أعقاب الحرب العظمى الثانية ، فترغم انجلترا على التفكير في الجلاء . ربما يكون هذا هو ما ألمه بتتبع قصة المفاوضات المصرية البريطانية ، ولقد أسف تلامذته ومريدوه أنه لم يكتب من هذا المشروع إلا الجزء الأول حتى معاهدة ١٩٣٦ . ثم تنتفض مصر انتفاضة ثورية في عام ١٩٥٢ ، هي لاشك التي ألمته بسلسلة محاضراته الرائعة في الإذاعة الأوروبية التي ترجمت ونشرت في عام ١٩٥٧ بعنوان « تكوين مصر » — وهي سلسلة المحاضرات التي تعد خلاصة اتجاهه الفكري ، والتي يبدو فيها بحق تلميذاً لأرنولد توينبي . وبعد أن سيطرت مصر على مقدراتها واسترجعت إرادتها ، انطلقت إلى آفاق العروبة ، وخلصت عليها رسالة تبني الاتجاهات العربية التحررية . وكان غربال مديراً لمعهد الدراسات العربية العالية حيث ألقى محاضراته عن العالم العربي ، وهي المحاضرات التي طبع بعضها تحت عنوان : « منهاج مفصل لدراسة العوامل الأساسية في بناء الأمة العربية كما هي عليه اليوم » .

أرأيت كيف كان غربال مرآة لعصره باعتباره فنانياً ؟ العالم الإسلامي بمعناه الواسع في قديمه وحديثه هو مجال اهتمامه ، وبخاصة آثار تفاعل هذا العالم الإسلامي بالحضارة الغربية . خلف ذلك شيئاً من التوتر ، لم يكن غربال يجده مجالاً للدهشة أو حافزاً للجزع ؛ فهو في ذاته ليس شيئاً فريداً « يماثله التوتر الذي ينبجم عن التقاء جيل الآباء بجيل الأبناء في الأمة الواحدة ، أو الذي يكون بين الخاصة والعامة في أمة ما ، أو بين الأديب ومجتمعه في أي مكان . وأظن أنه يصعب بعض الشيء أن نعثر على العقلية العربية والعقلية الغربية مختلفتين إحداهما عن الأخرى بتلك الدرجة من التباين التي يثيرها التعبير . وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نميز بين رجل أميل للمحافظة وآخر أميل للتجديد . وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نتحدث عن تأثير القديم وتأثير الجديد بدلاً من أن نتكلم عن الشرق

والغرب (١) . فهو لا يعرف مشكلة ما في مصر إلا ولها نظير في أوروبا ؛
والمشكلات هنا وهناك تختلف بطبيعة الحال في مظاهرها وفي حداثتها أو تعقيدها ...
« ولو أن الرجل منا قدر عليه أن يواجه في نفسه صباح مساء الصراع بين الشرق
والغرب وفرض عليه أن يبحث عن صيغة يوفق بها بين عقليتين لكان
بذلك شقيماً » .

هذا هو جوهر تفكير غربال التاريخي : الصدام بين الغرب والشرق ؛ تحدى
الغرب واستجابة الشرق الإسلامي . وهذا هو الذي يميزه عن أخذوا التاريخ
بظواهره وأحداثه دون نفاذ إلى أعماقه . وغربال — كما سبق أن قلنا — أديب
فنان . وأرقى الخطوات في مسير الثقافة الإنسانية هي شمولها للإنسانية جميعها .
وفي سبيل هذا الهدف حطم التأليف التاريخي قيوده التقليدية المعروفة ، من شئون
عامة وحروب ودين ليسجل كل المظاهر العقلية الإنسانية . وقد ساعد الأدب على
هذا التقدم : فالأدب هو المعبر عن رغبات الإنسان وأمانيه ، كما ساعد عليه أيضاً
العلم وهو التعبير الجسدي الصارم عن نزعته إلى المعرفة . وقد تخطى عون الآداب
في هذا السبيل حدود الشكل والأسلوب التي تصفها الكتب التي تعالج موضوع
التاريخ كأدب ، فزودت المؤرخين ببصيرة نافذة شديدة المرونة والعمق في أمور
العقل الإنساني . إلا أنه إذا تغلب الأدب على المؤرخ لإهماله العلم ، أو إذا تغلب
عليه العلم لإهماله الأدب ، جاءت الصورة التي يرسمها للإنسانية ملتوية مشوهة .
فتدوين التاريخ يقترب من الكمال بقدر ما بين المعرفة والفن من اتساق في العمل .
انظر إليه — مثلاً — يقدم لكتابه عن تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ،
تجد مصداقاً لهذه النظرة العامة . فهو يقول : « في هذه الفصول محاولة لتركيب
صورة واضحة من الحوادث والوقائع والسياسات والخطط والبواعث والأغراض

(١) من كلمته في المجمع اللغوي في ٤ نوفمبر ١٩٥٧ عن محمد حسين هيكل بمناسبة شغله
المكان الذي خلا في المجمع بوفاته هيكل .

والأمانى والشهوات التي توالى على مصر والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا إلى هذه الأيام . وقد تتابعت هذه الأشياء المختلفة علينا نحن المصريين منفصلة أو متصلة وحكمنا عليها بما شئنا أو بما أريد لنا . واليوم وقد بلغنا نقطة تحول فاصلة ، ووصلنا إلى مرحلة حاسمة في المصير ، وجدت من الخير أن نقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المنظم وهذا التفكير المنظم لا بد أن يقوم على أساس . وهذا الأساس هو ما سميت به الصورة المركبة من المتفرقات التي أشرنا إليها . ولهذا العمل خطورته ومسئوليته وصعابه . وله أيضاً متعته . واسكنه جد لازم . وهو واجب وطنى ينبغى على كل مواطن أن يحاول أداءه لنفسه بالقدر الذى يستطيع » . ولقد كتب هذا التقديم لكتابه فى مايو ١٩٥٢ حين كانت مصر تمر بمرحلة الغليان السابق على الثورة . ثم يستكمل هذا التقديم بتبيان نظريته إلى قيمة الشخصيات الفردية فيقول : « وقصة الرجال فى تاريخ المفاوضات المصرية تكسب الموضوع متعة أى متعة : فلكل منهم شخصيته وصفاته ، وفى كل واحد منهم عناصر القوة وعناصر الضعف لا يشارك غيره فيها . ويكفى أن نذكر أسماء بعض من أصبحوا منهم فى ذمة التاريخ لنستدل على مافى هذه الناحية من الموضوع من ثروة المترجم : الملك فؤاد ، سعد زغلول ، حسين رشدى ، عدلى يكن ، عبد الخالق ثروت ، اسماعيل صدقى ، محمد محمود ، أحمد ماهر ، محمود فهمى النقراشى ، عبد العزيز فهمى ، وغيرهم . هؤلاء الرجال كانوا من طراز لم تعرفه مصر قبل حقبة المفاوضات . فقد تجمع فى مصر فى ثلاثين عاماً من ذخيرة العمل السياسى ما تجمع لدى غيرها من الأمم ما يماثله فى قرن أو قرون من الزمان . ويحمل التجمع الغزير فى الزمن القصير ما يحمل النبات ينمو فى ظروف مصطنعة من العلامات والخصائص ، ولم يكن لمصر حيلة فيما حصل ، وهاهى ذى قد كسبت الاهتمام بالمسائل العامة فعليها أن تكسب تنظيم الاشتغال بالسياسة والعناية بالتربية الوطنية » .

بعد هذه الإمامة بطريقة تفكير غربال ومنهجه فى الدراسات التاريخية ، أعود فأحاول أن أطبق هذه الملاحظات على أهم مؤلفاته سلسلة زمنياً ، وبذلك

أتجنب — بقدر الإمكان — إغراء التعميمات التي لا شك لها خطورتها من حيث تقييم الجهد التاريخي .

سأبدأ برسالته التي حصل بها على درجة الماجستير من جامعة لندن ، وهي الرسالة التي أشرف عليه في أثناء تحضير مرحلة منها الأستاذ أرنولد توينبي ثم نشرت في عام ١٩٢٨ بعنوان :

“The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali”

اختار موضوعاً لدراسته إذن فترة هامة من تاريخ مصر : وهي الفترة الواقعة ما بين مجيء الحملة الفرنسية في عام ١٧٩٨ وعقد صلح بوخارست بين روسيا وتركيا في عام ١٨١٢ . وأهم ما في هذه الرسالة أنها تربط أحداث مصر بالموقف الدولي : بحروب نابليون ودبلوماسيته وبالسياسات الأوروبية العامة ؛ كما تربطها بالمسألة الشرقية وتاريخ تركيا . والفترة التي اختارها غربال موضوعاً لدراسته فترة حاسمة في تاريخ كل من مصر وتركيا : إنها بداية المرحلة الإيجابية من المشروعات التوسعية الأوروبية في العالم العربي ، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ المسألة الشرقية بكل ما في طياتها من محاولات للإصلاح في تركيا ، ومن حركات قومية من نوع خاص في البلقان التركي ، وما بين هذه الحركات القومية والدول الأوروبية الكبرى — وبخاصة روسيا — من صلات ، ومشكلة البوغازين وموقف إنجلترا منهما ومن البحرية الروسية في البحر الأسود . لهذا كان العنوان الجانبي للبحث : « دراسة لدبلوماسية العهد النابليوني — مبنية على دراسات في دور الوثائق البريطانية والفرنسية » .

وقد أهدى غربال الرسالة لتوينبي باعتباره : « معلماً عظيماً وأستاذاً ملهماً » . وقد قدم توينبي للرسالة المنشورة بكلمات تبرز أهمية البحث ، مؤكداً أنه قد استفاد من الإشراف عليه أكثر مما أفاد ، مشيداً بصفات غربال المؤرخ الناشئ : فهو على اتصال بالشرق والغرب ، وهو بعيد كل البعد عن الأهواء والميول

التي تحيط بموضوع دراسته ، بحيث لو أن اسمه لم يطبع مع البحث لكان من الصعب القول بأن المؤلف إنجليزي أو فرنسي أو مصري أو ينتسب إلى بلد آخر غير إنجلترا ومصر وفرنسا . وقد أشاد توينبي بهذا التجرد الذي اتسم به غربال حين كتب رسالته الأولى ، مؤكداً أن ذلك أمر صعب نسبة إلى الرواسب التي خلفها لدى المصريين ما كان من ذكرى علاقاتهم السياسية بإنجلترا منذ أكثر من قرن . وأضاف إلى ذلك ما اتصف به غربال المؤرخ الناشئ من إلمام بعلم استخراج المادة التاريخية من الوثائق ، وعرض الحقائق التي يصل إليها . وأتبع توينبي تقديمه بدراسة مقارنة لمصر العصور الوسطى ومصر الحملة الفرنسية ، وهي الفترة التي نكبت فيها مصر بالركود ، بحيث حين جاءت الحملة الفرنسية واصطرع الفرنسيون والإنجليز على الأراضي المصرية كان ذلك بالنسبة إلى المصريين وإلى مؤرخهم الجبرتي وكأنه مجموعة من السوبرمن ، تحارب مجموعة أخرى من السوبرمن ؛ على حين أن الفرنسيين والإنجليز كانوا بشراً ، إنما بشر من نوع خاص : توصلوا إلى طرائق حديثة في العلم والمعرفة والتنظيم . ولم يدرك هذه الحقيقة من المصطرعين المسلمين على السلطان في مصر بعد جلاء الحملة سوى محمد علي الذي أكمل الاتجاهات التي عرفتها مصر بمجيء الفرنسيين ، ووجه مصر وشعب مصر وجهات جديد . لم يكمل غربال قصة محمد علي ، وإنما انتهى عند الفترة التي ثبت فيها محمد علي سلطانه ووضع أسس حكمه . ومنذ ذلك الوقت أخذت المسألة المصرية تشق طريقاً خاصاً بها إما في ثنايا المسألة الشرقية العامة أو منفصلة عنها .

رسالة غربال هذه عن أصول المسألة المصرية تمثل نقلة لها أهميتها في الكتابة التاريخية في مصر . فمؤلفها اعتمد على الوثائق الأوروبية غير المنشورة ، وهذا أمر جديد في تاريخ الدراسات التاريخية في مصر . سبقته لاشك أبحاث من هذا النوع منها — على ما أذكر — بحث الدكتور سيد كامل عن « مؤتمر الأستانة والمسألة المصرية في عام ١٨٨٢ (١) » ، وهو البحث الذي نشر بالفرنسية

(١) La Conférence de Constantinople et la Question Egyptienne en 1882.

في عام ١٩١٣ . بنى هذا البحث حقيقة على الدراسة الوثائقية . ولكنه لم يعتمد سوى على الوثائق والحواليات المطبوعة — وله في ذلك عذره ؛ إذ أن دور الوثائق لا تسمح بالاطلاع على الوثائق إلا بعد مرور فترة معينة ، بحيث لا يتضمن الاطلاع على الوثائق الرسمية إفشاء للأسرار التي تمس السياسة العامة للدولة المعنية .

الملحوظة الثانية على هذه الاتجاهات الرائدة أنها نظرت إلى الأحداث والسياسات من وجهة النظر القانونية ، مثل الدكتور سيد كامل في ذلك مثل الدكتور محمد حسين هيكل حين وضع بحثه عن « دين مصر العام » ، وهو البحث الذي حصل به على درجة الدكتوراة من إحدى الجامعات الفرنسية أيضاً . ربما كان مرجع ذلك أن التاريخ بشكله المنظم لم يكن حينئذ قد أصبح علماً مستقلاً قائماً بذاته ، وأنه لم يكن قد ظهر في مصر مؤرخون متخصصون بمعنى الكلمة . وبهذه المناسبة يجدر بي أن أشيد بالجهد الذي بذله في هذا المضمار الدكتور محمد صبرى « السوربوني » الذي تعتبر أبحاثه عن عصرى محمد على وإسماعيل و « نشأة الرأي العام في مصر » ، وهى الأبحاث التى وضعها باللغة الفرنسية ، مما لاغنى عنه لكل من يدرس تاريخ الفترات التى تناولها . بيد أن بحث غربال عن بداية المسألة المصرية كان أسبق من الناحية الزمنية ، وإن يكن يبدو أن هذين الرائدتين كانا يحصلان الدرس فى فترة واحدة : إذ كان الدكتور صبرى — وهو طالب فى فرنسا — ممن اتصلوا بسعد وبالوفد فى باريس فى أعقاب الحرب العظمى الأولى . لهذا نستشف فى مؤلفات صبرى الأولى الروح القومية الذى لانستشفه عند غربال الناشئ . فصبرى أديب مؤرخ ؛ على حين أن غربال مؤرخ أديب — ولكل من الرجلين قيمته ، ولنهاج كل منهما وزنه . وفرق بين التزمتم الإنجليزى البارد فى العلم كما تلقنه غربال فى إنجلترا ، وبين العاطفية والنزعة الفنية ، والشاعرية الفكرية التى جعلت من باريس فى فترة ما — وربما إلى اليوم — قبلة المفكرين والفنانين الكبار من شتى أنحاء العالم .

وقد أرشدت هذه البداية غربالاً إلى الطريق الذى لا بد منه فى توجيه

دراسات تلامذته الذين اعتمد الرعيل الأول منهم على وثائق دور المحفوظات المصرية وتناولوا بالدراسة موضوعات هامة في تاريخ مصر الحديث . وأسهم هو بدوره في هذا المجال ، مسلطاً الأضواء على فترات أو شخصيات لها أهميتها ؛ إذ كان غربال يعرف كيف يختار موضوعه : واختيار الموضوع ذاته يعتمد على نوع الشخصية التي تختار . كان غربال إما يحصر موضوعه أو يضع الاتجاه ذاته والخطوط العريضة ، تاركاً الدراسات الجانبية لتلامذته ومن يحدو حذوه . وما نستعرضه من مؤلفاته نجده يبتعد — قدر الاستطاعة — عن الدراسات الكلية الشاسعة ، وبخاصة فيما يتعلق بالفترات أو الشخصيات التي لم تسلط عليها الأضواء بعد . إذ أنه كان يدرك أن حقل تاريخ مصر الحديث بكر ، وأنه قبل التصدي للكتابة لا بد من نشر الوثائق وأدوات البحث الأخرى .

وفي عام ١٩٣٢ نشر بحثه عن «الجنرال يعقوب والفرانس لسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١» . وفي هذا البحث أبرز فكرة استقلال مصر عن تركيا ، على أساس التفاوض في العواصم الأوروبية ، كما تخيلها يعقوب حنا ولسكاريس بعد جلاء الفرنسيين عن مصر . وقد بنى هذا البحث على المصادر العربية والإفرنجية ؛ وكعادته في مثل هذه التأليف ، واستمراراً لرسالته التي أشار فيها إشارة سريعة إلى هذا المشروع ، نجده يربط هذا البحث ربطاً محكمًا بالموقف الدولي وبأوضاع مصر ذاتها ومستوى تفكير أبنائها وأحوالها الاجتماعية .

وفي عام ١٩٣٦ نشر بحثه : «مصر عند مفترق الطرق — رسالة حسين أفندي روزنامجي» . في هذا البحث يتناول مجموعة الأسئلة التي وجهها إستيف مدير الإدارة المالية في عهد الحملة الفرنسية إلى حسين أفندي روزنامجي أحد أفندية روزنامة في مصر ، وإجابات حسين أفندي على هذه الأسئلة . وهذا البحث أنموذج للتحقيق العلمي ، ولا يزال حتى الوقت الحاضر من المصادر الأساسية لأحوال مصر العثمانية .

وبداية الحملة الفرنسية ، ومشروع يعقوب حنا ولسكاريس الخاص باستقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، ومصر عند مفترق الطرق . . . كل هذا لا بد أن يعرى غربال بالدخول إلى عصر محمد علي جملة وتفصيلاً . والموضوع ذاته جدير بالاهتمام . ولا يزال مشاراً للنقاش حتى الوقت الحاضر طبقاً لنوع النظرة التي تحيط بمن يتناول عصر محمد علي والرجل ذاته ونوعية مستوى الشعب المصري في الفترة التي تولى فيها محمد علي الحكم والتي أرسى فيها دعائم هذا الحكم ، ثم حول مجرى تاريخ مصر الحديث شاء هذا الحكم من يقرأ تاريخ محمد علي أم لم يشأ .

ظهر كتاب « محمد علي الكبير » في عام ١٩٤٤ . وهذا الكتاب قمة من قم الدراسات التاريخية التي كتبت باللغة العربية على الإطلاق . ورغم القلة النسبية لعدد صفحاته ، فإنه يفرض علينا وقفة خاصة : إذ أنه أنموذج متكامل ، وربما كان الأنموذج الوحيد ، للكتابة التاريخية كما يراها غربال . فمحمد علي هنا ليس شخصية تتحرك في الزمان والمكان ؛ ولكنه محور لدراسات : تبدأ الدراسات بمصر العثمانية ، ثم الحملة الفرنسية ؛ وتنتقل إلى أوروبا وتركيا ، ثم إلى أحوال المجتمع المصري كما تسلمه محمد علي ، ثم التحول البطيء لهذا المجتمع وفق ما ارتأته له مشيئة محمد علي . مجتمع ينتقل من حال إلى حال ، على الأقل في دوائره العليا ، إذ مسائل التغيير الاجتماعي لا يمكن تناولها بنظرتنا إلى مسائل التغيير المادي . . . مجتمع مصري متخلف توضع له أدوات وأركان التغيير التقدمي ولو بعد حين طويل . وغربال يحاول أن يخلع على محمد علي خطة محكمة هي التي أفضت إلى بناء قواعد الدولة الحديثة في مصر ، ويصوره لنا يدفع جيل الفلاحين والعمال والجنود المصريين إلى آفاق فسيحة ، ويحاول أن يبرر شدته على الشعب والماليك وتبنيه « للارستقراطية التي تتكلم اللغة التركية » . وعلى أي حال فالمؤرخ ليس القاضي الذي يمسك بيديه موازين العدالة ويوزع الخير والشركا يحلوه ، وإنما هو يحكم على الأشخاص والأعمال في نطاق الطبيعة البشرية .

نشر هذا الكتاب في « سلسلة أعلام الإسلام » — وهو يختلف عن مؤرخي مصر الحديثة الذين ينظرون إلى مصر العثمانية باعتبارها جزءاً من تاريخ مصر؛ في حين أن غربال يعتبر مصر العثمانية ومصر محمد علي جزءاً من تاريخ الإسلام. وقد برر هو ذاته اختياره محمد علي علماً من أعلام الإسلام، على اعتبار أن مصطلح « إسلامي » لا يقف عند فترة تاريخية معينة. ثم جعل من محمد علي محوراً لدراسة عصره في الشرق والغرب، مصطنعاً أسلوب التحليل والتركيز والربط كأحسن ما يكون الاصطناع. وصدر في هذا الكتاب عن تمكن تام من موضوعه، وعن أسلوب للتعبير يصطنع الدقة المتناهية في اختيار اللفظ، وطرق العرض الفلسفية وطرائق علم النفس ومناهج علم الاجتماع. وهو في هذه الترجمة إسلامي بالمعنى الواسع. يربط موضوعه في إطار تجسيم ما قد قام به محمد علي مع الرفق الشديد حين يعدد له الهنات الهيئات. انظر إليه يقارن بين مصر المماليك المتأخرين ومصر المماليك الأول:

« مصر بيبرس محور ذلك العالم العربي الذي اكتسب مقوماته وانفرد بشخصيته على أثر انهيار الخلافة العباسية. وهو اجتماع يتركب من طوائف وجماعات لها شخصيتها وقانونها وعرفها ووظيفتها. فمن أصحاب السيوف إلى أصحاب الأقلام، ومن أهل الفلاحة للأصناف (أصحاب الصناعات)، ومن أرباب السجاجيد إلى هيئات التدريس — وهم جرا.

ويكتسب ذلك الاجتماع الصاحب حيويته من حكم الجماعات نفسها بنفسها، كما يكتسب لونا من التنسيق والانسجام من شخصية السلطان؛ يدفع الناس بعضهم ببعض، ويحاول أن يخضع الأهواء والمصالح لجهود عامة في تحقيق مثل عليا تهم الناس جميعاً. ولكن كانت آفة ذلك الاجتماع ما صحبه من سرف وتبديد كان من شأنهما على توالي الزمن وضع أعباء على الطوائف المنتجة من أهل الفلاحة والصناعة والتجارة، أنهكت قواها الحسية والمعنوية. وكانت آفته

الأخرى من أول الأمر انصرف الناس نحو شئونهم الخاصة بأشخاصهم وجماعاتهم، وابتعادهم عن الشئون العامة واعتبارهم إياها « سياسة عليا » ، كما نقول الآن ، هي مما ينبغي النظر فيه للسلطان والأمراء ، وليست مما ينبغي للرعية . وقد وجدوا في تعليم أئمتهم ما يبرر إيثارهم العافية .

وفي هذه الفترة أيضاً صدر غربال للكتاب الذي أصدرته « دائرة المعارف الإسلامية » عن : « تونس الخضراء » بمقدمة سياسية تناولت الوضع الدولي السابق على فرض فرنسا حمايتها على تونس ؛ إذ لا يمكن فهم هذا التطور في السياسة الفرنسية إلا بربطه بأوضاع المسألة الشرقية والحرب الروسية — التركية (١٨٧٧ — ٨) ، ثم مؤتمر برلين وما طرح فيه على بساط البحث من تقسيم للإمبراطورية العثمانية . وهذه المقدمة القصيرة المركزة تدخل بنا إلى المقدمات الأخرى المركزة التي وضعها غربال لكثير من مؤلفات وترجمات طلبته والعاملين معه . وتمتاز هذه المقدمات بالشمول ، وتهيئة الذهن للموضوع ؛ بل إن بعضها مما يغني الدارس غير المتخصص عن الإيفال في تفاصيل الموضوع ذاته .

وفي عام ١٩٥٢ نشر غربال الجزء الأول والأخير من كتابه عن « تاريخ المفاوضات المصرية — البريطانية » ، وهو أطول ما كتبه غربال باللغة العربية . ويحيل إلى أن غربال لم يعط نفسه فسحة من الوقت لصقل هذا الكتاب ومراجعته . ولذا فإننا نجد مراحل الأولى تختلف عن مراحل الأخيرة التي يسرف فيها في عرض النصوص الكاملة لمشروعات الاتفاقات ومحور المفاوضات بين الإنجليز والمصريين . وكان يستحسن أن يلخص مضمونها ، على أن تورد النصوص في ملاحق مستقلة .

على أن غربال — باعتباره رائداً من رواد التاريخ الحديث ، وتاريخ مصر الحديثة بالذات — يلفت النظر في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى مصادر التاريخ المصري الحديث ، على الأقل في فترة دراسته . هناك مثلاً المجموعات الرسمية التي أصدرتها الحكومتان المصرية والانجليزية ، أو مجموعات الكتب

الملونة : بيضاء وخضراء وزرقاء . وهناك الصحف والمضابط البرلمانية . وأهمية كل ذلك نسبية طالما أن الوثائق الرسمية الأصلية لم يكشف عنها اللثام بعد : فالوثائق الرسمية المصرية تقف عند عام ١٨٧٩ ، أي قبل موضوع بحث غربال بسنوات ثلاث ؛ والوثائق الإنجليزية — على ما أعلم — تقف عند عام ١٩١١ . وللآن لم تتم دراسة وثائقية للفترة التالية على عام ١٨٨٢ فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر وإنجلترا سواء بالإنجليزية أم بالعربية .

ثم ينتقل في هذا الموضوع إلى المذكرات الخاصة ، فيقول إن كتابتها لم تتأصل بعد بين رجالنا — حتى مذكرات الدكتور هيكل في السياسة المصرية هي لديه أقرب إلى التاريخ منها إلى المذكرات لأنها لم تكتب وقت حدوث الوقائع ، بل بعدها بوقت ما . وينتقل بعد ذلك إلى التراجم ، فيسجل قلتها إن لم يكن عددها . ونوه بترجمة عباس محمود العقاد لسعد زغلول ، ونقد بعض جوانبها ، وخرج إلى أنها بحث ممتع ؛ ولكنه لا يعين كثيراً على الترجمة لسعد زغلول !! .

وقد انتقل غربال في آخر هذا الفصل إلى الدراسة التاريخية ، ونوه بجهود الأستاذ الراجحي في جمع مادة تاريخ مصر الحديثة منذ أواخر العهد العثماني ، وأخذ عليه طريقته في الحكم : الميزان ذو الكفتين ؛ وهذه طريقة وإن يكن لها وزنها في دنيا القضاء والقوانين إلا أنها لاتصدق على التاريخ . فالعدالة في الحكم التاريخي — عند غربال — لاتتحقق على هذا الوجه السهل ، ولا تتم إلا بالتقدير العام لسياسة أو لموقف .

على أن بحث غربال في تاريخ المفاوضات يشتم منه التفاعل بالأحداث والخروج بعض الشيء عن التجرد الذي لمسناه فيه حين وضع رسالته عن « أصول المسألة المصرية وظهور محمد علي » . فهو يكتب في موضوع حساس عاش معظم فترته . وكشأن المواطن الذي لا بد مهم بمصائر بلده ، نجد غربال يبتعد عن تزمت المؤرخ ، ويمسك بالميزان الذي أخذ على الراجحي أنه جعله ذا كفتين : فهو له

آراؤه الخاصة في المواقف والرجال ، وهو مصري بشكل واضح ينمى على قومه
الفرقة التي لم يكن لها أحياناً ما يبررها ويستشهد بقول الشاعر :

قومي هو قتلوا أميم أخي فإذا رميت بصيبي سمي
فلئن عفوت لأعفون جلالاً ولئن سطوت لأوهن عظمي

وتتضح هذه المصرية بشكل أكيد في سلسلة المحاضرات التي ألقاها
في الإذاعة الأوروبية ونشرت في أصلها الإنجليزى أولاً بعنوان *The Making of Modern Egypt*
ثم ترجمها الأستاذ محمد رفعت في عام ١٩٥٧ تحت عنوان :
« تكوين مصر » . وهنا يتضح النهج التي سبق أن لسناه في كتاب « محمد علي
الكبير » ، مع مسحة حضارية تناسب الموضوع الشاسع في الحيز الضيق . خفت
في هذه المحاضرات المؤثرات العثمانية — الإسلامية ، وتباورت فيه الصورة المصرية
مجردة عن كل ما يمكن أن يفرق بين المصريين ، بحيث حين تأتي المرحلة العربية
من اتجاه مصر الحديثة ، وهي المرحلة التي اتضحت بشكل بارز بعد ثورة ١٩٥٢ ،
يكون غربال قدمه نفسه لنقل الصورة العربية العامة وموضع مصر من
هذه الصورة .

في هذه المحاضرات نجد غربال عاشقاً لمصر خلال العصور كلها . « وهذا على
الرغم من أنني أعرف أنه ليس في مقدور الرجل منا أن يحيط بالأدوات والدراسات
كافة اللازمة لكل قسم من أقسام تاريخ مصر المعروفة دع عنك الإحاطة
بها جميعاً . بيد أن الأخصائي والقارئ غير الأخصائي كلاهما يجد متعة ذهنية
ومغناً في آن واحد لو حاد بين الفينة والفينة عن طريق التخصص؛ الطريق الضيق ،
واضحاً نصب عينيه أن هناك « مصر » دائماً ، وأنها تسمو فوق هامات
الحقب والعصور » .

بعد هذه المقدمة الشيقة نجده يتناول موضوعات الاستمرار والتغيير في تاريخ

مصر؛ الحكومة والمجتمع في مصر؛ الإنسان والمجتمع في مصر؛ المدينة والريف في تاريخ مصر؛ مصر والعهد القديم؛ مصر والهيلينية؛ مصر والمسيحية؛ مصر والإسلام؛ وأخيراً مصر والغرب. إن هذه المحاضرات تمثل نوعاً فريداً في طريقة العرض التاريخي في العالم العربي — الإسلامي، شأنها في ذلك شأن كتاب محمد علي الكبير. هنا، وهنا بحق، نجد غربال تلميذاً لأرنولد توينبي دون أن يتقيد بحرفية منهاج أستاذه في تفسير التفاعل الحضاري وانتقال المؤثرات الحضارية من مكان إلى مكان.

فمن الإسراف وضع قانون ثابت أو قوانين ثابتة لحركات المجتمعات التي هي المادة الحية للتاريخ بمعناه الواسع. ذلك أن الإنسان لا يصدر في سلوكه الفردي والجماعي عن أنماط ثابتة من السلوك بحيث تكون الاستجابة على قدر المؤثر — كما هو الحال في القوانين الطبيعية ولدى الأنماط الدنيا من الكائنات الحية. إنه ليس آلة صماء يسهل التحكم فيها. فأرنولد توينبي — مثلاً — يبنى دراسته للتاريخ على قانون ثابت يقوم على التحدي والاستجابة؛ وقد لقي تفسيره للتطور الحضاري كثيراً من المآخذ في إنجلترا، وإن كنا لانستطيع إنكار قيمة الجهد الذي قام به. وكارل ماكس يربط بين حركة التاريخ الصاعدة وبين العامل المادي — الاقتصادي. ومدرسة السلوكيين في علم النفس تستمسك بالفعل المنعكس الشرطي القائم على تجارب العالم الروسي بافلوف على الكلاب. وفرويد يضع الغريزة الجنسية وراء كل دافع بشري.

وربما كانت نظرة أرنولد توينبي أكثر مرونة من غيرها؛ فالإنسان — مع تمتعه بقسط وافر من حرية الاختيار لا يستطيع فكاً كما من إفسار الطبيعة وبيئته المادية. ونحن لا نستطيع أن ننكر أثر تحدي الطبيعة للإنسان وتحدي الإنسان للإنسان في مجرى النشاط البشري العام. ولكننا الآن — في النصف الثاني من القرن العشرين — نجد الإنسان وقد توفرت له الأدوات التي لا شك

ستمكنه — لو أحسن استخدامها — من التغلب على الطبيعة والتخفف من إسارها الذي كان بالنسبة إلى الإنسان القديم ، بل ربما حتى الوقت الحاضر في مجالات شاسعة ، قدرأ غالباً وحتمية قهرية . إن إنسان النصف الثاني من القرن العشرين هو الذي يتحدى . ومع ذلك فليس في طاقتنا أن نتنبأ بخطوط تفصيلية محددة للتطور البشرى . فهمة المؤرخ هي ترتيب ما يتجمع لديه من الوقائع التاريخية وتحليلها وتفسيرها . وليست مهمته التنبؤ أو الحدس سواء فيما يتعلق بالحاضر أو بالمستقبل ، إلا أن يكون ذلك من قبيل الافتراض العلمى .

أدرك غربال كل ذلك إدراكاً واعياً ، فلم يشأ أن يخضع لفلسفة تاريخية معينة . فهو يأخذ من كل تفسير بقدر طبقاً للملابسات التي تحيط بموضوعه . وحيثما تصادفه قضية كبرى من قضايا التطور الاجتماعى نجده يستشهد بأراء كبارالمفكرين التي قد تفسر الزوايا المختلفة لهذه القضية ، دون أن يربط نفسه كلياً بهذا أو بذاك . هذاوغربال — لاشك — كان على علم وثيق بأهم المناهج التاريخية وبالأنماط المختلفة من كبار المفكرين . ولكن طبيعته السمحة واتساع أفقه وإيمانه الواضح بحرية الإنسان مما جعله يتحرز من الانتماء لمدرسة معينة في تفسير التاريخ . وبين هذا وذاك نجد لديه تمسكاً مع أستاذه أرنولد توينبى في الأخذ بقيمة الصفوة الخالقة elite في مجال النشاط البشرى بشتى زواياه . وهذه نقطة جوهرية هي باستمرار مشار للنقاش وبخاصة بعد ظهور التحدى الاشتراكى في المجالين الاجتماعى والفكرى ، وهو التحدى الذى خلع على الجماهير من الوعى ما لم يخلمه الكتاب من قديم الزمن .

أما المحاضرات التي ألقاها غربال في معهد الدراسات العربية ونشرت قبيل وفاته بعنوان « منهاج مفصل لدراسة العوامل الأساسية في بناء الأمة العربية كما هي عليه اليوم » فهي آخر مجهودات غربال في مجال الكتابة التاريخية ، وإن لم تكن آخر ما طبع له ؛ فقد جمعت دار الإذاعة متفرقات من أحاديثه تحت عنوان « من زاوية القاهرة » ، ستنهى بها حديثنا هذا عن غربال .

في « المنهاج المفصل » نجد غربال يضع الخطوط العريضة للتفاعل والصراع في العالم العربي تحت الحكم العثماني وبعده الحكم العثماني . والمحاضرات تنقسم قسمين : القسم الأول لمحة مرية عن العالم العربي والدول المختلفة القائمة فيه : الموقع الجغرافي لكل منها واقتصادياتها وتعداد سكانها . أما القسم الثاني فهو القسم الهام ، وفيه يعرض المؤلف للعالم العربي والأوضاع القائمة فيه والتيارات الفكرية التي غلبت على الناس ، وكانت سبباً في تأخر العالم العربي . فالأتجاه العام قبل التحدي الأوروبي هو أن العرب المسلمين عاشوا في جو خيالي تابع من معتقداتهم الدينية : فقد تصوروا أنهم بعزلتهم لهم الجنة وأن لغيرهم النار . لهذا لم يتطلعوا إلى الاستزادة من العلم التطبيقي الأوروبي . وساعد على ذلك أن الحكم العثماني كان يحول بينهم وبين التطور ، وذلك برغم حركة التنظيمات المستوحاة من التفوق الأوروبي خصوصاً في جوانبه المادية . وقد جاء التوتر السياسي في العالم العربي نتيجة لمحاولة الدولة العثمانية تقوية قبضتها على البلدان العربية ، وهو ما عزف بحركة التتريك . ثم تلا ذلك سقوط الإمبراطورية العثمانية ووقوع العالم العربي تحت التبعية الأوروبية . وقد أبرز المؤلف دور حركة الشريف حسين ودور المثقفين الذين عقدوا مؤتمراً في باريس في عام ١٩١٣ ، وكيف أن الفريقين قد ركبا متن الشطط ، وانتهزت كل من إنجلترا وفرنسا الفرصة لتقسيم العالم العربي ووضعها تحت نفوذها المباشر . ولكن المد القومي الصاعد مالبت أن تبلور وتجمع متمثلاً في رفض المعاهدات التي أمليت والوضع غير العادل الذي ادخر لفلسطين . وما لبث العالم العربي في مشاركته ومغاربه أن تصدى للحصول على استقلاله ، خاصة وأن البلدان العربية في مجموعها مجيدة التاريخ سواء قبل أن تصبح عربية وبعد أن أصبحت عربية .

وصفات العرب كما كانوا عليه تحت الحكم العثماني ليست هي الصفات الأصيلة فيهم ؛ بل هي صفات دخيلة بحكم الركود والجمود . فمقومات التاريخ العربي

— كما يذكر غربال في إحدى محاضراته الإذاعية المطبوعة — متوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط : فارتقاء الحسيات يقابله ارتقاء مماثل للمعنويات ؛ والعناية بالزراعة وما يتصل بها من الغراسات والتفنن في الاستنبات والبراعة في جر المياه وصرفها ، لا تقل عن العناية بالصناعات ، والزراعة والصناعة شأنهما لا يقل عن شأن التجارة وما يتصل بها من تنظيم وطرائق إنهاء الحقوق والادخار والايمان . وهذا ينطبق على الحياة العقلية : فهي تعنى بالأبحاث النظرية دون إهمال للتطبيقات العملية ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالحياة الروحية : فلا إسراف عموماً في رعاية ما يوجب حق الجماعة وما يقتضيه حق الفرد . وهو يرى أن اللغة العربية هي جماع عقل وروح الأمة العربية ، وهي أعظم ما خلق العرب ، لماضيهم وحاضرهم ولستقبلهم .

في المجموعة الأولى من هذه المحاضرات نجد غربالاً يتناول موضوعات حضارية بحتة أدرجت تحت عنوان نظرات في التاريخ العربي : العرب بين الأمم ؛ تعبير الفن عن الشخصية العربية ؛ تعبير العلم عن الشخصية ؛ الشعوبية القديمة والشعوبية الجديدة ؛ المدينة العربية ... حكومتها في الماضي والحاضر .

وفي هذه المحاضرات نجد غربالاً يختار النقاط البارزة في الحياة العربية ، محاولاً تحديد مفهومي عربي وإسلامي . ووصف إسلامي — لديه — أعم وأصدق . ثم هو يسجل للعرب محافظتهم على حيويتهم ومقوماتهم منذ القرن السادس عشر برغم التغلغل الأوروبي والسيادة التركية العثمانية ، ويحثهم أولاً أن يكونوا أقوياء : « فالقوى لا ينفع نفسه فحسب ، ولكن ينفع الناس جميعاً بقوته » . كذلك نجده يحاول مقارنة الشعوبية القديمة بالشعوبية الحديثة في داخل العالم العربي ، وأن هذه الأخيرة لن تنال من العالم العربي أكثر مما نالت الشعوبية القديمة : إذ المجتمع العربي قد التقت فيه العناصر الوافدة والأصلية وتفاعلت وأثمرت ، وأن هذا المجتمع مجتمع الجميع ، وأن التاريخ العربي ملئ بالتواريخ .

أرأيت كيف انتهى غربال محمداً لنفسه موقفاً إيجابياً من قضية الحرية والالتزام ؟ إنه بصفته من رواد الفكر لا بد له من وقفة إيجابية إزاء مجتمع يتحرك

ويتطور ويتطلع إلى آفاق جديدة . وأنهى كلتي هذه بطرح قضية الحرية والالتزام على هذه الجمعية الموقرة القائمة في صمت على خدمة الدراسات التاريخية المتشعبة بالثوب العلمي ، مقتبساً الفقرة الآتية من الميثاق الوطني :

« إن العلم للعلم في حد ذاته مسئولية لا تستطيع طاقتنا الوطنية في هذه المرحلة أن تتحمل أعباءها .

لذلك فإن العلم للمجتمع يجب أن يكون شعار الثورة الثقافية في هذه المرحلة . على أن بلوغ النضال الوطني لأهدافه سوف يسمح لنا في مرحلة متقدمة من تطورنا بأن نساهم إيجابياً مع العالم في العلم للعلم » .

أحمد عبد الرحيم مصطفى

جراكوس باييف ومؤامرة الأكفاء

Conspiration des Egaux

عندما يتعرض الباحث لجانب من جوانب الإرهاصات الاشتراكية الأولى في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر يجد نفسه في مواجهة مشكلة رئيسية لا سبيل إلى تجاهلها أو الاعتماد على ما يستطيع أن يضمه عنها في سياق بحثه ، وهي مشكلة المصطلحات ، أو بمعنى أوسع « المفاهيم » التي سيضطر إلى استخدامها وما تنطوي عليه من دلالات حديثة قد تؤدي إلى لبس أو حتى إلى خطأ جسيم أحياناً .

والظواهر التي سأحدث عنها ، والتي بلغت ذروتها في الثورة التي قادها جراكوس باييف ونفر من أنصاره ، جزء لا يتجزأ من الثورة الفرنسية ؛ ونحن نعلم أن الاشتراكية بمفهومها الحديث لم تكن قد عرفت بعد في هذه الفترة — بل ولم تتبلور إلا بعد قرابة نصف قرن من ذلك التاريخ ، ولذلك فإن وصف هذه الظواهر بالاشتراكية يكون غير دقيق ، والأقرب إلى الصواب أن نقول إنها مجرد إرهاصات تنبئ عن اتجاه معين في المستقبل أو — إذا كان لنا أن نستعمل مصطلحاً حديثاً — هي « جنين » اشتراكي .

وينبغي قبل أن نعرض لهذه الظواهر أن نلقى نظرة على وضع الثورة الفرنسية الكبرى نفسها ، في علاقاتها التاريخية ، من تطور الفكر السياسي والاجتماعي ، وهل هي ذروة مرحلة البورجوازية أم بداية المرحلة التالية لها .

والواقع أن الجدل الذي ثار بين المؤرخين والمشتغلين بالفكر السياسي ، وبين المفكرين الاشتراكيين بصفة خاصة ، حول هذه النقطة يتصل

اتصالاً مباشراً بمفهوم كل منهم عن معنى الاشتراكية واتجاهاته بصفة عامة (١).
فمنهم من تناوّلها على أنها طليعة الثورة الاشتراكية ، طليعة تزخر فعلاً
بالتجارب الاشتراكية ؛ ومنهم من صورها على أنها التعبير العملي عن روح الثورة
الفكرية التي اجتاحت أوروبا ، وفرنسا بصفة خاصة ، في القرن الثامن عشر
وبلغت ذروتها كتابات الموسوعيين ومفكرى الاستعارة الآخرين .

بيد أن الأمر الذي لا جدال فيه هو أن الثورة الفرنسية ثورة طابعها
بورجوازي بحت ، بل هي « الثورة البورجوازية الكبرى » التي مهدت السبيل
للطبقة الناشطة الجديدة في الاستيلاء على السلطة .

فبين « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » الذي وضعته الجمعية العمومية
في عام ١٧٨٩ — الذي جعل حق « الملكية حقاً مقدساً لا يمس » — وبين
دستور ١٧٩٤ الذي وضعه المؤتمر الوطني فقصر حق الانتخاب على فئة معينة
من الشعب أطلق عليها « المواطن الإيجابي » أو « المواطن العامل » وقيّد حق
شغل الوظائف العامة فجعلها قاصرة على الملاك ، بين هذين الحدثين لا مجال للخطأ
في الطابع البورجوازي المحض للثورة التي تمخضت عنهما وفي أن الأحداث الأخرى
التي يمكن وصفها بأنها اشتراكية — مما وقع بين هذين الحدثين التاريخيين
وبعدهما مباشرة — ليست سوى ظواهر عارضة كان لا يمكن أن يتحقق لها بقاء
وكل ما نستطيع أن نقوله فيها هي أنها كانت مجرد استباقات لأحداث مقبلة .

ولعل خير ما يصور لنا هذين الرأيين في علاقة الثورة الفرنسية بالاشتراكية

(١) انظر مثلاً برنس كروبووتكين الزعيم الفوضوي المعروف في كتابه The Great French
Revolution ، والزعيم الاشتراكي الفرنسي جين جوريه في مؤلفه الضخم Histoire Socialiste
de La France والذي يعد المجلد الخاص بالثورة الفرنسية فيه من أفضل ما كتب من وجهة
النظر الاشتراكية . وأنظر كذلك أندريه لينختنبر La Socialisme et la Rep. Fr. وكذلك
القسم الخاص بالثورة الفرنسية في كتاب كارلتون هيز 'Political and Cultural
'His. of Europe' .

عبارتان لمفكر اشتراكي معروف هو هارولد لاسكي ، إذ يقول^(١) :

« يمثل وضع الثورة الروسية في علاقاتها التاريخية بالقرن العشرين وضع الثورة الفرنسية في القرن التاسع عشر » . وهي عبارة كما نرى قد لا تعنى أكثر من أنهما مرحلتان في صراع الإنسان في سبيل التحرر من قيود واقعة ، ولكل منها طابعها الخاص الذي أملتته ظروف العصر الذي تمت فيه .

ولسكنه يقول أيضاً في موضع آخر^(٢) :

« إن الرجال الذين وضعوا بذور البلشفية هم السلالة المباشرة ليعاقبة الثورة الفرنسية » . وهي عبارة توحى قطعاً بأن هناك صلة مباشرة بين الأهداف والمبادئ ، بل والأساليب كما سنرى فيما بعد ، التي كانت القوة الدافعة لزعماء الثورتين .

وقد يساعدنا في تلخيص سبيلنا بين هذه الآراء المختلفة أن نتمعن ملياً في ترتيب أحداث الثورة والأثر الذي تركته فئة معينة بالذات من الشعب الفرنسي في هذه الأحداث ، وأعني بها الفئة التي عرفت تارة بإسم « شعب باريس » *Peuple de Paris* وتارة بإسم الشعب أو « الناس » *Le Peuple* وثالثة بإسم « جيش الثورة » *L'Armée de la Rév.* كما عرفت أحياناً بإسم « الطبقة الرابعة » *Quatrième Etat* وأخيراً بإسم ذي مغزى خاص هو — *Les sans Culottes* أي الدهاء أو الحفاة ، الذين لا يملكون سوى معاول شقائهم يعملون بها في هدم أسس المجتمع الذي حرمهم من كل شيء ؛ (ولم تكن كلمة بروتاريًا قد عرفت بعد ، فهي تمت إلى مرحلة تالية هي مرحلة « البابوفيزم » *Babouvisme* أي مذهب بابيف) .

(١) أنظر (Laski: Reflecons on the Revolution of our times. p. 41)

(٢) Op. Cit ، ص ٤٣ .

وهذا البحث هو قصة هذه الفئة Les Sans-Culottes .

لقد بدأت الثورة الفرنسية حقيقة عند ما أحست الطبقة الثالثة (Le Tiers état) ، التي تمثل البورجوازية الناهضة ، بقوتها وحاجة الملكية إليها بسبب الضائقة المالية، فتحدث أوامر الملك واجتمعت في ملعب التنس الملكي عندما أغلقت في وجهها قاعة الاجتماع بعد أن أعلنت رفضها التعاون في ظل الوضع السابق الذي لا يمنحها حقها الكامل في إدارة شئون البلاد ، وأصررت على ألا تجلس كل طبقة بمفردها مطالبة باجتماع شامل للطبقات الثلاث وأن يكون التصويت بالرأس (وبذلك تضمن الأغلبية فقد كان عدد مندوبي الطبقة الثالثة وحدها ٦٠٠ بينما كان عدد مندوبي كل من الطبقتين الأخرين صاحبتى الامتياز «رجال الدين» و « النبلاء » ٣٠٠ فقط ، وكان من بين أفراد هاتين الطبقتين الكثيرين من المتنورين الذين يعطفون على الطبقة الناهضة ويؤازرونها في مطالبها مثل ميرابو وسويه) .

إن حادث سقوط الباستيل الذي كثيراً ما يعتبر بداية الثورة الفرنسية لم يكن سوى رمز لشيء آخر غير بداية الثورة الفرنسية ، لقد كان رمزاً لفاعلية دهاء باريس — فاعلية لا يحدوها وعى ولا يوجهها هدف ذاتى ولكن يدفع إليها لجوع والحرمان ، فاعلية فئة تأثرت ولا شك بالأفكار السائدة وإن لم تفهمها .

ولكن البداية التي لامراء فيها لثورة البورجوازية هي حادث ملعب التنس قبل وقوع الباستيل ببضعة أيام ، وهو تعبير عن إحساس الطبقة الثالثة بقوتها الجديدة التي دفعتها حتى إلى رفض مجرد القيام بالإجراءات التمهيدية (تقديم أوراق اعتماد المندوبين) قبل الاستجابة إلى طلباتها كاملة ، كما دفعتها إلى إعلان نفسها « الجمعية التأسيسية » . إذ كان الهدف الذي عقدت العزم على تنفيذه هو وضع دستور يتيح لها الوصول إلى القوة العمل بحرية .

وقد نجحت الطبقة الثالثة وتم لها النصر في الجولة الأولى عندما أذعن لها الملك والطبقتان الأخريان ، فكان لها ما أرادت وشرعت تعمل على تحقيق أهدافها بوضع « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » — فها هي هذه الحقوق التي تصورها ممثلو الطبقة البورجوازية في ذلك العهد كما جاءت في الإعلان : « الحرية وحق الملكية وحق الأمن وحق مقاومة الاضطهاد... وحق كل مواطن في المشاركة شخصياً أو بواسطة ممثليه في وضع القوانين التي يجب أن تكون متماثلة بالنسبة للجميع ... » .

ونحن نعرف الحرية التي كانت تهدف إليها هذه الطبقة... أنها « حرية التعامل » Laissez Faire التي تعتبر أساس النظام البورجوازي الرأسمالي... حرية الطبقة الرأسمالية في تنمية ثروتها وتحقيق رسالتها التاريخية في تثبيت دعائم حق الملكية الخاصة... أما حق الأمن فهو كما نعرف أيضاً دعامة الاستقرار الذي يتطلبه ازدهار رأس المال .

لقد كانت الطبقة الثالثة تتكلم باسم البورجوازية ، وبإسمها وحدها ، وتحكم بمعاييرها . وسنرى كيف فسرت عبارة « حق كل مواطن في المشاركة شخصياً أو بواسطة ممثليه في وضع القوانين » بما يتفق وهذه المعايير .

ثم يرتفع الستار عن فصل آخر من هذه المرحلة كانت البطولة فيه لقطاع آخر من الأمة الفرنسية هم من أطلقنا عليهم « الدهماء » Les Sans-Culottes عندما دفعهم الشقاء والمعاناة والجوع إلى ماعرف في التاريخ باسم « زحف الجوع » Hunger Drive من باريس إلى فرساي في أكتوبر عام ١٧٨٩ وطالبوا بعودة الملك إلى باريس ومعه الجمعية الوطنية ، وكان لهم ما أرادوا فعادوا معهم الملك وأسرتهم يصيحون — « معنا الخباز وزوجة الخباز وسنحصل على الخبز في باريس » . وهذا ما كانت الجماهير تريده فعلاً... الخبز .

وصارت باريس مرة أخرى مقر الحكم؛ وكانت باريس بحكم الأمر الواقع تحت سيطرة دهمائها، وبذلك بدأت مرحلة ثانية في الثورة الفرنسية ظهر فيها بوضوح أثر تلك الجموع التي لم تكن تعرف لنفسها هدفاً سوى رغبة جارفة في تحسين أحوالها ورفع ما تعانيه من ظلم بتغيير الأوضاع القائمة، فتركت قيادتها للطبقة الوسطى تستخدمها في تحقيق مآربها.

وفي سنة ١٧٩١ تم وضع أول دستور مكتوب في المجتمعات الحديثة — باستثناء الدستور الأمريكي الذي سبقه ببضع سنوات ولم يوضع موضع التنفيذ إلا بعد ذلك — دستور يقوم على مبدأ الملكية الدستورية المقيدة على نمط الأفكار التي كانت سائدة في إنجلترا وقتذاك؛ وهي المبادئ والأفكار التي ترعرعت في ظلها البورجوازية الإنجليزية.

وقد بدأ في هذا الدستور بوضوح ما تحسه الطبقة الصاعدة الجديدة من عدم ثقة تجاه الطبقة الدنيا في طريقة تفسيرها «لحق المواطن في المشاركة في وضع القوانين»، إذ اعتبرت المواطن الذي يتمتع بهذا الحق هو الذي يدفع قدراً معيناً من الضرائب كما جعلت انتخاب المجلس التشريعي على درجتين إمعاناً منها في إبعاد عملية سن القوانين عن متناول فئة الدهماء.

وإلى هنا نستطيع القول أن الثورة البورجوازية حققت أهدافها بانزاع السلطة من أيدي الطبقات الحاكمة القديمة وإبعادها عن أيدي الدهماء، ولو كانت الثورة بورجوازية خالصة حتماً لانتهى الأمر عند هذا الحد وسارت البلاد في طريقها الذي رسمته لها الطبقة الصاعدة في ظل النظام الرأسمالي على أساس تسوية عام ١٧٩١. ولكن قوة الدفع الثورية استمرت وبدأت تتجه البلاد بسرعة إلى راديكالية متطرفة، فتخلت الملكية عن مكانها للجمهورية وتعالى بعض الأصوات تندد بالفرقة التي فرضها الدستور بين المواطن «العامل» أو «الايجابي» والمواطن الذي لا يملك والذي حرم من حق الانتخاب لأنه لا يملك.

كما بدأت الأنظار تتجه إلى الحالة السيئة والشقاء الذي تعيش فيه كتلة عمال المدن التي تعاني الفقر المدقع والتي ، إذ حرمت من التمثيل في أداة الحكم ، لا تستطيع أن تسمع صوتها بالطريق الدستوري . كما بدأت الأذهان تتنبه إلى حالة القلق والسخط السائدين بين هذه الكتلة غير المتميزة من البشر وما لهذه الحالة من أثر بالغ الخطورة على الاستقرار الجديد الذي تنشده البورجوازية .

ومنذ هذه اللحظة سنرى وقع هذه المشكلة الجديدة وأثرها في اتجاه الأفكار — بل والأحداث نفسها — وسنتبين كيف تكون مفهوم البروليتاريا بمعناها الحديث .

والواقع أن هذه الفئة Les Sans-Culottes حرمت تماماً من أى نصيب في مكاسب الثورة ؛ فالبورجوازية نالت دستورها والفلاحون حصلوا على نصيبهم من الكعكة ، أما كتل العمال التي زحفت على باريس وغيرها من المدن الفرنسية الكبرى فقد نالت وعوداً بحقوق سياسية واقتصادية انتهت إلى لا شيء تماماً .

ومنذ الآن فصاعداً سنجد أيضاً أن الطبقة الدنيا في المجتمع الفرنسي — التي كانت تمثلها قبل عام ١٧٨٩ « الطبقة الثالثة » Le Tiers-Etat — قد تغيرت في تكوينها ومشاعرها فتحوّلت إلى كتلة جماهيرية يقودها بعض راديكالي الطبقة الوسطى .

وبدأ هذا الاتجاه يعبر عن نفسه في نشاط الأندية السياسية التي انتشرت في باريس وتكونت لها فروع في معظم مدن فرنسا . وكان أقرب هذه الأندية إلى الاتجاه الجديد هو الذي عرف باسم نادى اليعاقبة Jacobins — الذي أشرنا إليه في قول هارولد لاسكى من قبل — وكان هذا النادى قد بدأ بجماعة إسمها « جمعية أصدقاء الدستور » من بين أعضائها سييه وميرابو ولافايت ولكها لم تلبث أن تحولت إلى منظمة راديكالية متطرفة تحت زعامة روبسبير .

وظهرت للطبوعات والنشرات التي تحمل بين طياتها مفاهيم نستطيع أن نقول مطمئنين أنها في مجموعها تمثل « جنيناً » اشتراكياً أو استباقياً للمفاهيم الاشتراكية الحديثة .

ف نجد مثلا صحيفة مارا "L'Ami du Peuple" الذي أخذ يدعو فيها إلى عدم التشبه بانجلترا التي تحكمها قلة من الأثرياء « تستخدم مفهوم الحرية لمصلحتها الطبقية الخاصة مدعية أنها تمثل الأمة كلها » ، ويؤكد أن « الاصلاح الحقيقي لا يمكن أن يتم إلا بواسطة عمل مباشر من جانب الشعب نفسه » . ولعل هذه هي أول مرة في المجتمعات الحديثة في حدود ما نعلم ، يوجه فيها الهجوم إلى الطبقة الصاعدة الجديدة من جانب من يتحدث باسم « الشعب » وينكر عليها دعواها في أنها تمثل الأمة كلها .

وقام دانتون وديمولان — شريكا ماراً في نادي الكوردلييه — على رأس حملة توعية لتوجيه جماهير باريس إلى المطالبة بحقوقها السياسية — لا على أن هذه الحقوق في ذاتها هدف ولكن على أنها السبيل للتخلص من الغبن الاقتصادي الذي تعانيه . وهذا أيضاً اتجاه وإن لم يكن جديداً في ذاته إلا أنه جديد تماماً في ضوء ملامساته .

وتحت ضغط هذه القوى بدأت الثورة الفرنسية تتجه إلى هدف جديد هو التسوية الاجتماعية بين جميع فئات الشعب الفرنسي وعدم الوقوف عند حد المطالبة بالمساواة السياسية وحدها .

ولكن هل يمكن أن يستمر هذا الاتجاه؟ وهل أسقط في يد القوى المضادة الأخرى؟ .

لقد كانت هناك قوتان رئيسيتان تقاومان هذه الاتجاه . أولاً الرجعية الأرستقراطية ، داخل فرنسا وخارجها ، وكانت لاتزال تعمل جاهدة على استعادة

النظام القديم Ancien Régime والقضاء على كل التغييرات التي استحدثتها الثورة الفرنسية ، ولا تهمنا هذه القوة فيما نحن بصدده ، فقد كانت عاملاً بالياً obsolete فقد مقوماته الاقتصادية والفكرية ، وكانت كل جهودها مقضياً عليها بالفشل حتماً .

أما القوة الثانية فكانت الطبقة الجديدة الصاعدة التي تربعت على عرش السلطة وأحرزت الأغلبية المطلقة في الجمعية التشريعية الجديدة بحيث أصبحت هذه الجمعية هي معقلها ومصدر قوتها . ونبدأ الآن في مرحلة ثالثة من مراحل الثورة الفرنسية .

كانت الجمعية التشريعية مكونة من ٧٥٠ عضواً مقسمين إلى ثلاث فئات : الملكيين Feuillants ويمثلون اليمين ، والجيروند ويمثلون اليسار ، والوسط الذي كان ينضم مرة إلى هذه المجموعة وتارة إلى تلك عند إلى أخذ الأصوات . وكانت هذه المجموعات الثلاث من أقصى يمينها إلى أقصى يسارها تمثل الطبقة الوسطى وحدها .

فأين ممثلو الطبقة الدنيا الجديدة ! وأين المعبون عن الاتجاهات التي أتينا على ذكرها ! لم يكن لهم في الحقيقة أثر في الجمعية ؛ ومن ثم كان لابد من حدوث شيء ما تعبر به هذه الروح عن نفسها ما دامت قد حرمت حق التعبير بالطريق الدستوري .

وفي ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ حدث ما كان متوقفاً إذ هاجم شعب باريس تحت زعامة دانتون الجمعية التشريعية — وكان الشعب قبل ذلك قد هجم على التويلرى وأرغم الملك على الالتجاء إلى الجمعية التشريعية في طلب الحماية — ثم أرغم من بقي من النواب فيها على إصدار قرار بإيقاف الملك ودعوة البلاد إلى انتخاب مؤتمر وطني ، على أساس حق الانتخاب المباشر للجميع ، لوضع دستور جديد .

وكان لشعب باريس ما أراد ، فأجريت الانتخابات فوراً واجتمع المؤتمر الجديد في ٢٠ سبتمبر ، وفي ٢٢ سبتمبر أعلنت الجمهورية وبدأت الروح الجديدة تنفس عن وجودها عن طريق هذه الهيئة الجديدة .

فما هو طابع المؤتمر الوطني الجديد الذي تم تأليفه على أساس الانتخاب المباشر؟ عاد إليه حوالي ٢٢٠ من الجيرونديين بزعامة بريسو وكوندرسيه وتوماس بين ، وكان الجيروندي في الجمعية السابقة يمثلون أقصى اليسار ، فإذا بهم في المؤتمر الوطني يمثلون اليمين . أما اليسار فكان يمثل مائة من اليعاقبة الذين عرفوا باسم الجبليين بزعامة دانتون وروبسبير وكارنو وسان جوست . وظلت الأغلبية في الوسط فانضمت في بادئ الأمر وتحت الضغط الشعبي إلى اليسار ثم عادت فانضمت إلى اليمين بعد انقلاب Thermidor والقضاء على روبسبير وزعماء الإرهاب الآخرين في يوليو سنة ١٧٩٤ .

بيد أن هذا الاتجاه الواضح إلى اليسار في المؤتمر في أول الأمر لم يمن مطلقاً انقلاباً في مشاعر البلاد وظروفها ، فالأغلبية الساحقة كانت من الفلاحين الذين استفادوا فعلاً من الثورة وأصبح يهمهم استقرار الأمر للطبقة الحاكمة الجديدة — التي كان يمثلها الجيروندي والوسط — حتى يتفرغوا لاستثمار ما حصلوا عليه . ولذلك ظل الطابع البورجوازي هو الغالب على المؤتمر الجديد برغم أن اليسار المتطرف استطاع السيطرة على مقاليد الحكم طوال فترة الإرهاب بمساعدة شعب باريس . ومن ثم فأننا نستطيع اعتبار هذه المرحلة مجرد فترة عابرة لا تمثل حقيقة الوضع .

ولكن الصراع بين الجيروندي والجبليين في المؤتمر الوطني لم يكن مجرد صراع على السلطة بين الطبقة الوسطى يساندها الفلاحون من ناحية وباريس التي تسيطر عليها كتل الدهاء من ناحية أخرى ؛ بل كان في الحقيقة صراعاً بين المدافعين عن قدسية حق الملكية واتجاه جديد نحو السير بالثورة الفرنسية إلى نهايتها المنطقية بالانتقال من مرحلة المساواة القانونية إلى مرحلة المساواة الاجتماعية .

ولا يعنى هذا أن الإجراءات شبه الاشتراكية التي تمت في عهد الارهاب (مثل قوانين الحد الأعلى لأسعار السلع وتحريم التخزين ومصادرة أموال الأثرياء وقانون المشتبه فيهم) وليدة هدف اشتراكي محدد، أو أن دستور عام ١٧٩٣، الذي وأدته الطبقة الوسطى في مهده ولم تسمح بوضعه موضع التنفيذ قط، جاء بناء على مخطط اشتراكي مرسوم سابقاً.

بل أنه مما لا جدال فيه أن هذه القوانين ما كانت لتصدر لولا ضغط الظروف الحربية من ناحية وسيطرة شعب باريس وزعمائه على المؤتمر الوطني من ناحية أخرى. ولذلك استطاع ممثلو الطبقة الوسطى في المؤتمر إلغاء جميع هذه القوانين التي اعتبرت قوانيناً استثنائية بمجرد أن استرجعوا سيطرتهم واستولوا على السلطة ثانية بعد القضاء على روبسبير وزمرته — ومن قبله دانتون وديمولان.

وكان من الطبيعي أن يثور شعب باريس بعد القضاء على من اعتبرهم زعماءه، وجاءت ثورة بابيف تعبيراً جزئياً عن هذه الثورة؛ واعتبرت أول محاولة عملية للاستمرار بثورة عام ١٧٩٩ إلى نهايتها المنطقية.

ولسنا في حاجة إلى الاسهاب في تفاصيل ثورة بابيف أو في الحديث عن تاريخ حياة بابيف نفسه فجميع المؤلفات في الفكر الاشتراكي وتاريخ الثورة الفرنسية حافلة بهذه التفاصيل. ويكفي هنا أن نقول أن بابيف كان ينتمى إلى الطبقة الدنيا في المجتمع الفرنسي، ولد فقيراً وعانى الضيق والشقاء السائدين، ثم عمل مسجلاً لأراضى النبلاء وكان من مهمته أن يقوم بتحصيل المكوس الاقطاعية القاسية من الفلاحين، وهي مهمة عاقبتها نفسه لما شهد فيها من مظالم وافتئات على هؤلاء الفلاحين. ولهذا تحول، عندما نشبت الثورة، إلى ثورى متحمس واشتغل بالصحافة وساعدته دراسته السابقة لفلسفة القرن الثامن عشر على تكوين آراء خاصة سنرى فيما بعد كيف حاول تطبيقها. ولكننا نعلم أنه كان قد بدأ يتجه اتجاهاً خاصاً قبل ذلك من خطاب له، اكتشف مؤخراً، إلى

سكرتيراً أكاديمية آراس في عام ١٧٨٧ ؛ وفي هذا الخطاب نستطيع أن نتبين
البذور الاشتراكية الأولى في تفكيره . وفي عام ١٧٨٩ اشترك في « كراسة
مطالب » Cahier des Doléances دائرته الانتخابية (روان)
وطالب مثل الأغلبية الساحقة من الكراسيات الأخرى بإلغاء الامتياز والأوضاع
الاقطاعية ولكنه لم يأت فيها بمجديد .

وفي أواخر عام ١٧٩٤ أصدر صحيفة (جورنال دي لالبرتية دي بريس)
ثم غير اسمها إلى (تريبون دي بيبيل) وأخذ يدعو فيها إلى تطبيق المساواة
الاقتصادية وعدم الوقوف عند مجرد المساواة القانونية وحدها لأن « المساواة
الاقتصادية أولى بالاهتمام ، فالتفاوت الاقتصادي للكبير أسس البلاء » . ولا شك
في أن هذه الأفكار إن لم تكن اشتراكية بالمعنى الحديث المحدد فانها على الأقل
متقدمة في اتجاه اليسار عن كل ما رأيناه حتى الآن عند زعماء الثورة الفرنسية ،
خاصة وقد اقترنت بمحاولة تطبيقها عملياً . إذ أن هذا هو ما شرع باييف يعمل
من أجله .

ففي العدد ٣٣ من التريبون أعلن باييف للعالم طويها الاشتراكية الجديدة
« جمهورية الأكفاء » (République des Egaux) التي تقوم على المساواة
الكاملة بين جميع أعضاء المجتمع باعتبارهم أكفاء اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً
ودعا إلى تطبيق دستور عام ١٧٩٣ باعتبارها السبيل إلى تحقيق مجتمعه .

ولكن الثورة كانت ، كما أشرنا ، قد غيرت اتجاهها بعودة الجيرونديساندم
المعتدلون إلى السلطة والقضاء على اليقابة بإعدام روبسبير وزملائه . بيد أن
الظروف هيأت لأفكاره تربة صالحة : إذ بدأ السخط يعم بين الطبقات الدنيا
وقد تحطمت آمالها تماماً في أي إنقاذ سريع بسقوط زعمائها .

واجتمع حول باييف لفيف من الساخطين كونوا « جمعية الأ كفاء » وانضم إليهم بعض فلول اليعاقبة وأنشأوا « نادى البانثيون » الذى أغلقتة حكومة « الإدارة » فى أوائل عام ١٧٩٦ ؛ فتحول باييف وزمرة من زملائه إلى نشاط الأقيية وأصدروا صحيفة سرية باسم « المدافع عن خمس وعشرين مليوناً من المضطهدين » .

وفى صبيحة أحد أيام مارس صحبا سكان باريس ليروا على الجدران ملصقات تحمل عنوان « بيان الأ كفاء » من « تحليل مذهب باييف Babouvisme » وانتشرت الاشاعات فى باريس بأن جنود بعض الحاميات على وشك التمرد تضامناً مع الشعب .

وجاء فى مقدمة البيان (١) « إن الثورة الفرنسية ليست سوى المرحلة الأولى فى ثورة أخرى أكبر منها بكثير ستكون آخر الثورات » وفى مكان آخر منه جاء « ألغوا الملكية الفردية الزراعية فالأرض ليست ملكاً لأحد من الناس » . ثم طالب بإعادة دستور عام ١٧٩٤ الذى « يضمن للشعب المساواة الاجتماعية الكاملة » . وكلها مفاهيم كما نرى أصبحت منذ ذلك الوقت جزءاً لا يتجزأ من التراث الاشتراكى .

وقررت حكومة « الإدارة » المبادرة بالعمل ، وكانت قد تجمعت لديها أدلة على مؤامرة يستعد باييف للقيام بها هو وبعض زملائه (الذين كان من بينهم بعض رجال الجيش أحدهم ضابط كان جاسوساً للحكومة ينقل أخبار الجماعة أولاً بأول إلى السلطات) فألقت القبض على باييف وعدد كبير من أتباعه .

وأعدم زعيما المؤامرة ، باييف وداريته ، ونفى كل من سيلفان مارشال

(الذي وضع بيان الأ كفاء) وبووناروتى (الذي عاش ليكتب تاريخ مؤامرة الأ كفاء . وظل الاشتراكيون الثوريون يعتبرون كتابه أنجيلهم الذي يرجعون إليه)

ويتبين من الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها في السجلات الخاصة بمحاكمة بابيف ورفاقه أنهم كانوا يريدون الاستيلاء على السلطة بواسطة مجموعة صغيرة من الزعماء الثوريين وينشئون حكماً ثورياً يعتمد على أتباعهم في الجمعيات السرية الباريسية مع العمل بسرعة على انتخاب جمعية وطنية جديدة على أساس الانتخاب المباشر للجميع كما جاء في دستور عام ١٧٩٣ . كما عقدوا العزم على الشروع فوراً ودون انتظار حتى تجتمع الجمعية الوطنية في اتخاذ إجراءات المصادرة على نطاق واسع وإعادة توزيع الأموال المصادرة على أساس من التملك المشترك في السلع واستعمالها على قدم المساواة بين الجميع وإلغاء حق الميراث فوراً بحيث تتحول الملكية الخاصة كلها في جيل واحد إلى ملكية مشتركة .

وجلى أن بابيف وزمرته كانوا يوجهون قسطاً ضخماً من اهتمامهم إلى عمال المدن ، وهي ظاهرة جديدة تماماً لم نقابلها في أى مجتمع حديث من قبل — وليست هذه هي الظاهرة الجديدة الوحيدة في حركة بابيف .

إن التمرد الذي قام به بابيف لم يحقق كما نعلم شيئاً من أهدافه المباشرة ، فقد أخفق التمرد — وكان لا بد أن يخفق — حيث أن الظروف التي يتطلبها نجاحه غير متوفرة ؛ أوعلى حد ماذهب إليه كارل ماركس كان لا بد لمثل هذه المحاولات الأولى في الكفاح المباشر Direct Action أن تفشل بالضرورة لأن البروليتارية كانت لاتزال جنيناً في رحم المجتمع ولم تكن الظروف المادية لميلادها قد وجدت بعد .

بيد أن أهمية مؤامرة بابيف لاترجع إلى ما حققته فعلاً ، بل إلى أنها كانت طليعة للحركات التي جاءت بعدها في سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨

وسنة ١٨٧٠ ثم أخيراً في سنة ١٩١٧ إذ أنها أول علامة على أن الصراع السافر انتقل إلى صعيد جديد بين قوتين مختلفان عن طرفي النزاع الذي وضعت الثورة الفرنسية الكبرى حداً له في فرنسا؛ إنها علامة — إذا كان لي أن أستعير مفهومًا من مفاهيم المادية الجدلية — على تكوين مركبة Synthesis جديدة من قضية ونقيضة Thesis & Antithesis جديدتين ، وأن المسرح قد أعده لقصة صراع طبقى جديد . كما أن هذه المؤامرة منحت الفكر الاشتراكي إلى جانب ذلك ثلاثة مفاهيم أساسية تعتبر اليوم جزءاً لا يتجزأ من النظرية الاشتراكية ، ونستطيع أن نرى آثار هذه المفاهيم منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم .

فهناك أولاً فكرة القلة المجاهدة المختارة التي تقود الجماهير إلى المجتمع الاشتراكي وتفرض ديكتاتورية البروليتاريا (١) التي تعتمد على الجماهير الكادحة وحدهم وتعمل من أجلهم . وقد تلقف هذه الفكرة بلانكي وأنصاره وتمحلت على أيديهم إلى مذهب « القلة الواعية » التي لعبت دوراً كبيراً في النظرية السندكالية الفرنسية حتى الآن .

ونحن نعلم أنه برغم أن ماركس عدل عن فكرة القلة المجاهدة المختارة التي تقود الجماهير وتدريبها ، إلى فكرة ضرورة أن تكون البروليتاريا كلها واعية وإلا فإن زعماءها يظلون عاجزين بلا سند ، فإن لينين وتروتسكي طبقا الفكرة الأولى حرفياً وبمخذافيرها في ثورة عام ١٩١٧ ؛ ولا يغير من هذا أن كتاب الشيوعية الحديثين نفوا مراراً وتكراراً أن لينين مدين بشيء لبلانكي .

وهناك ثانياً مذهب « العمل الثوري المباشر » Revolutionary Direct

(١) ايسايا برلين « كارل ماركس » (١٩٥٦) ص ١٤ و ١٠٠ و ١٧٣ .

Action بواسطة الجماهير نفسها باعتباره الأسلوب الوحيد الذي يمكن عن طريقه تحقيق المجتمع الاشتراكي ، وهو المذهب الذي تلقفه أيضاً بلانكي وتاريس وانتقل إلى إنجلترا عن طريق أوبرايان — زعيم القطاع المنادي باستعمال العنف من المرائضيين Chartistes — إذ قام بترجمة كتاب بووناروتى عن ثورة بابيف إلى الإنجليزية وجعل من نفسه داعية لمذهب بابيف في إنجلترا .

وهناك أخيراً مذهب صراع الطبقات الذى كان بابيف أول من أدخله عملياً فى الحركات الاشتراكية . ونحن نعلم أن فكرة صراع الطبقات كانت موجودة قبل الاشتراكية الحديثة بقرون ، ولكن الذى لا جدال فيه أن أول صراع طبقي يظهر سافراً على مسرح التاريخ كان على يد بابيف وزملائه . كما أن فكرة البروليتاريا كظرف فى الصراع ارتبطت دائماً بابيف (١) .

ويقول كول ، فى موسوعته الاشتراكية الضخمة التى ضمت جميع مذاهب الفكر الاشتراكي الحديث ، أن أول أصحاب المشروعات الاشتراكية ممن يعتد بهم هو : جراكوس بابيف ، لأنه بالرغم من أن كلمة اشتراكية نفسها لم تكن قد عرفت بعد فى أواخر القرن الثامن عشر فإن لبابيف حقاً واضحاً فى أن يعتبر أول مفكر اشتراكي وضع نفسه على رأس حركة ذات أهداف اشتراكية بالمفهوم الحديث ، ومن بابيف انحدرت سلسلة طويلة من الاشتراكيين الذين اعتبروا التآمر الثورى وسيلة تحقيق المجتمع الاشتراكي . وما من شك فى أن فكرة بابيف تركت أثراً عميقاً فى اتجاه الحركات التالية وبخاصة فى فرنسا ، بل وأن جميع حركات المساواة الكاملة والشيوعية فى فرنسا تدعى ، على حد ما ذهب إليه الأستاذ دافيد تومسون فى مؤلفه القيم عن مؤامرة بابيف أنها تنحدر بصورة

(١) أنظر كول Op. Cit ، ص ١٣ .

أو أخرى من مؤامرة باييف ، وأن الثوريين والجمعيات السرية في أوروبا عامة طوال القرن التاسع عشر تعتبر كتاب بوناروتى عن المؤامرة أنجيلها .

وهكذا فإن الثورة الفرنسية — ثورة الحرية والمساواة والإخاء — منحت البورجوازية الصاعدة الحرية في السيطرة على مقدرات المجتمع الفرنسى وتسكديس الثروات الهائلة ، ومنحت المالكين المساواة — أى المساواة فيما بينهم أمام القانون ولكنها لم تمنح الكادحين سوى الأخاء وتقليد باييف الثورى .

عبدالكريم أحمد

نقد الكتب

سندباد مصرى أو جولات فى رحاب التاريخ

دار المعارف بمصر — ١٩٦١

عاد السندباد المصرى (الدكتور حسين فوزى) من سفره الطويل وقد
عودنا أن يعود محملاً بالطرائف وأن يشرك قارئيه فى التمتع بلذة الذكرى والفرج
بعد الشدة وما عانى من مشقات الطريق . ويحاول الدكتور فوزى أن يخفى
ما عانى ، فزعم أن لا فضل له فى هذا الكتاب ؛ إلا أنه رسم خطته ونظم
فصوله ، وأضاف أمراً له خطورته فقال إنه نظمه تبعاً لانفعالاته الشخصية بتاريخ
بلادته ، وأضاف أيضاً أمراً آخر له خطورته مؤداه أن الحقيقة فى مسائل الرأى
بعيدة المنال .

ويقول الدكتور فوزى أنه منذ زمان طويل وهو يطمع فى وضع كتاب على
هامش التاريخ يكون صورة من ملحمة هذا الشعب الذى يفخر بأنه واحد من
آحاده ، وجاءت ثورة يولييه ١٩٥٢ فأحس فيما يشبه الإلهام بأن فجراً جديداً
صحيحاً لا كاذباً قد طلع فى أفق التاريخ المصرى ، وربما كان ذلك الفجر هو
الذى أنار له طريقه إلى تأليف هذا الكتاب الذى لم يكن فى الإمكان كتابته
قبل أيام هذه الثورة .

وقد وصف الدكتور فوزى نفسه بأنه ليس مؤرخاً ، وإن كان غير مجرد تماماً
من الإحساس بالتاريخ ، وأنه اعتمد فى كتابته على الخليجات الروحية التى أشار
إليها ، وعلى ما طالع من كتب الأولين والآخرين فى تاريخ بلادته ، وعلى القليل
الذى عاشه من ذلك التاريخ بلحمه ودمه وتفكيره ، فكتبه فى مجبوحه الأدب
والفن : حرية فى الفكر وتحرر فى الأسلوب . فكتابه أدبى محض ، وطلب أن
يحاسب عليه فى حدود الأدب والفن ، إلا أن واجبه نحو حقائق التاريخ اقتضاه

(١) هذا المقال آخر ما كتب المرحوم الأستاذ محمد شفيق عُربال بخط يده لهذه المجلة .

أن يذيله بمجمل لتاريخ مصر، ورجا القارىء أن يلقى عليه نظرة سريعة قبل البدء بمطالعة الكتاب على أن يعود إليه كلما دعاه إلى ذلك داع .

ويقول الدكتور فوزى أن دوره كان أشبه بدور المخرج السينمائي الذي لا يكتب القصة ، ولا يستخلص السيناريو ، ولا يضع الحوار ، ولا يصمم الديكور ولا يعمل مع أجهزة الإضاءة ولا يمثل ، ولا يصور ، إنما هو يستخدم كل ما تضعه حرفة السينما وصناعتها وفن رجالها ونسائها بين يديه من إمكانات ، ليجمع ذلك في صورة تتجلى في ذهنه أولاً ، وقد ينجح في تنفيذ الصورة الذهنية وقد يخيب .

ومعنى هذا فعلاً أنه رجع للنصوص ، وكون منها المادة أو الصورة ، بل إن بعض فصول الكتاب عبارة عن نصوص تاريخية عدلت تعديلاً طفيفاً . ومهمة المؤلف لم تزد حسب قوله عن مجرد ترتيب الوقائع ترتيباً درامياً ، هذا الترتيب الدرامي له أثره في أسلوب الكتاب ، من أوله لآخره ، في الموضوعات التي أثبت ، والموضوعات التي أهمل ، في التحول إلى العامية في بعض الألفاظ وبعض التراكيب .

وسنرى أن الترتيب الدرامي أدى إلى انحراف المؤلف عن قصده : كان قصده أن يكون كتابه كما قال — شعب نامه لا شاه نامه . ولكن الدراما انتهت بأن تكون شاه نامه لا شعب نامه ، فلا تكون دراما إلا حول أحداث جسام — ولا تكون أحداث جسام إلا حول الذين اقترنت أسماؤهم بتلك الأحداث الجسام .

وإليك البيان بأقسام الكتاب الثلاثة : أولاً — الظلام وبه مشاهد الفتح العثماني ، وقدم الفرنسيين ، وما جرى بين علي باشا الطرابلسي والمماليك ، وارتقاء محمد علي الولاية ، وترجمة أغنية شعبية تبكي المجندين ؛ ثم آراء المؤلف فيما كان يجب أن يكون عليه الاقتباس في الحضارة العربية .

ثانياً — الخيط الأبيض والخيط الأسود ومشاهده : ألف عام ، وصراع القومية المصرية ، وثلاث ملكات (أم خليل و بنت الزمار ، أي كليوباترة . والصعيدية أي حانشبوت) ، والقبراط الخامس والعشرون

ثالثاً — الضياء ومشاهده ، من قبل التاريخ ، ومن الحضارة المصرية القديمة .

* * *

ولنبداً — كما طلب إلينا الدكتور فوزى — بالمجمل في آخر الكتاب — وهو مجمل جيد حقاً ، وجودته في أجزائه القديمة أظهر ، فما تعلق منه بالحضارة المصرية القديمة مستند إلى دراسة حقيقية للآثار ، والانفعال هنا مشروع ، وما تعلق منه بالمسيحية في مصر به أصالة ، وهو مما يجمله أو لا يهتم به الدارس المصري . ومن صفات المجمل عنايته بهذا الموضوع ، وكما تقدم بنا الزمن نحو زماننا كلما غلبت على صفة الانفعال ما يرضى بالحكم المتزن ، ولا يهدى نحو التقدير الصخبيح .

* * *

نحن الفرس . نحن المقدونيين ، نحن الرومان ، نحن الروم ، نحن العرب :
المغاربة ، الكرد ، أبناء . فرغانة . وكرديستان ، نتوكل بأمر الحرب ... الخ .

أما أبناء مصر فصناعتهم بناء الحضارة ، ولكن ألم يتكون أبناء مصر ، ممن كانوا عرباً ومغاربةً وروماً الخ .

كتاب الدكتور فوزى ممتع لأقصى حدود الإمتاع ، ولكنه خطر لأقصى حدود الخطورة ، وإنا لا نزال نترب كتابه شعب نامه .

محمد شفيق غربال

أنباء ومؤتمرات

المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية

تونس — ١٨ — ٢٩ مايو سنة ١٩٦٣

انعقد المؤتمر في مدينة تونس في المدة من ١٨ — ٢٩ مايو سنة ١٩٦٣ .
وكان الرئيس الفخري للمؤتمر السيد الشاذلي القليبي كاتب الدولة للشؤون
الثقافية والأخبار .

وانتخب رئيساً للمؤتمر السيد عثمان الكمال حافظ دار الكتب الوطنية .
وكونت السكرتارية العامة من الدكتور علي ابراهيم عبده وكيل الإدارة
الثقافية بجامعة الدول العربية . والسيد محمد أحمد النيفر عضو ديوان السيد كاتب
الدولة للشؤون الثقافية والسيد حسني أحمد عبد الرحيم الملحق الثقافي بجامعة
الدول العربية .

وكان مقرراً اشتراك الدول الآتية :

المملكة الأردنية الهاشمية — الجمهورية التونسية — الجمهورية الديمقراطية
الشعبية الجزائرية — الجمهورية العراقية — الجمهورية السورية — الجمهورية
العربية المتحدة — دولة الكويت — الجمهورية اللبنانية — المملكة الليبية
المتحدة — المملكة المغربية — مجمع اللغة العربية بالقاهرة — المجلس الأعلى لرعاية
الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية — جامعة تونس — جامعة دمشق —
جامعة عين شمس — الجامعة الأمريكية ببيروت — هيئة اليونسكو — منظمة
مجلس المتاحف الدولي .

وقد تخلف عن الحضور وفدى الجمهورية العربية المتحدة والمملكة الأردنية
الهاشمية ومثل الجمهوريات اللبنانية والمملكة المغربية والمملكة الليبية المتحدة
مستشاري وسكرتيري سفارتها . ومثل مجلس المتاحف الدولي رئيس الوفد السوري .

وقد اشتمل جدول الأعمال على :

- ١ — تقارير الدول العربية عما قامت به كل دولة من أبحاث أثرية أو حفائر أو ما أصدرته من مؤلفات علمية خاصة بالآثار في السنوات الثلاث الأخيرة .
- ٢ — بحوث علمية يلقونها أعضاء المؤتمر .
- ٣ — قوانين الآثار في البلاد العربية .
- ٤ — اقتراح تأليف كتاب عن المعالم الأثرية في البلاد العربية .
- ٥ — اقتراح تخصيص أسبوع في البلاد العربية لإنقاذ آثار النوبة .
- ٦ — المشروع الاستثنائي الذي أقرته الحكومة السورية لمنطقة تدمير الأثرية .
- ٧ — محاضرات عامة عن الآثار .
- ٨ — ما يستجد من أعمال .

وأضيف إلى هذا البرنامج :

- (أ) رعاية الصناع المشتغلين بترميم الآثار .
- (ب) إنشاء مكتب دائم بالجامعة العربية للعمل على متابعة قرارات المؤتمر .

وتسكونت لجان المؤتمر من ثلاث لجان :

- ١ — لجنة إنقاذ آثار النوبة ومشروع منطقة تدمير الأثرية .
- ٢ — لجنة قوانين الآثار ، رعاية الصناع المشتغلين بترميم الآثار .
- ٣ — لجنة تأليف كتاب عن الآثار في البلاد العربية ، قاموس المصطلحات المعمارية والبلاد العربية .

وبعد أن يتم توزيع الأعضاء على اللجان لدراسة الموضوعات السابق الإشارة إليها قرئت التقارير التي تقدمت بها الجامعة العربية ودولة الكويت والجمهورية السورية . وقد استعرضت دول العراق والكويت والجمهورية السورية في تقاريرها

عن النشاط الأثاري في بلادهم. كما ألقى الدكتور فيصل الدائلي (العراق) تقويم عن آثار العراق ومشاريع الري التي يخشى منها على تلك الآثار، والسيد عطا الله وهيئة (الجزائر) تقريراً عن عمليات الحفر في سطيف وشرشال، ووزع السيد أحمد المسكناسي محافظ السكّتب والآثار المقيمة بالرباط تقريراً عن المدافع الأثرية في شمال الرباط. وألقى مسيو دايفوكو (اليونسكو) كلمة عن برنامج اليونسكو من سنة ١٩٥٩ ثم ألقى البحوث والمحاضرات. فألقى الدكتور سليم عادل عبد الحق رئيس وفد سورية بحثاً عن بصرى وفلسفتها — والأستاذ حسن عبد الوهاب (المجلس الأعلى لرعاية الفنون) بحثاً عن — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة — والسيد بشير زهدى (سوريا) عن الخلى الذهبية القديمة — والدكتور عبد الهادي شعيرة (جامعة عين شمس) عن تاريخ التحصينات في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة. والأستاذ سعيد الديوهجي (العراق) بحثاً عن الزخارف الرخامية في الموصل والأستاذ كاظم الجنابي (العراق) عن دار الامارة في الكوفة وما أجراه من حفرات فيها. والأستاذ عمار الحجوبى (تونس) عن مشاهد ساتون بالأفارق، والأستاذ محمد الشابي (تونس) عن ثورة صاحب الحمار ونقوده والأستاذ الفاضل ابن عاشور — عن الآثار الحفصية بالمرسى.

والأستاذ طارق رجب (الكويت) تقريراً عن نشاط الكويت في مناطق حفرياتها.

وألقى الأستاذ عبد القادر محداد (الجزائر) بحثاً عن آثار الجزائر.

والسيد الهادي سليم (تونس) بحثاً عن مسرح الجم الأثرى.

والدكتور عبد العزيز درويش (تونس) بحثاً عن صور آلات الموسيقى والرقص

في الفسيفساء.

والسيد مصطفى زيدس (تونس) عن الحراب في الهندسة المعمارية.

والسيد ديمتري برامكي (الجامعة الأميركية) عن الحفريات في لبنان
في الثلاث سنوات الأخيرة .

أما المحاضرات فقد اقتصر على محاضرتي الأستاذين مصطفى زبيس عن آثار
تونس وحسن عبد الوهاب عن آثار القاهرة .

وختمت أعمال المؤتمر بتوصيات هامة منها :

- ١ — تخصيص أسبوع في البلاد العربية لصالح إنقاذ آثار النوبة .
- ٢ — مناشدة حكومة الجمهورية السورية لتعزيد المديرية العامة للآثار
والتاحف لإنقاذ آثار تدمر وأن توفد حكومات الدول العربية مهندسيها وعلماء
الآثار في مواسم التنقيب إلى تدمر للمشاركة في أعمال التنقيب .
- ٣ — التوصية ببذل الجهود لمسح آثار المناطق الأثرية التي ستغمرها مياه
السد بالعراق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الآثار .
- ٤ — التوصية بإنجاز المسح الجوي والأرضي للمناطق الأثرية .
- ٥ — نشر الثقافة الأثرية — بوضع مؤلف عن المعالم الأثرية في البلاد العربية .
- ٦ — توصية الجامعة العربية بوضع قاموس موضح بالرسوم للمصطلحات
المعمارية في البلاد العربية .
- ٧ — إقامة معرض ثقافي عربي متنقل في البلاد الأجنبية .
- ٨ — توصية الدول العربية بأن تعمل جامعاتها على إنشاء معاهد أو فروع
لدراسة الآثار .
- ٩ — إنشاء فرع لدراسة الآثار بمعهد الدراسات العربية بالجامعة العربية .
- ١٠ — تأليف كتب مبسطة عن تاريخ الآثار وترجمة الكتب
الأثرية الهامة .

- ١١ — تسجيل التراث الموسيقي العربي في المغرب .
- ١٢ — يوصى المؤتمر الدول العربية المتقدمة في الدراسات الأثرية أن تخصص منحاستون . تدريبية ودراسية للدول العربية المحتاجة إلى المختصين في هذه الدراسات .
- كما تضمنت التوصيات توجيهات نحو التنقيبات الأثرية تعيين الناشئين من الدول العربية في أعمال التنقيب . والعمل على إعداد عدد وافر من الفنيين في مختلف فروع الآثار .
- وكذلك تضمنت توصياته عدة بنود لحماية الآثار وصيانتها والرجوع إلى الهيئات الأثرية في كل ما يتعلق بالمناطق الأثرية وحول الآثار .
- وأيضاً تضمنت التوصيات العناية بالصناع المختصين بترميم الآثار ومساعدتهم على تدريب غيرهم وترشيحهم للقيام بأعمال الترميم التي تشرف عليها الهيئات الأثرية ، هذا عدا توجيهات لإدارات المتاحف يستفيد منها الدول الناشئة وتسكوبن المتاحف وإعدادها .
- ومن توصيات المؤتمر أن يكون قانون الآثار الذي وضعته الجمهورية العربية للتحدة أساساً لمشاريع قوانين الآثار في البلاد العربية .
- ورفع مستوى رجال الآثار إلى مستوى رجال الجامعات في الدرجات والرتبات وأن تقوم الجامعة العربية بمتابعة تنفيذ قرارات المؤتمر .
- وألحقت التوصيات ببيان المناطق الأثرية والآثار المقترحة الكتابة فيها فيكون موضوعاً لسكتاب « المعالم الأثرية في البلاد العربية »
- وقد نسقت هيئة المؤتمر برنامج رحلات لأعضاء المؤتمر زاروا فيها معالم تونس وآثارها وأسواقها وكذلك القيروان والمهدية وسوسة وصفاقس والمنستير . وقد استغرقت تلك الرحلات ثلاثة أيام الجمعة والسبت والأحد ٢٤ — ٢٦ مايو .

A WORD OF APPRECIATION

By

Professor Arnold Toynbee

Mr. Chairman, Ladies, Gentlemen, and members of the Academy ;

I am very grateful to you for giving me the opportunity to say what I feel about the great scholar, whose loss we feel to day. When I was a young professor in the University of London, in 1920, I was given the honour of being the supervisor of a certain number of research students, working for higher degrees in history. Two of those students stood out above the rest ; one was Mohamad Kasim, the other was Shafeek Ghorbal. I could see at once that those two men were going to make their mark in their country, and also in the world, in their later life. When you have gifted students you cannot teach them very much. All professors know this. I cannot remember anything that I was able to teach to Shafeek Ghorbal, but I can remember a number of things that I was able to learn from him ; because a part of the pleasure of the relation between the professor and his research students is this reciprocity in which they educate each other. Sometimes the relation between the professor and his student remains a purely professional one ; sometimes, fortunately, it turns out into a friendship, as it was in the first years with the Egyptian students of mine. Our relation became one of personal friendship, as well as professional. We didn't see much of each other in later life. It was difficult for me to meet them. But we kept in touch. I could tell what kind of career Shafeek Ghorbal was going to have. Some people are born with the gift of scholarship, he was one of those. Above all, he had the gift of character and objectivity both of which have been referred to already. It was very marked in Shafeek Ghorbal that he had independence of mind, and the dedication and determination to see his own researches to the end. It is so rare that people are distinguished in both the field of learning and the field of administration. And academic life, I am afraid, when it captures a person, generally absorbs all his time and energy. But as we have

been told, Shafeek Ghorbal had the ability to be a great administrator, and at the same time to remain always a scholar, a friend and a teacher. So, as time is passing, I don't wish to say more, except one thing: that on this happy first visit that I am paying to Egypt there is only one sad thing, that I arrived too late to see either of my old pupils.

I think one of the last personal letters which Shafeek Ghorbal wrote to me, was a letter which reached me three days before his death, saying, "When you come to Cairo you are going to stay with me". God disposed it otherwise. As I travel about the world I meet with scholars everywhere, who know about his work, who honour him as well as we do. He was famous, not only in his own country, or in England but everywhere.

Thank you all, for allowing me to speak to you.

